

دراساتٌ ومجرافية
في
سِكانِ العالم العربي

تأليف

الدكتور أحمد الشاذلي

obeikandi.com

كلمة افتتاحية

عالجنا المسألة السكانية من قبل في أكثر من مؤلف ، ودرجنا على معالجتها بالطريقة التقليدية التي كانت تلام مع الوضعية الإجتماعية للقطاع الجنوبي من الجمهورية العربية المتحدة ، وقد تبيننا - في ضوء التجربة العلمية ، وعلى هدى الدراسة التكاملية ، ضرورة تطوير الدراسات الديموجرافية تطويراً يقابل الأهمية النسبية لحاجة جمهوريتنا العربية للإفادة من هذه الدراسات في تصميم وتخطيط برامجها الإصلاحية ، وفي تحقيق أيديولوجيتها الاشتراكية الديمقراطية التعاونية ، وفي مساوقة علاقاتها ومحاولاتها الحيوية وفعاليتها بين مجموعة قطاعات الأمة العربية ، وأسرة الشعوب الآسيوية الأفريقية ؛ ولذلك فقد استهدفنا من وراء هذا الكتاب معالجة ديموجرافية الأمة العربية باعتبارها تمثل كتلة بشرية متكاملة الفاعلية ، متجانسة في الثقافة الروحية والمادية ، موحدة في أهدافها القومية ، تجمعها شخصية اثنولوجية ثقافية فذة ، وترتبط بمنطقة بيئية لها مشخصاتها الاكويمنية^(١) العمرانية ، باعتبارها منطقة ثقافية تواصلية^(٢) ، سواء من الناحية السلالية أو الحضارية أو الثقافية أو الفيزيائية الجغرافية الطبيعية .

كما أننا وضعنا نصب أعيننا إبراز اتجاهنا التكاملى الإجتماعى ، وخاصة من الناحية الوظيفية^(٣) وذلك صدى لإيماننا بأن هناك وحدة ديموجرافية وظيفية بين قطاعات الأمة العربية الآسيو افريقية ، فليست الوحدة

Oeknmenical

(١) يقصد بالأكويمنية النواحي العمرانية

Fisher, W. B. The Middle East, London 1950. (٢)

Functional Approach.

(٣) الطريقة الوظيفية

الديموجرافية التي تصل بين هذه القطاعات مجرد تعاطف سيكلوجى أو تآلف أدبى أو تجاذب روحى ، وإنما هى مركب متكامل الأوصال والوظائف ، بحيث لو جردنا الحدود السياسية المصطنعة من آثارها التجزئية والانعزالية ، لتكاملت نسبة التفاوت فى الكثافة السكانية بين قطاعات الأمة العربية ، ولتبسّر توطئ المواطنين العرب ، وفق ما تقتضيه معادلات الضغوط الديموجرافية المتفاوتة ، وبدون أدنى إحساس بوجود ما يستلزم الخريطة والتردد أو توقع الصدام أو الصراع بين أبناء الوطن العربى الكبير . ذلك لأن الوحدة الديموجرافية ، تستند إلى دعائم وأصول موهلة فى أصالتها ، متمثلة فى التجانس اللغوى ، والتقارب الروحى والدينى ، والإمتزاج الثقافى والمناخ الحضارى والكفاح القومى ، ولا شك أن الدراسة الديموجرافية للأمة العربية تعكس صورة من سوء التوزيع السكانى بين أجزاء الوطن العربى ، فهناك مناطق تعاني نقصاً كبيراً فى كثافة سكانها ^(١) بالنسبة لإمكانات واحتمالات عمرانها ؛ كالمملكة الليبية والجمهورية السودانية والقطاع الشمالى من الجمهورية العربية ، وفى مقابل ذلك نجد أن القطاع الجنوبى من الجمهورية العربية المتحدة يعاني تضخماً وكثافة متزايدة فى سكانها ^(٢)

وقد سلرنا الاتجاه المعاصر فى تأكيد أهمية المضمون العملى للوحدة الديموجرافية للأمة العربية كضرورة اجتماعية ، منبثقة من خريطة التوزيع السكانى ، إذا نحن وضعنا فى الاعتبار الامتداد المتصل للوطن الاقليمى الطبيعى ، والواقع أننا إذا قدرنا الظروف المعيشية والمستويات الاقتصادية والثقافية والأنماط الحضارية التى تنطوى عليها البيئة الكلية ، لانهينا إلى اعتبار الوحدة الديموجرافية كضرورة اقتصادية وعمرانية وحضارية من المفيد والجدير أن تحقق تحققاً فعلياً آتياً .

Underpopulation

Overpopulation

(١) يطلق على هذه الظاهرة اصطلاح الخلخل السكانى

(٢) د د د د د التزايد السكانى

هذا ولم نشأ أن نحصر علاجنا للمسألة السكانية في النطاق المحلي أو في الإطار العربي القومي ، بل جاوزنا ذلك بالطبع إلى المجال الدولي ، وخاصة فيما يتعلق بالمشكلات الديموجرافية التي لا يمكن علاجها منعزلة أو منفصلة عن الأوضاع العالمية وما يحيطها من عوامل دولية واتجاهات سياسية فلم نغفل الإشارة إلى مشكلة الطرد القسري للسكان العرب الأصليين من أرض فلسطين ، التي جاءت وليدة تآمر الحركة الصهيونية مع القوى الاستعمارية العالمية ، وناقشنا مشروعات توطين اللاجئين ، كما نبهنا الأذهان إلى عمليات التهجير وسياسة تخليص^(١) ، سكان بعض الإمارات العربية لكبت الانتفاضات القومية .

ولما كانت الدراسات الديموجرافية لها أهميتها في النواحي العملية التطبيقية ، فقد أبرزنا بعض النواحي المتصلة بهذه الجوانب في القطاع الجنوبي من الجمهورية العربية المتحدة ، مستعينين في ذلك بالسياسة التخطيطية للخدمات الصحية والاجتماعية والثقافية والبرامج التصنيعية لرفع مستويات المعيشة ، ومشروعات حصر القوى العاملة ، ومشروعات الإسكان والتوطين ، واتجاهات الهجرة المحلية من البيئات الريفية إلى البيئات المدنية ، وأوضحنا السمات العامة للسياسة السكانية المعاصرة ، ومدى توافقها مع الديمولوجية الاشتراكية الديمقراطية التعاونية ومقتضيات انتفاضتنا الصناعية ، وتحرر المرأة العربية وإشراكها في الجهود الإنتاجية .

ونظر آ لما نعلقه من أهمية علمية على الأسس النظرية للمسألة السكانية ،

(١) يقصد بالتخليص جلب عناصر دخيلة من غير أقوام المستوطنين للامتزاج بهم . وذلك الاصطلاح أخذته من اشتقاق لفظ « خلس » الذي استخدمه الجاحظ في كتابه الحيوان من الشخص الذي ينتسب إلى والدين من قومين مختلفين .

فقد خصصنا الباب الأول من هذا الكتاب ، لتناول هذه الناحية بصورة شاملة .

وبهذا نكون قد حاولنا أن نقدم للمتخصصين في الدراسات الإجتماعية ، والمعنيين بالشئون العربية ، نموذجاً من الدراسة التكاملية للسألة السكانية في الأمة العربية .

ونأمل أن يتابع المتخصصون والمصلحون الإجتماعيون هذا اللون من الدراسة بصورة مستفيضة دينامية متطورة .

والله ولي التوفيق

أحمد الحشاب

نوفمبر ١٩٥٩

الكتاب الاول

الأسس النظرية للدراسات الديموجرافية

obeikandi.com

الفصل الأول علم السكان وأهميته الاجتماعية

المبحث الأول موضوع العلم ونطاقه

مقدمة تمهيدية

آثرنا ان نستخدم اصطلاح « الديموجرافيا » تمشياً مع ما يعبر عنه علماء الاجتماع المتخصصون عن دراسة أحوال السكان بصفة عامة ، والواقع أن هذا الاصطلاح يعبر تعبيراً دقيقاً عن هذا اللون من الدراسة ، التي تتناول تحليل المجتمع من ناحية بنائه وهيكله المورفولوجي باعتباره يجمع بين طياته أحوال العنصر البشري ، فيتمثل في توزيع الأفراد والجماعات والشعوب الإنسانية والمجموعات والعائلات السلالية على البيئات الطبيعية من ناحية ، ومن ناحية أخرى ، فإنه يتتبع صلة هذه التوزيعات بالتنظيم الاجتماعي وعلاقة ذلك بالبيئة الاجتماعية الكلية . فمن الناحية الأولى المتصلة بالتوزيع السكاني ، يبدو أن العناية تتجه إلى تداخل السكان وتكاثفهم في ظل الظروف المحيطة بالبيئة الطبيعية من حيث كونها منطقة طرد للسكان أو منطقة جذب لهم ، وذلك وفقاً للوارد الغذائية والظروف المعيشية التي تكيف وتحدد طبيعة المنطقة ، وإمكاناتها السكانية ، ومن هذه الزاوية نجد أن كثيراً من العلماء يقررون أن هناك وشائج وروابط وثيقة الصلة بين علم السكان وعلم الجغرافيا ، بل أن علماء الجغرافيا يرون أن المباحث المتصلة

بأحوال السكان إنما تؤلف جزءاً لا يتجزأ من علم الإيكولوجيا الإنسانية. ^(١) Human Ecology

أما الجانب الآخر من جوانب المباحث السكانية ، فهو من طبيعة اجتماعية من حيث أنها تدخل في نطاق ما يسميه علماء الاجتماع بالمورفولوجية الاجتماعية ، وقد وضع عالم الاجتماع الفرنسي إميل دركهم Emile Durkheim ، صلة هذه المباحث بذلك الفرع الهام من فروع علم الاجتماع العام آفنه الأذهان إلى أهمية كيفية « تجمع السكان » لتحديد الأنماط الاجتماعية Les Types Sociaux ، وهذه الأنماط مظاهر لبنية الجماعة ومورفولوجيتها وتكوينها وفي الوقت نفسه هي الإطار الذي يعبر عنه بحجم المجتمع Le Volume ، وبكثافة La Densité لأن النمط الاجتماعي إنما يتشكل بعدد السكان ومدى تركيزهم أو تفرقهم وتباعدهم من الوحدات الاجتماعية ، كما أنه يرى أن السبب الذي أدى إلى ظاهرة تقسيم العمل الاجتماعي ، وهي أهم ظاهرة أدت إلى التطور الاجتماعي ، هو ازدياد كثافة المجتمعات الإنسانية ، وقد لاحظ من خلال دراسة الديموجرافية أن الحياة الاجتماعية تعمم وتنتشر رقعتها ، بدلا من أن تتركز وتتكاثر في عدد كبير من البؤرات الصغيرة المتميزة والمتشابهة ، فتتسع دائرة العلاقات الاجتماعية ، وتمتد من كل ناحية إلى ما وراء نطاقها الأصلي ، ولما كان تكاثف السكان واطراد زيادتهم متصل بالتثبث والاستقرار في البيئة الطبيعية بمواطن معينة ، وبإنشاء مراكز التجمعات البشرية من ناحية ثانية وبتمو وسائل التواصل والمواصلات من ناحية ثالثة ، فإن دراسة بيئة

(١) الإيكولوجيا الإنسانية Human Ecology هو العلم الذي يعنى بدراسة العلاقة

بين البيئة الطبيعية والظواهر الاجتماعية والديموجرافية وخاصة في مناطق التجمعات الحضرية .

Cf. J. A. quinn, " The Development of H. Ec. in Sociology.

المجتمع من الناحية الخارجية يجب ألا تقتصر على الناحية الوصفية الاستاتيكية
السكونية ، بل لا بد أن تتجاوزها إلى النظرة التحليلية لمعرفة الأسباب
العميقة الكامنة في طبيعة التجمعات الإنسانية ذاتها ، فن الأمور التي ينبغي
توجيه مزيد من العناية إليها هي معرفة أسباب تكاثف السكان من جهات
معينة دون أخرى ، وأسباب الهجرة من أنماط إجتماعية إلى أنماط مغايرة
أو متفاوتة كالهجرة من البيئة الريفية إلى البيئة المدنية والعوامل التي تؤدي
إلى نمو الوحدات المحلية والبيئات الريفية والمجتمعات المدنية وهذه كلها
مسائل مشتركة بين الدراسة المورفولوجية العامة ، والدراسة الديموجرافية
المتخصصة^(١) : وبهذا تبين الوشائج الوثيقة التي تربط بين علم المورفولوجيا^(٢)
الاجتماعية وعلم الديموجرافية ومن ثم يتحدد موضوع هذا العلم ونطاقه
في ضوء تلك الفذلكة المقتضية .

(١) يمكن الاستزادة في هذا الموضوع بالرجوع إلى الآتية :

R. D. Mckenize " The City " Chisago 1925.

H W. Odum and H. E. Moore,

American Regionalism N-Y 1938.

L. Momford, The Culture of Cities N. Y. 1938.

(٢) انظر الدكتور عبد العزيز عزت : علم الاجتماع والعلوم الاجتماعية للعلامة أميل دركميم

رئيس المدرسة الاجتماعية الفرنسية ترجمة وتطبيق القاهرة ١٩٤٩ ص ٢٨ - ٣٠ .

المطلب الثاني

موضوع علم السكان

أولاً يختص علم السكان بدراسة سكان العالم من حيث عددهم ، وتوزيعهم ، واستقصاء عوامل الزيادة والنقص أو الكثافة والتخلف ، كما يعنى بالميزات النوعية للسكان مثل المهنة والعقيدة والديانة والثقافة القومية والخصائص السلافية والعنصرية ، ويتناول البحث فى حالات الزواج والطلاق والمواليد والوفيات والمهاجرة والتهجير والتوطين وتوزيع السكان بين الدول والوحدات السياسية المختلفة ، وبين أجزاء وقطاعات الدولة الواحدة . وكذلك يتناول بعض المسائل التى تنبى عن حالة السكان المادية والمعنوية ، مثل حالتهم الصحية ، ودرجة انتشار التعليم أو تغشى الأمية بينهم ، ومدى انتشار الموجات الإجرامية بين ظرائفهم وعوامل الفساد والباثولوجيا الإجتماعية والطرق الوقائية والعلاجية والحلول العملية والتطبيقية . للمشكلات الإنسانية [وذلك عن طريق وضع سياسة سكانية - تلائم كل مجتمع فى ضوء البيانات التى يبرزها عن حالة المجتمع ومشكلاته فى النواحي الاقتصادية والصحية والثقافية والإجتماعية] .

ويمكن القول بأن نتائج الدراسات السكانية ، تسهم مساهمة إيجابية فى حل المشكلات الإجتماعية النوعية ، التى تختلف باختلاف المجتمعات وتتنوع وتفاوت المستويات والقطاعات ، وفى نفس الوقت يمكن أستغلالها فى تحقيق قدر من الرفاهية الإجتماعية ، خصوصاً وأن المسلم به أن رفاهية أفراد المجتمع تتوقف على عدد سكانه ومستواهم الإقتصادى والصحى والثقافى والإجتماعى ، إذ يعتقد أغلب المفكرين أن أهمية جماعة من الناس عن جماعة أخرى ، تتناسب مع عدد أفرادها وفعاليتها ، إذا تساوت بقية

الشروط والملابسات المحيطة بكل منهما ، ونعني بذلك أن تكون الموارد الطبيعية ، والمستويات الصحية والثقافية في الجماعتين متساوية ، فإذا تساوت هذه المميزات والملابسات النوعية فينئذ يقال أن الجماعة ذات العدد الأكبر هي الأهم في فاعليتها ودورها الاجتماعية ، وما من شك في أن الجماعات المحدودة العدد ، إذا أختصت بمميزات نوعية فائقة ، فإنها قد تفوق في مستوياتها وأهميتها جماعة أكبر منها عدداً ، وأحط منها في خصائصها النوعية . وهذه الإعتبارات أثرها على المجتمع في مختلف النواحي السياسية والاجتماعية والصحية والاقتصادية فهي تؤثر تأثيراً كبيراً على نسبة المواليد والوفيات ، كما أن هذه النسبة تؤثر بالتالي في أوجه النشاط الاجتماعي ..

١) وكثيراً ما تظهر الدراسات السكانية أن بين المجتمعات البشرية ما هو غنى بموارده ، فقير في عدد سكانه ، فيكون لهذا المجتمع إمكانية تهيئة ما يحتاج إليه سكانه من موارد غذائية ، وذلك بافتراض أن يحسن الأفراد استغلال موارد مجتمعهم استغلالاً رشيداً ، إذ قد يكون قلة عدد السكان في كثير من الأحيان ، من الأسباب التي تؤدي إلى عدم استغلال الموارد استغلالاً كافياً فينتج عن هذا انخفاض مستوى المعيشة في مثل هذا المجتمع ، وهذا مادعا بعض الدول أن تعمل على زيادة النسل ، ليزيد من القوة العاملة للجماعة ، وبالتالي من قوتها الإنتاجية ، [فقد أتى وقت على القطاع الشمالى من الجمهورية العربية المتحدة أن أحست سوريا بضرورة العمل على تشجيع زيادة النسل ، بسبب هبوط نسبة كثافة سكانها بمقارنتها ببعض القطاعات العربية الأخرى وخاصة بالإقليم المصرى .]

٢) قد نجد على العكس مجتمعا محدود الموارد ، ويتكاثف فيه عدد السكان ، فلا تكاد تكني موارده الطبيعية وإمكاناته الإنتاجية حاجة سكانه إذا أرادوا أن يحتفظوا بمستوى اقتصادى واجتماعى ملائم فيتسبب عن ازدياد

الكثافة السكانية في هذه الحالة انخفاض مستوى المعيشة لسكانه ، فليجأ هذا المجتمع عادة إلى علاج هذه المشكلة بمختلف الوسائل بالعمل على الحد من الزيادة المطردة في عدد سكانه ، مع محاولة استغلال موارده إلى أقصى حد ممكن ، ووضع تخطيط للانتاج القومى والتحول إلى النمط الصناعى . وهذا ما يجرى العمل وفقه في الجمهورية العربية المتحدة في الآونة المعاصرة .

(٣) كما قد يكون هناك مجتمع فقير في موارده ، وفقير في عدد سكانه ، فيظل هذا المجتمع متخلفا إذا اعتمد على موارده الخاصة ، أو يستمر في حالة تبعية إذا اعتمد على العون الخارجى ، وما يؤسف له أننا نجد أمثلة كثيرة لهذا النوع من الجماعات في بعض أجزاء وطننا العربى الكبير ، مما حفز المناصرون للقومية العربية إلى انتاج سياسة منح المعونة اللازمة للتنمية الاقتصادية والثقافية والاجتماعية لبعض القطاعات العربية الشقيقة ، كالمملكة الليبية المتحدة والجمهورية السودانية والمملكة الأردنية الهاشمية إلى جانب الإمارات والمحميات في البلاد العربية . وذلك لى لا تظل مثل هذه القطاعات في حالة تبعية للدول الاحتكارية أو الاستعمارية الأجنبية . وعلى نفس النهج ، وب نفس الروح أيدت بجموعة الشعوب الأفريقية المتحررة مساعدة بقية الجماعات الأفريقية المتخلفة لاستكمال أسباب استقلالها الاقتصادى والسياسى ورفع مستوى سكانها الاجتماعى .

ومن المحقق أنه من العسير من الناحية الواقعية أن نجد مجتمعا تتعادل فيه كمية الموارد مع عدد سكانه ، بحيث يضمن تحقيق نوعا أو مستوى معيناً من الرفاهية المادية والاجتماعية ، ففى الغالب أنه لو حدث هذا فى مجتمع من المجتمعات ، فإن هذه الوضعية لا تظل طويلا ، ولا تلبث أن تعود المشكلة السكانية إلى الظهور بصورة ما من صورها السابقة ، اللهم إلا إذا اتخذت الدولة من جانبها سياسة سكانية من شأنها أن تحتفظ بوضعها المتوازن بين

حالة السكان والموارد الغذائية والكفافية الإنتاجية وذلك باتباعها سياسة تخطيطية دينامية . والواقع أن هذه الوضعية هي ما تحاول أن تصل إليه الدول السكندناوية ، ويبدو في نظرنا أنه الهدف الذي يكمن وراء سياستنا السكانية في الجمهورية العربية المتحدة .

ثانياً هذا ويعنى علم السكان بدراسة توزيع السكان في أى مجتمع من المجتمعات حسب أعمارهم ونوعهم ، فنجد مثلاً أن المجتمع الذى تقع الكثرة بين سكانه بين سن العشرين والخامسة والأربعين يتميز بالحيوية وقوة الإنتاج ، وذلك بخلاف المجتمع الذى ينساوى معه في عدد سكانه ويتقارب ويتماثل معه في الصفات والخصائص النوعية لسكانه ، وفي الوقت نفسه إذا وجد مجتمع تقع الكثرة الغالبة من سكانه فوق سن الخمسين ، فهذا المجتمع يكون أضعف من سابقه إنتاجاً ، وأحط منه حيوية ونشاطاً وما يصدق على المجتمع الذى يتميز بالكثرة النسبية لكهوله وكبار السن فيه ، يتوقع أن ينطبق على المجتمع الذى تكون الكثرة النسبية فيه لعدد أطفالهم وصغار السن العاجزين عن العمل ^(١) ، فمثلاً نلاحظ بصناعة عامة أن الشعوب العربية تكثر من النسل إلى حد يجد معه أن عدد الأطفال وصغار السن ممن هم دون العشرين ، تبلغ نسبتهم العددية ٥١ ٪ من مجموعها في الاقليم السوري ، و ٤٨ ٪ من مجموع سكان الاقليم الجنوبي ، وربما كان هذا راجعاً إلى قصر خط الحياة بالنسبة العامة ، غير أن هذا يمكن أن يؤدي إلى قلة نسبية في عدد

(١) تميز عادة عند توزيع السكان من حيث السن بين ثلاث طبقات رئيسية .

الطبقة الأولى : تتألف من الذين تقل سنهم عن العشرين سنة .

الطبقة الثانية : تتألف من الذين تراوح سنهم بين العشرين والستين سنة .

الطبقة الثالثة : تتألف من الذين تزيد سنهم على الستين سنة .

ومن بين هذه الطبقات الثلاث ، تعتبر الطبقة الثانية هي الطبقة الوحيدة المنتجة ، أما الأولى

والثالثة ، فإنها تعيش في الغالب من ثمرة جهود الثانية .

المواطن القادرين على العمل ، إذا قورنت بمجتمعات لا تزيد فيها هذه النسبة بهذه الكفاية .

ثالثاً : ويحاول علم السكان أن يفسر ويعمل ويستقصي الأسباب الحيوية والعوامل الاجتماعية التي تؤدي إلى نمط معين من أنمطة تركيب المجتمع على أساس فوارق السن وبالتالي قدراته وإمكانياته الإنتاجية لنسبة لإمكان استغلال موارده الطبيعية وقضاء حاجاته الضرورية ، فقد ردت هذه الاختلافات مثلاً إلى اختلاف في معدل المواليد والوفيات ؛ وفي البلاد التي يقل عدد موالدها ، ولا يتزايد سكانها ، تهبط نسبة الأطفال ، وترتفع نسبة الشبان والكهول ، كما هي الحال في فرنسا بوجه عام ، في حين أن البلاد التي تكثر موالدها ترتفع نسبة الأطفال وتهبط نسبة الشبان والكهول كما هي الشأن في جمهورية الصين الشعبية [كما قد يكون لحركات الهجرة الواسعة المدى أثر في ذلك بطريقة مباشرة أو غير مباشرة ، فالبلد الذي ينزح كثير من أهله إلى بلاد أخرى بقصد استوطانها يهبط فيه نسبة الشبان لأنهم يمثلون السن الذي تسود خلاله الرغبة والإرادة للقيام بالهجرة في حين ترتفع هذه النسبة في البلاد التي يغشاها المهاجرون من الرجال الذين هم في سن الإنتاج ، كما كان الحال في الولايات المتحدة أيام كانت تشجع الهجرة إليها ، وكما هو الشأن بالنسبة لأستراليا في الآونة الحاضرة

رابعاً : كذلك لا يغفل علم السكان أهمية تركيب السكان أي مجتمع من حيث النوع من الناحية الإنتاجية ومن وجهة نظر الفاعلية الاجتماعية لا يمكن أن يعاقل كل فرد بالضرورة فرداً آخر متى تساوا في السن ، وبالمثل فقد يتساوى عدد سكان مجتمعين من غير أن يتساوا في قوة أو قدرة إنتاجهما ، وذلك إذا اختلفا من حيث استعداد سكانهما من النواحي النوعية . ومن شأن الدراسات السكانية أن تمدنا ببعض شواهد ، هذا

البنان ، فهي تعنى بإبراز حالة الصحة الاجتماعية مثل حالة المساكن ومدى ممارسة شعب من الشعوب لبعض العادات الضارة التى تؤثر على قوته الإنتاجية أو روحه المعنوية مثل شرب الخمر وتعاطى المخدرات وارتكاب بعض الجرائم . إلى غير ذلك من المميزات النوعية التى تعين الباحث على معرفة الحالة الأخلاقية والفعلية التى تؤثر على الامكانيات الاقتصادية والمادية لشعب من الشعوب .

خامساً : كما يضع علم السكان أهمية لتركيب المجتمع وتوزيع سكانه من حيث الجنس^(١) ، ذلك لأن معرفة نسبة عدد الذكور من الإناث تفيد فى معرفة قدرة المجتمع وكفائته الإنتاجية ، ومشكلاته الاجتماعية والأسرية ، وخاصة فى الجماعات التى يقضى تراثها النقاى بالحد من مجالات العمل للمرأة أو تلك التى لا تعطى للمرأة فرصاً متساوية فى النطاق الإنتاجى ، فولا تزال قطاعات كثيرة من الأمة العربية تعاني من عدم إمكان الاستفادة من القدرة الإنتاجية المعطلة التى تفرضها تقاليدها وعاداتها ولا شك أن هذه الدراسات تفسر لنا بعض الإجراءات التشريعية المتعلقة بالأحوال الشخصية ومعاملة المرأة ومن ذلك مثلاً ما فعلته ألمانيا النازية عام ١٩٣٣ من حرمان معظم النساء من الاشتغال . وأرجاعهن إلى حظيرة المنزل ليساهمن فى زيادة النسل باعتبار أن ذلك كان ينظر إليه على أنه ، واجب وطن .

سادساً : كذلك من الموضوعات الهامة التى تعنى بها الدراسات السكانية ذلك الجانب المتصل ببيكولوجية السكان أو بيئتها القطرية ، فبكل مجموعة من

(١) مثلاً ذات الإحصاءات العالمية عام ١٩٣٣ أن عدد السكان فى أوروبا من النساء يزيد على عدد الرجال ، بينما الحالة فى أمريكا وآسيا وأستراليا هى فى الغالب على عكس ذلك . وذلك بسبب زيادة الوفيات بين الذكور عنها بين الإناث ، أما الجمهورية العربية المتحدة فيكاد يتعادل عدد الذكور مع عدد الإناث مع فروق طفيفة سيأتى بيانها .

Annuaire Statistique de la Société des Nations, 1933.

(٢ السكان)

السكان ، تعيش في قطر واحد تؤلف فيما بينها في نظر علماء السكان - وحدة اجتماعية مورفولوجية ، تقدر عادة حسب عدد السكان واتساع المساحة التي يحتلونها ويمارسون فيها نشاطهم الاجتماعي ، وتدرج هذه البيئات القطرية التي يختلف حجمها من مخيم صغير كخيم البدو الرحل المتنقلين ، إلى أكبر الوحدات القطرية الأيكولوجية التي يمثلها النموذج القاري (نسبة إلى القارة) ف نجد مثلا أن أصغر الوحدات القطرية يعبر عنها بالنموذج البيئي ، الذي يكون متوسط عدد أفراد عشرة أفراد يقطنون في نجعة نائية من مرعى أو مزرعة ، و يليه النموذج الثقلي الذي يبلغ متوسط عدد أفراد المائة ، ويمثله الخيم البدوي الرعوي ، الذي ينتقل طلباً للرعى وراء الكلا ومراطن المياه ، ويلي ذلك النموذج الريفي الذي يمثله العزبة أو القرية الصغيرة أو الكفر ويكون متوسط عدد سكانه الألف ، فإذا ما كبر هذا النموذج الإيكولوجي اتخذ مظهر البلدة أو المركز ، وزاد متوسط عدد سكانه حتى يناهز العشرة آلاف نسمة (١٠) - وبعد ذلك تنتقل إلى النموذج الإيكولوجي المدني ، وتمثله المدينة التي يبلغ تعداد سكانها مائة ألف (١٠٠) ، فإذا ما كبرت اتخذت الشكل المدني الذي تطلق عليه اسم المتروبوليتان Metropolis ، ويصل عدد سكانه إلى المليون ، وقد يربو على ذلك بكثير فيأخذ الشكل المعروف باسم المتروبوليتان ، وتلي ذلك النماذج الأيكولوجية على مستوى الدويلات التي قد يصل عدد سكانها إلى عشر ملايين نسمة كم الدول ثم القارات التي تحوي كل سكان الكرة الأرضية .

ومن الملاحظ بوجه عام أن هذه التصنيفات تقريبية نسبية ، المقصود بها التيسير والمقاربة بين الحد الأعلى والحد الأدنى لتلك النماذج من حيث التوافق بين المساحة المكانية وعدد السكان ، ولكن سواء كان قوام التصنيف عدد السكان أو المساحة الجغرافية فإن هناك مبدأ عاماً تخضع له جميعاً ، ألا وهو أن كل بيئة قطرية أيكولوجية تمثل وحدة عمرانية تشتمل على مؤسسات ومنظمات ،

ترتبط بعلاقات وظيفية بعضها ببعض الآخر ، وتكون مع غيرها بمثابة خلايا النسيج البنائي والوظيفي للوحدة الأكبر ، وكلما كبرت البيئات القطرية ، زاد تنظيمها الاجتماعي تعقداً ، إذ كلما زاد عدد الناس الذين يعيشون معا ، زادت كثافتهم ، وأصبحت مؤسساتهم أكثر تعقداً ، وتختلف هذه المؤسسات والمنظمات عادة باختلاف لوحدات المورفولوجية الايكولوجية (١) فمؤسسات القبائل البدوية الرعوية تختلف عن المؤسسات المناظرة لها في البيئة الريفية ، أو في المدينة ، بحيث يجدر أن يدرس كل نوع من هذه الوحدات كل على حدة دون تعميم مطلق [كما أن هناك علاقة ارتباطية بين كثافة السكان والنماذج الثقافية وخاصة في النواحي التي يبدو فيها نشاط الفرد المباشر في استغلال موارد بيئته الطبيعية ، سواء أكان ذلك عن طريق الرعي أو الزراعة البدائية أو الزراعة المتقدمة الآلية أو التصنيع هذا وهناك غير هذا وذاك موضوعات ومسائل سكانية تكشف عنها طبيعة الصلة بين علم السكان والدراسات الإنسانية الأخرى .

(١) لفصيل ذلك انظر : M. A. Alihan : Social Ecology Acrritical Analysis N. Y. 1938.

Quinn, The Development of Human Ecology in Sociology", Contemporary Social Theory (H.E. Barnes and H. Becker eds., N.Y. 1940.

L. Mumford : The Culture of Cities N. Y. 1398. Chaps. V. and VI.

الفصل الثاني

نشأة الدراسات الديموجرافية وتطبيقاتها

المبحث الأول

لمحة تاريخية :

الوانع أننا إذا أخذنا الدراسات الديموجرافية في عمومها وجدنا أنها من أوسع الدراسات الاجتماعية نطاقاً وأشملها موضوعاً وأغزرها مادة وأقدمها عهداً ، فلقد شغلت المسائل السكانية الفلاسفة والمفكرين ، وعن القدماء منهم بأمور تتصل بشئون حياتهم ونظم معيشتهم وما يتصل بتنقيفهم وبالوسائل التي يجب على الدولة اتباعها لتحسين أحوالهم ورفع مستوياتهم غير أن هذه الدراسات كانت في أول أمرها بمثابة آراء شخصية لم تقصد إلى الدراسة الوضعية العلمية التحليلية بقدر انعكاسها لروح المفكر أو الفيلسوف الإنسانية في محاولة تخفيف أعباء الأمراض الاجتماعية واقتراح ما ينبغي أن تكون عليه الأوضاع المعيشية أو الإعداد التربوي ، والتنظيم الطبق والتوزيع المهني للسكان .

ويجدد بنا أن نشير في هذا المجال إلى الفيلسوف الصيني «كونفشيوس» الذي تتضمن آراؤه **فكرة الحد الأمثل للسكان** (١) التي وضحها علماء الديموجرافية المحدثون وخاصة **كارساوندز** Carr Saunders فكان يرى أن لكل مجتمع زراعي عدداً من السكان يتناسب مع قرة إنتاجه ، ويجب ألا يتعدى هذا العدد ، كما يجب ألا ينخفض عن هذا الحد الأمثل ، وكان يحذر من عدم مراعاة هذا الحد ، لأن ذلك يؤدي إلى الفقر وانخفاض مستوى المعيشة وخصوصاً بين الطبقات العاملة .

(١) الحجم الأمثل السكان Optimum Size وسنعالج هذه الفكرة في الفصول القادمة

وفي التفكير الفلسفي اليوناني القديم، عالج أفلاطون المسألة السكانية من وجهة نظره المثالية وخاصة في مدينة الفاضلة، ووضع للدولة الأسس التربوية التي ينبغي أن تتبعها لتجعل سكان المدينة وحدة جمعية دعائمها انسجام الرغبات الخاصة وتوازن الميول والمصالح الذاتية. وتسم سكان المدينة إلى طبقات مهنية متدرجة في وظائفها؛ قاعدتها الطبقة الكادحة المشتغلة بالزراعة والصناعة والنجارة وجذعها طبقة الجند المدافعين والمحاربين وفي قممها الفلاسفة من الحكام.

ونلاحظ بوجه عام امتزاج تقسيم السكان الطبقي والمهني بالتقسيم النوعي المعياري ذلك لأنه لم ينظر إلى علاج المسألة السكانية من ناحية تقريرية أو إحصائية وإنما تناولها في ثنايا تأملاته الفلسفية وجعل لكل طبقة من الطبقات فضيلة خاصة يجب عليها أن تلتزمها، فطبقة الإنتاج فضيلتها التعفف والاعتدال، وطبقة الجند فضيلتها الشجاعة والمخاطرة، وطبقة الحكام فضيلتها الحزم والحكمة والعدالة. . . ووجه مزيد عنايته إلى تنظيم النسل بين طبقة الجند التي لا تستمع بحياة الأسرة وإن كان قد دعا إلى ملكية الدولة للأطفال.

أما أرسطو فقد اتجه في آرائه السكانية إليها أكثر واقعية من أستاذه أفلاطون، وإن كانت هذه الدراسة جاءت عابرة في ثنايا نظرياته الفلسفية التي تهدف إلى تحقيق السعادة للمجتمع الإنساني، فقد عالج الوحدات المورفولوجية الاجتماعية التي تبدأ بالأسرة ثم القرية. ثم المدينة باعتبار أن هذه نماذج اجتماعية طبيعية تتألف مع بعضها على أساس عضوي (غير آلي) ويبدو للمحلل المدقق لآراء أرسطو، أنه قد تناول كثيراً من الجوانب السكانية سواء من ناحية المهنة الطبيعية للسكان (الزراعة والصيد وتربية الحيوان؛ والمهنة غير الطبيعية التي تتركز على التجارة والصناعة، وقد عالج الجوانب النوعية من السكان في ثنايا نظريته عن الرق

والمرأة إذ أنه كان يعتقد أن الطبيعة قد زودت كل منهما بخصائص نوعية أقل قدراً وأحط مكانة من الرجل المواطن اليوناني ، ومميز بين الشعب اليوناني وبقية الشعوب المتبررة التي هي في منزلة أدنى من حيث الاستعداد العقلي والثقافي عن الشعب اليوناني المسيد .

والذي يعيننا بوجه خاص في هذا المجال أن نشير إلى نظرية أرسطو العلمية فيما يتعلق بنمو السكان وتحذيره من النمو غير المتناسب لبعض الطبقات في المدينة لأن ذلك يؤدي حتماً إلى الثورات ، وشأن المدينة شأن جسم الإنسان فكما يجب أن تنمو أجزاء الجسم بالتناسب ، فكذلك يجب أن تراعى الدولة في نمو السكان عدم طغيان الزيادة في طبقة على حساب طبقة أخرى كما ينبغي أن تراعى الوحدة الاقتصادية بين سكانها لأن من العوامل الهامة التي تؤدي إلى التفكك الاجتماعي وقيام الثورات ، اختلاف الأصول والأنساب وعدم انصهار السلالات التي تكون شعب دولة من الدول . وقد ذكر شواهد تاريخية عن الصراع الذي يهدم بين المواطنين والأجانب إذا زاد عدد جالياتهم فهو من هذه الناحية يعارض تيارات الهجرة وتوطين الأجانب .

ومهما يكن من شيء . فإن دراسته لم تكن دراسة تحليلية تقريرية أحصائية على نحو ما هو مألوف في الدراسات الديموجرافية المهاجرة ، غير أنه كان يؤيد السياسة السكانية المثلى التي يجب عنها بالحد الأمثل للسكان .

فهو يرى أن من أهم خصائص المدينة الفياضة مراعاتها لفضيلة الوسط في عدد سكانها ، بمعنى أنه ينبغي ألا ينقص عدد السكان عن الحد الأدنى الضروري لكفاية المدينة التي تحقق لها الحياة السعيدة ، كما أنه ينبغي أيضاً ألا يتعدى هذا العدد حداً أقصى حتى لا يحتل نظام المدينة ويصعب تحقيق الرفاهية لسكانها . والسياسة السكانية المثلى في نظره هي العمل على توافق

العدد بسعة الوطن . ولن تتحقق رفاهية الأمة إلا إذا كان عدد أفرادها مناسباً لمساحة رفعتها

(٣) أما مفكر الرومان، فإن غالبيتهم كانوا يتجهون اتجاهاً عملياً في الدراسة السكانية وكانوا يدعون إلى تشجيع النسل ، وكثرة المواليد ، وذلك بقصد العمل على زيادة عدد سكان بلادهم ، وخاصة وأنها كانت تتجه إلى تنفيذ سياسة بناء إمبراطورية رومانية ، الأمر الذي يتطلب زيادة القوة الحربية عن طريق مزيد من الرجال العاملين .

وتعرض بعد ذلك رجال الدين المسيحي لبعض مسائل فرعية تتصل بالمسألة السكانية وأقاموا نظريتهم على آراء تقويمية وأحكام خلقية لاهوتية وخاصة عندما ناقشوا نظام الرق والأرقاء ووصفهم كمواطنين من الشعب وعالجوا الأحكام المتصلة بالأولاد غير الشرعيين وبإجراءات الإجهاض ومن ناحية أخرى دعا التجار ، من أصحاب المذهب التجاري الحر إلى تناول المسألة السكانية على نطاق أوسع من الناحية المحلية المحدودة ، وذلك لتخدم في تحقيق أهدافهم من الهجرة إلى الجهات التي يجدون فيها تسويقاً وترويحاً للبضائع التابعة لدولتهم .

وفي الشرق العربي ، اهتم كثير من الفلاسفة والمفكرين بالمسألة السكانية ، فتناولها الفارابي ، على أساس فلسفي يقترب فيه من آراء أرسطو وخاصة في مناقشته للمدينة الفاضلة والمدينة الفاسدة ، والمزايا الديموجرافية والمرفولوجية لكل .

أما العلامة ابن خلدون (١) فكان أثرب إلى الاتجاه العلمي في معالجته

(١) يعتبر ابن خلدون من أعظم مفكري القرن الرابع عشر ولد سنة ١٣٣٢ وتوفي سنة ١٤٠٥ وكانت له فلسفة اجتماعية خاصة وهو أول من دعا إلى إنشاء علم جديد أسماه علم العمران وهو العلم الذي يسميه حديثاً باسم علم الاجتماع . وقد وضع آراءه الاجتماعية في المقدمة التي تصدر كتابه في التاريخ المعروف باسم « كتاب العبر وذووان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر » ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأذكياء .

للمسألة السكانية بطريقة عرضية في مقدمته المشهورة ، فكان لابن خلدون نظريته عن التغيرات الدورية للسكان وأثر هذه التغيرات على الأحوال السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعمرانية كما أتى على نظرية تتفق في جزمها مع نظرية مالتس التي يذهب فيها إلى خطورة التزايد المستمر في نسبة السكان بالقدر الذي يعادله تناسب مطرد في الموارد الغذائية (١) :

ومهما يكن من شأن فإن هذه النظريات والآراء التي اعتنقها المفكرون كانت آراء نظرية فلسفية تهدف إلى أغراض عملية ، أكثر منها آراء علمية وصفية تحليلية ، تخضع لقوانين أو قواعد وأحكام عامة .

ومنذ القرن السابع عشر بدأت تظهر آراء ديموجرافية ذات مسحة علمية ، وظهرت أول ما ظهرت على يد بعض الاقتصاديين ، وفي مقدمتهم أصحاب المدرسة المعروفة باسم **التجارين** وكان الاتجاه العام الذي يميز آراءهم هو الدعوة إلى زيادة عدد السكان ، إذ أن زيادة السكان كانت لها أثرها من وجهة نظرهم ، فهي تحقق مصالحهم المادية ، لأن هذه الزيادة كانت في نظرهم السبيل إلى ازدهار الصناعة والتجارة ، ومن ناحية أخرى فإنها تنطوي على زيادة في عدد المهنيين للاشتغال كعمال ومعنى ذلك أنه يسكثر العرض بالنسبة لهم ، فتتخفض أجورهم ، وتنخفض بذلك تكاليف الإنتاج وبذلك يزداد ربح التجارين ، وتعطى فرص المنافسة بين الدول في تبادل سلعها فيزداد دخل الدول القوية في إنتاجها وتنضاعف ثرواتها وما يمكنها الحصول عليه من نقود ذهبية وفضية وكان هذا هو هدف التجارين الأسمى إذ أنهم لم يأخذوا في الاعتبار ما ينتج عن هذا الاتجاه العام من مشكلات تتصل بالأحوال الاجتماعية للكتل الشعبية وبدون النظر إلى نوع الحياة ومستوى المعيشة التي يجدر أن يحياها الأفراد ..

(١) راجع : الدكتور محمد صالح : الفكر الاقتصادي العربي في القرن الخامس عشر في مجلة القانون والاقتصاد سنة ١٩٣٣ ص ٧٥٨ - ٧٦٠ وما بعدها .

وخطط الدراسات السكانية خطوة كبيرة نحو الدراسة العلمية على يد جماعة الفيزيوقراطيين^(١) الطبيعيين Les Physiocrates في فرنسا ومن عاصرهم وجارهم من علماء إنجلترا أمثال آدم سميث Adam Smith وستوارت ميل J. S. Mill ومالثوس Malthus .

فن المشهور عن المدرسة الفيزيوقراطية أنها كانت تؤمن بفكرة القوانين الطبيعية والنسق الطبيعية والنظام الطبيعي L'Ordre Naturel ولذلك فإنها تدين بسياسة ترك الحبل على الغارب فيما يتصل بالسياسة السكانية ، ومعنى ذلك أنها لم تؤيد وضع سياسة سكانية تنطوي على التحديد أو التحسين أو التشجيع في النسل ، ذلك لأن كل شيء في الحياة الاجتماعية يسير وفق الإرادة الإلهية الخيرة ولا سبيل إلى اعتراض المشيئة أو العناية الإلهية أو النظام الإلهي ، لأن ذلك ليس في استطاعة البشر . والشئ الهام في دور جماعة الفيزيوقراط هي أنها تناولت المسألة السكانية كظاهرة تخضع للنظام الطبيعي المقدس ، وحاول أنصار هذا الاتجاه ، يدرسون السكان دراسة وصفية تحليلية ، وإن كانت قد ظلت هذه الدراسة متزجة بالقيم والأحكام المعيارية ، متقيدة بالنظرية الأساسية في الحرية وفي العناية الإلهية .

وخير من يمثل هذا الاتجاه زعيمهم العلامة كيناي quesnay (١٦٨٤ - ١٧٧٤) ، الذي قام بدراسة وصفية تحليلية شبه علمية ، لسكان

مذهب الفيزيوقراطيين : ظهر هذا المذهب في فرنسا في النصف الثاني من القرن الثالث عشر بين سنتي ١٧٥٦ ، ١٧٨٠ ، وكان أحبابه من أسبق المفكرين الذين آمنوا بفكرة خضوع الظواهر السكانية والإنسانية عامة للقانون الطبيعي وهو قانون إلهي مقدس «Divine Order» ومن أشهر علماء هذه المدرسة Quesnay صاحب كتاب الجدول الاقتصادي

Le Tableau Economique

وكذلك من أئمتهم مرسيه دي لاريفير Mereier de Riviere

ومن أشهر كتبه L'ordre Naturel et Essentiel des Sociétés

Politiques 1797 .

فرنسا ، فلاحظ انخفاض كثافة السكان فيها من مدى عشرين عاماً ، بين سنتي ١٦٥٠ - ١٨٥٠ ، وحاول أن يفسر هذه الظاهرة عن طريق معامل الارتباط بين عدد السكان والقدرة على الإنتاج ، ومن ثم علل قلة الإنتاج في فرنسا بنقص عدد سكانها ، وخلص من دراسته الديموجرافية الاقتصادية إلى قاعدة عامة مؤداها أن هناك إطراداً بين نسبة تدخل السكان وقلة الإنتاج ، فمثلاً الدولة التي يقل عدد سكانها بمقدار الثلث ، ينقص إنتاجها بمقدار الثلث ؛ ونحن لسنا بصدد مناقشة صحة آرائه ، نير أنها تعطينا صورة من محاولة تقنين الدراسة السكانية كما هو الشأن في دراسة الظواهر الطبيعية . ومحاولة الانتفاع بهذه القواعد العامة في النواحي التطبيقية العملية والاتجاهات والسياسات الإصلاحية ، كما فعل كيناي نفسه إذ يرضى الدولة - في ضوء دراساته الديموجرافية - بأن تعمل على زيادة الدخل قبل أن تعنى بزيادة السكان ، وأنه يجب أن تتوقف زيادة السكان على الزيادة الفعلية في الإنتاج والدخل القومي وليس العكس .

ويظهر نفس هذا الاتجاه الطبيعي الإلهي للمسألة السكانية على يد القس سوسمليخ ^(١) Sussmilch في ألمانيا (١٧٠٧ - ١٧٦٧) فقد حاول أن يضع قانوناً للمسألة السكانية يرتكز على زعم التعادل بين مجمل عدد المواليد وعدد الوفيات المنبثقة عن الفكرة الفلسفية في التعادل بين الخلق والإفناء ، ويتلخص قانونه في أنه يوجد بالضرورة ووفقاً للعناية الإلهية ، تكافؤ أو على الأقل نسبة ثابتة بين عدد المتزوجين وعدد المواليد وعدد الوفيات في كل سنة من السنين العادية التي لا يتخللها أوبئة أو حروب أو آفات وشروخ اجتماعية أو أزمات اقتصادية . أما إذا حدث عامل من تلك العوامل التي تخل بالتكافؤ أو تغير من النسبة بين تلك العناصر

(١) الدكتور عبد العزيز عزت . في الإحصاء

السالفة الذكر ، كأن تتسبب أزمة إقتصادية في قلة نسبة الزواج وبالتالي قلة الأطفال المنجيين في تلك السنة ، أو كأن يظهر وباء بحيث تزيد عدد حالات الوفاة بين الأطفال أو اليافعين فإن العناية الإلهية ما تلبث أن تعيد هذا التكافؤ من جديد بعد زوال تلك العوامل الطارئة . هذا وينطوى هذا الرأي على الإيمان المطلق بالنظام الإلهي المقدس Divine Order الذي تسيّر وفقه أحوال البشر في كل المجتمعات الإنسانية .

وفي إنجلترا سائر العالم الاقتصادي آدم سميث^(١) Adam Smith (١٧٢٣ — ١٧٩٠) الاتجاه الطبيعي الحر في نظرته إلى المسألة السكانية ، فطبق عليها المبدأ العام المأخوذ به في المجال الاقتصادي والمعروف باسم قانون العرض والطلب الذي بمقتضاه يتحقق التوازن في المجتمع ، ورأى أن المسألة السكانية ينبغي أن ينظر إليها من زاوية تطبيق هذا المبدأ على العمل والتشغيل ، وارتباط ذلك بالزواج والإنجاب ، فإذا افترضنا أن هناك زيادة في عدد السكان وقلة في فرص أو كمية العمل ، فإن الأحوال المادية والاقتصادية ستحول دون إقبال الأفراد على الزواج ، وتستمر الحال على ذلك إلى أن تنهيا الظروف لعودة التوازن الاجتماعي ، وكذلك الشأن إذا تنهيات فرص العمل بكثرة مع انخفاض في الكثافة السكانية ، فإن أجور الأفراد ترتفع وتحسن تبعاً لذلك حالتهم الاجتماعية ، فيقدمون على الزواج والإنجاب إلى أن تعود الحالة السكانية إلى مرحلة التوازن . . . دواليك ويبدو من ذلك مدى تأثير آدم سميث بفكرة القوانين الطبيعية ومرحلة التوازن التي تتحقق عن طريق قانون العرض والطلب ، غير أنه أقام نظريته

(١) بلقب آدم سميث بأبي الاقتصاد ، وقد خلد ذكره كتابه « ثروة الشعوب » .

Adam Smith : An Inquiry into the Nature and Causes of the Wealth of Nations.

الديموجرافية على عدم الاستقرار في العمل وفي الدخل، وهذا ما عرض نظريته لهجوم شديد من قبل العلامة سيسمونيدي^(١) (Sismondi) (١٧٧٣ — ١٨٤٢)، وهو أحد قادة الفكر الناقد للذهب الحر الإنجليزي وتعاليمه، التي لا ترضى إلا صالح الطبقة المسيطرة على الإنتاج، الأمر الذي ترتب عليه أن أغفلت الأحوال الاجتماعية والنوعية للسكان، فذرعوا بكل الوسائل لتقليل نفقات إنتاجهم، فأطالو يوم العمل وأكثروا من استخدام النساء والأطفال مع ضعفهم، ومن أجل هذا طالب أنصار التدخل Interventionnistes، من المفكرين علاج المسألة السكانية في إطار جديد ووضع مبادئ اقتصادية جديدة^(٢) لرفع المستويات الاجتماعية والإقتصادية للسكان البشرية، وقد مهد هذا لظهور النزعات الاشتراكية في صورة علمية قوامها الدراسات الاقتصادية والسكانية.

على أنه حتى إلى هذه المرحلة، كانت الدراسة السكانية دراسة تبعية أو إن شئت فقل فرعية، لم تقصد إلى ذاتها باعتبارها محور الدراسة وأساس البحث وبثورة التفكير.

(١) راجع كتابه :

Sismondi : Nouveaux Principes d'Economie Politique .

المبحث الثاني

الاتجاه العلمي في الدراسة السكانية

وأخيراً قدّر المسألة السكانية أن تتخذ الشكل العلمي ، وأن تبحث لذاتها في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر ، على يد العالم الإنجليزي مالتس Malthus (١٧٦٦ - ١٨٣٦) ، بل كان أهم ما اشتهر به مالتس هو نظريته في السكان ، وقد أمتاز على سابقيه في معالجته للمسألة السكانية في محاولة إخضاع تطور السكان وتزايدهم لقانون عام ، شأن العلوم الطبيعية التي تقوم على استخلاص القوانين العامة التي تخضع لها الظواهر الطبيعية ، والتي بمقتضاها يمكن التنبؤ بنتائجها إذا توافرت الشروط اللازمة لحدوثها أو تحققها ، ولأسنا بصدد التحدث عن نظريته^(١) ، وإنما نكتفي بأن نشير إلى أنه سجل ما انتهى إليه من الدراسة في صورة قانون معادلة ترقى بهذا اللون من البحوث إلى المرحلة العلمية ، فقد قرر أن السكان يتزايدون كل خمس وعشرين سنة بنسبة متواليه هندسية (أى بالتضاعف من مدة إلى أخرى) ، في حين أن مواد المعيشة تزيد في نفس المدة بنسبة متواليه عددية (أى بالإضافة - من مدة إلى أخرى) ومعنى ذلك أن تزايد مواد المعيشة لا تتماشى مع تزايد السكان ولذلك فقد تنبأ للبشرية ، بيوم عصيب ونادى بضرورة اتخاذ حلول عملية للملافة وقمع الكثرة ... وقد كان لهذه النظرية دوى كبير ، وحاول الكثير تطبيقها على التغيير السكاني الاقليمي ، ونحن

(١) أنظر في تفصيل هذه النظرية مجلداً خاصاً بها فيما بعد

Malthos : An Essay on the principle of Population or a view
of its past and present effects on Human Happiness
1803

وإن كنا لا نأخذ بها من الناحية الشكلية والمرضعية إلا أنها ولا شك تعتبر بداية مرحلة تحولت فيها الدراسات السكانية إلى دراسة علمية .

• وابتداء من القرن التاسع عشر ، شهدت الدراسات السكانية تطوراً كبيراً ، ويرجع ذلك في المقام الأول إلى اصطلاحها المنهج الإحصائي ، بعد أن نبه إلى ذلك العلامة البلجيكي كيتليه Quetelet^(١) ، فإنه يرجع فضل الدعوة إلى معالجة الظواهر الإنسانية والاجتماعية بما فيها المسألة السكانية بالطريقة الإحصائية حتى يمكن وضع قوانين عديدة وكثيرة .

وقد أدى انتفاع علماء السكان بالمنهج الإحصائي إلى تقدم كبير وازدهار هذه الدراسة على نحو ما سنشير فيما بعد .

والمواقع أنه قد تضافرت عدة عوامل إجتماعية في المساهمة في تقدم الدراسات السكانية تقدماً ملحوظاً ونحن نذكر منها على سبيل المثال :

١- أولاً تقدم الدراسات البيولوجية الحيوية ، والدراسات الأنثروبولوجية المتصلة بالسلالات البشرية ، وخضوعها للمقاييس الحسائية الدقيقة وارتقاء منهجها بعد الإفادة من الطريقة الإحصائية في تحليل الصفات النوعية للسكان في ضوء المعرفة النظرية والتطبيقية للخصائص الفيزيائية والعقلية والنفسية للسلالات البشرية .

ثانياً ارتقاء الدراسات الإحصائية ، وتقدمها تقدماً كبيراً ، فأصبح من الميسور استغلال ما تصل إليه هذه الدراسات في شرح وبسط المسائل السكانية ورسم خطوط السياسة السكانية وفق تخطيط عام ، وتحليل البيانات المتصلة بالأحوال الصحية والثقافية والاجتماعية ، والانتفاع بها من الوجهة العملية التطبيقية في رسم وتنفيذ الخطط الإصلاحية .

ثالثاً تعميم الانتفاع بوسائل وطرق البحث العلمي المنهجي والإفادة بوجه خاص بالدراسات المونجرافية والبحوث الإيكولوجية العمرانية .

(١) يعتبر البلجيكيون العالم كيتليه Quetelet المؤسس الحقيقي لعلم الاجتماع

وقد أدى ذلك إلى دراسة السكان دراسة مركزة مستفيضة تقوم على أساس الإقليمية Regionalism وترتكز على مبدأ النسبية الاجتماعية ولا شك أن هذا يساعد على أن تكون الحلول العملية للمشكلة السكانية منبثقة من طبيعة النظم والأحوال الإقليمية القائمة في البيئات المحلية ، وتكون السياسة السكانية أقرب إلى الواقعية منها إلى الاتجاهات النظرية .

٤- رابعاً النمو الصناعى المطرد وتأثيره على ميادين التجارة والتسويق والاستبدال والعلاقات الدولية ، وعناية الدول المنتجة بأمر الأحوال الاقتصادية والمميزات النوعية للشعوب المستهلكة أو الشعوب التى تتبادل معها السلع . وذلك لتحديد سياستها الإنتاجية وفقاً لاحتياجات تلك المجتمعات ، وفى ضوء تقديرها لقدرتها الشرائية ، وعلى هدى الوقوف على صفاتها وخصائصها النوعية .

هذا بالإضافة إلى ما استحدثته الصناعة من حياة مدنية وموضوعات عمالية تنطوى على موضوعات ومشكلات وتنقلات وهجرات سكانية تستلزم مزيداً من الاهتمام بهذا النوع من الدراسة والاعتماد عليه فى حل المسائل المتصلة بالحياة المدنية بعد أن أصبح لها الصدارة فى الأهمية فى أوقاتنا المعاصرة .

٥- خامساً تطور الوعى القومى ، وازدهار الوجدان الجماعى فى النطاق المحلى ، الأمر الذى جعل الدول تتنافس فيما بينها بالعمل على رفاهية شعبها ومقابلة احتياجاته فى الخدمات الاجتماعية ، وساد العالم فكرة قياس نهضة ورق الأمة بمقدار ما يحظى به مواطنوها من الرعاية الصحية والثقافية والتأمينات الاجتماعية فانتشرت بذلك دراسات سكانية نوعية شملت كل القطاعات التى تستهدف الوصول إلى برامج تخطيط الإصلاح الاجتماعى ، وقد أدى هذا إلى أن تعنى الدول بإنشاء أجهزة متخصصة للقيام بهذه الدراسات فى مختلف المجالات والاعتماد عليها فى رسم سياستها التخطيطية .

٦ - سادساً لم تقدم الوعي السكاني في اجمال الدولي، وقد برز هذا الاتجاه بصورة عملية ، حينما أقر المجلس الاقتصادي والاجتماعي لهيئة الأمم المتحدة ، ضرورة بحث المسألة السكانية على مستوى دولي وقد عقد أول مؤتمر عالمي للسكان في مدينة روما في أغسطس سنة ١٩٥٤ وإن دل انعقاد هذا المؤتمر على شيء ، فإنما يدل على نضوج الوعي السكاني في بقاع العالم المختلفة ، وتنبه المسؤولين عن السياسة الدولية إلى أهمية وخطورة المسألة السكانية ، والشعور بضرورة معالجتها على نطاق يعدو المجال المحلي والقومي إلى المجال الدولي العالمي وبهذا أصبحت هناك هيئات متخصصة للدراسات السكانية تابعة بصفة مباشرة أو غير مباشرة للمنظمات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية التي تشرف عليها هيئة الأمم المتحدة .

٧ - سابعاً : نمو المنهج التكاملي في الدراسات الإنسانية والفروع المتخصصة منها واعتماد كل منها على الأخرى واتصال بعضها ببعض الآخر للإفادة في النواحي العملية التطبيقية ، فأصبح الاتجاه التكاملي الآن يساوق كل مجال تخصصي ، بحيث يصعب أن تتعرف الحدود الفاصلة للمجالات المتخصصة الأمر الذي جعل من العلوم الإنسانية وحدة متماسكة ، وكفل لأى من فروعها الثمر والتقدم كلما تقدم أى فرع منها ويتطور على نحو ما يبدو من مضمون المبحث التالي :

صلة الدراسات السكانية بالدراسات الإنسانية

الواقع أننا إذا وسعنا نطاق نظرتنا إلى مجالات الدراسات السكانية ،
لقينا أنها متشعبة النواحي ، متعددة الجوانب ، تختلف باختلاف وجهات
نظر العلماء والزواوية التي يعنى الباحث بدراستها فقد يتناول بعض العلماء
النواحي التاريخية للسكان ، في مختلف البلاد ، متبعين الهجرات السكانية
التاريخية القديمة ، وفقاً للعصور الجيولوجية المتعاقبة والتطورات
والتقلبات البيئية الطبيعية ، وهذا الفريق يعنيه أن يربط بين الصفات
الفرعية للسكان وظروف البيئة الطبيعية التي يعيشون فيها أو ينتقلون إليها ،
ويمثل هذا الاتجاه بصفة عامة علماء الايكولوجيا الإنسانية Human Ecology
والجغرافيا التاريخية البشرية التي أطلق عليها العلامة راتزل F. Ratzel اسم
جغرافية الإنسان Anthropolopography حسب ألفريد برجرافس .

وهذا الفريق من العلماء المهرة المهتمين بدراسة السكان من هذه الناحية ،
يربطون بين الكشافة السكانية من ناحية و النواحي والصفات النوعية من ناحية
ثانية وبين مدى إمكانية استغلال سكان كل بيئة للموارد الطبيعية لبيئتهم
الجغرافية وأثر تغير البيئة في الحركات السكانية . ومن أشهر ما عرف بهذا
الصدد ذلك التقسيم الذي يصنف السكان إلى ثلاثة أقسام رئيسة وفقاً
لفاعليتهم تجاه موارد بيئاتهم ، النوع الأول من السكان يمثل النموذج السلبي
السائد في المجتمعات المتخلفة في الحضارة التي تمتاز بقلّة عدد سكانها وعدم
استقرار أفرادها ، واعتمادها التام على ما تقدمه البيئة الطبيعية من مواد غذائية
وما يتسره من ملاجئ وملاذ طبيعية ، وهذا النموذج السلبي من السكان
لا يملك القدرة الفنية على موارد البيئة الطبيعية ، فيظل في حالة تبعية من
النواحي الاقتصادية والسياسية والثقافية .

والنموذج الثاني من السكان ، تمثله المرحلة الحضارية التاريخية التي مرت بها

المجتمعات الإنسانية ، ويتألف من مجموعة السكان الذين قدر لهم أن يعيشوا في بيئات لها خصائص جيولوجية معينة ، يسرت لهم منابع المياه، الأمر الذي ساعدهم على اكتساب خصائص الاستقرار واستثمار غلات البيئة الطبيعية من الناحية الزراعية وعدم الوقوف منها موقف السلبية ، والأخذ بفكرة الثمرات التحويلية التي يعالجها الإنسان بمجهوده الخاص في سبيل اشباع حاجاته الضرورية ، أما النموذج الثالث للسكان فيتمثل فيما يسمى بالمجتمعات الإيجابية التي تبذل جهودا إيجابية لتغيير معالم مراد البيئة الطبيعية ، والأخذ بفكرة الانتاج التحويلي ، وتسخير الموارد الطبيعية لصالح الإنسان وتحقيق هذه في المجتمعات الصناعية .

وبحث فريق من العلماء التغيرات النوعية والصلالية التي تطرأ على السكان تحت تأثير الهجرة (أو الانعزال) ومن هؤلاء العلماء العالم فاجنر Wagner وراتزل Ratzel وليو فروبينوس Leo Frobenius وكثير من علماء الاثنولوجيا الذين وجهوا مزيد عنايتهم إلى دراسة الأصول السلالية لسكان العالم أمثال فوي Foy وانكرمان Ankermann ، وجرانبر Grabner الذين بحثوا الأصول الاثنولوجية والثقافية لسكان القارات الجغرافية ، والبعض منهم قسموا سكان العالم على أساس دوائر ومناطق ووحدات اثنولوجية وثقافية على نحو ما فعل كل من راتزل وليفو فروبينوس ، وبينارد دي لا بولاي Pinard de la Boullaye الذي حاول أن يوضح العلاقات السكانية والأقليمية بين مختلف الأجناس البشرية ، كما حاول أن يثبت وجود علاقات أساسية بين هذه الأجناس ، تساعد على معرفة الثقافة الأصلية والحياة الفكرية الأولى لأقدم السلالات ، كما توضح العلاقات الزمانية بين الثقافات المتعددة المنتشرة بين السكان في مختلف القارات .

غير أن هذه الاتجاهات الاثنولوجية التي امتزجت بالدراسات السكانية ، قد اتخذت طابعا مميزا عند بعض العلماء واصطبغت بالصبغة المعروفة الآن

بالعنصرية والتفاوت في الخصائص العرقية والاستعدادات النفسية والعقلية للشعوب ، وتمخضت عن فكرة السلالة النقية التي يجب أن تكون سكان كل وحدة سياسية ، متكره للحقائق التاريخية والاجتماعية عن الهجرات السكانية وامتزاج العائلات البشرية .

ولا شك أن النظرية التي تنادى بضرورة الوحدة الاثنولوجية والعنصرية لجميع سكان كل وحدة سياسية ، نظرية تعصبيه خاطئة كانت وليدة الاتجاهات السياسية الاستغلالية التوسعية وقد تبنتها الحركة النازية الألمانية للنسيد على سكان العالم بزعم أن الجنس الجرمانى هو أسمى السلالات البشرية وهو القمين على الحضارة الإنسانية ، وهذا الاتجاه الفكرى كان احدى الدعائم الأساسية التي بذرت بذور الحرب العالمية الثانية . ولسنا هنا بصدد مناقشة هذه الفكرة ، ولكننا أردنا فى هذا المجال أن نوضح العلاقة التي تربط بين علم السكان والدراسة الاثنولوجية وأثر ذلك من الناحية السياسية والاقتصادية ومدى تكييفها للسياسة السكانية فى المجالات الدولية ^(١) .

وقد يهتم فريق آخر من العلماء بدراسة الجوانب البيولوجية الحيوية من السكان ، فعنى يتبع الخصوبة التناسلية واختلاف نسبتها باختلاف الشعوب وفى الشعب الواحد باختلاف الطبقات ، ويظهر ذلك فى الدراسات التي قام بها Courra de gini ، والتي بمقتضاها ميز بين الشعوب على أساس الخصائص المميزة للمقدرة الانسانية ، فهو يعتقد أن كثافة السكان مسألة ترجع إلى مقدرة كل جنس على الإنسال وخصوبته التناسلية ومن أمثلتها الدراسات الديموجرافية التي أجراها العالم الأمريكى نوتشتين ^(٢) على الخصوبة التناسلية فى الطبقات الاجتماعية ببعض مراكز ومدن الولايات المتحدة الأمريكية . وينتمى إلى هذه الشعبة الحيوية فى الدراسات السكانية علماء الايوجينية .

(١) أهم آراء راتزل تضمنها كتاب الموسوم : Politische Geographie 1903 : ratzel

نظر تفصيل النظرية العنصرية فى كتابنا دراسات اثروبولوجية واثنوجرافية

(٢) سنبسط آراءه عند كلامنا عن النظريات النوعية السكان .

« Eugenics » المهتمين بدراسة تحسين النسل^(١) سواء من الناحية البيولوجية الحيوية أو الاجتماعية ، وقد اعتمدت هذه الطائفة من العلماء على الانتفاع بالنواحي العلمية التي أظهرتها دراسات جالتون Galton من ترقية مختلف أنواع الكائنات الحية ومحاولة تطبيقها لترقية النوع البشرى وتحسين الإنسان عن طريق دراسة مستفيضة لنظريات الوراثة وأثر الوراثة البيولوجية على الوراثة الاجتماعية .

ولقد تقدمت هذه البحوث على يد كارل بيرسون Karl Pearson وازدهرت بعد أن تأسس في إنجلترا مركز قومي للبحوث الأيوجينية عام ١٩٠٧ باسم فرانسيس جالتون F. Galton Laboratory of National Eugenice وأصبح لهذه الدراسة هيئات وجمعيات تعليمية Tne Eugenics Educational society بل ومجلة تنشر فيها أبحاثها المتصلة Eugenics Review بالجهود العلمية لمناقشة الوسائل العملية لتحسين النسل ، ومتابعة النشريات الاجتماعية الكفيلة بتحقيق هذا الهدف الإنساني . وقد حمل لواء هذه الدراسة في الولايات المتحدة الأمريكية كل من الكسندر جراهام بل Alex. Graham Bell والعلامة دافنبورت Davenport ، وتأسست في نيويورك هيئة علمية لتتبع هذا اللون من الدراسة تعرف باسم The Eugenics Record Office^(٢) كذلك نلاحظ أن علم الأنثروبولوجي يتصل في بعض مباحثه بعلم بنيكان ذلك لأن الأنثروبولوجيا - بوصفها الدراسة العلمية الشاملة للإنسان من حيث أنه كائن حي ، يتألف من جسم وعقل ، ويتميز بخصائص فيزيقية وعقلية في تكوينه وتطوره ، تبحث من ناحية أخرى الإنسان

(١) سنتناول موضوع تحسين النسل بشئ من التفصيل في فصل قادم من فصول هذا الكتاب.

انظر مقال عن العرب وعلم تحسين النسل ، مجلة العلوم العدد الأول يناير ١٩٥٨ .

(٢) Encyclopedia Americana. vol 10 Art. Eugenics.

من حيث أنه كائن اجتماعي يؤلف المحتوى الفاعلي للإطار السكاني بما ينطوي عليه من وظائف اجتماعية وآثار حضارية ومعالم ثقافية ومظاهر فكرية ، وهذه الوضعية نجد اتجاهها للدراسة السكانية ، تغلب عليه العناية بالسلالات البشرية وامتزاجها واختلاطها وتسكين الشعوب من أجناس متباينة . وما يترتب على ذلك من نتائج سياسية أو اقتصادية أو تفرقة عنصرية .

[وتخصص فريق كبير من علماء الأنثروبولوجيا الاجتماعية^(١) بدراسة الأحوال المعيشية والحضارية والخلقية لسكان الجماعات البدائية والمتخلفة في الحضارة ، ووجه الكثير منهم مزيد اهتمامه بدراسة السكان الأصليين في استراليا وأمريكا ، وخاصة بعد محاولة توطن الأوربيين في تلك القارتين لاستثمار المواد الأولية وحل أزمت البطالة والمشاكل السكانية في القارة الأوربية . وقد كان اهتمام المفكرين والفلاسفة من قبل هذه الجماعات مبعثه حب الاستطلاع والتعرف على كل غريب غير ألفوف ولعقد المقارنة بين حالة السكان الذين يعتمدون اعتماداً مباشراً على الموارد الطبيعية وبين السكان الذين تقدمت بهم سبل المعرفة والحضارة الإنسانية ، ولكن أصبح الاهتمام بدراسة أحوال سكان المناطق التي هاجر إليها الأوربيون أو استعمروها ، يقوم على أسباب أكثر اتصالاً بالعلم منها بالطرافة الفكركية وأصبحنا نجد من تخصص في دراسات ميدانية لسكان تلك المناطق ، فحين نريد أن نعرف أحوال السكان الأصليين لاستراليا مثلاً ، نرجع إلى ما كتبه كل من العالمين بولدوين سبنسر B. Spencer وجيلن Gillen^(٢)

(١) انظر تفصيل ذلك في مؤلفنا : دراسات أنثروبولوجية وأنتوجرافية :

(٢) اشترك المؤلفان في عدد من الكتب عن سكان استراليا الأصليين :

Sir Walter Baldwin Spencer, F.J. Gillen :

The Native Tribes of Central Australia, 1899

The Northern Tribes of 1904

The Arunta 1927.

والأنثروبولوجى هاويت Howitt كما أننا إذا أردنا أن نعرف الكثير عن الأحوال المعيشية لبعض سكان القارة الإفريقية فإننا نرجع إلى كتابات روسكو Roscoe وسليمان Seligman وإيثانز برتشارد Evans Pritchard ونادل Nadel . وبالمثل لمعرفة أحوال السكان الأصليين لأمريكا من الهنود الحمر ، لابد أن نستعين بكتابات بواس Boas وكروبر Kroeber . ودواليك

٣

ويعنى فريق من العلماء بدراسة السكان من النواحي الصحية ، فيبحث فى نسبة الأمراض المتوطنة ، ونسب الوفيات والمواليد ومتوسط العمر والقوة الحيوية ، ويربط هذه الأمور وما إليها بالظروف والأحوال البيئية الطبيعية ، وبنظام التغذية ومدى كفايتها للتغويض عن الجهود المبذولة أو صلاحيتها للنمو الصحى ، كما يفسرها فى ضوء الحالة الثقافية والاقتصادية بالنسبة للمستويات الاجتماعية المتباينة إلى غير ذلك من العوامل التى لها صلة مباشرة بالحالة الصحية .

فمن الناحية البيئية الأيكولوجية مثلاً ، قد يلاحظ العالم أن بعض البيئات الجغرافية لا تسمح أجواؤها ودرجة حرارتها ، ورطوبتها بوجه عام بالنمو الصحى للسكان ، فيزداد نسب الأمراض المتوطنة وتكثر نسب الوفيات بين المواليد ، وقد يكون للكشافة الجغرافية أو الأيكولوجية للسكان أثرها ؛ ففى البيئات الريفية حيث تتوزع التكتلات البشرية ، لا تكون فرص العدوى البائية بمثل الحال فى البيئات الصناعية التى تتركز فيها السكان وتتجمع على نحو يزيد من احتمالات انتقال العدوى بنسبة أكبر اللهم إلا إذا كانت طبيعة الأمراض منبثقة من طبيعة الأعمال ذاتها أو من آثار ما تحويه البيئة الطبيعية من مصادر وبائية كالبرك والمستنقعات والمياه الملوثة ... الخ .

وأما من الناحية الغذائية ، فهناك من علماء السكان من يتخذ من سوء التغذية أوجودتها ووفرتها مقياسا للكثافة السكانية حيث تسوء التغذية ، يكون ذلك في الغالب مظهراً من مظاهر ارتفاع نسبة الكثافة السكانية Over-population إلى جانب ما يحتمل أن يكون من نظام طبق يرتكز على سوء التوزيع وعدم تحقيق العدالة الاجتماعية الأمر الذي يترتب عليه أن يكون الاستهلاك الغذائي لبعض الطبقات دون ما يحتاجه الفرد ليحتفظ بمستوى صحي بلائم . وهذا هو السر في انتشار أمراض مثل البلاجرا الناجمة عن سوء التغذية .

والعكس إذا ما كانت التغذية ملائمة ، فإن ذلك في الغالب يتخذ مظهراً من مظاهر اقتراب حجم السكان من حده الأمثل الذي يسمح بتحقيق الرفاهية لسكانه . وما يقال عن التغذية يقال عن الرعاية الاجتماعية والخدمات الصحية والثقافية .

ويولى كثير من علماء السكان اهتماما كبيراً لتحريك السكان والمهاجرة والتهجير الاختياري والقسري ، وأثر ذلك على مورفولوجية الجماعات وعلاقة ذلك بنشأة المدن التي استكملت سكانها عن طريق الهجرة من الريف إلى مراكز ومناطق الصناعة التي كانت النواة الأولى للمدن الكبيرة ، والنتائج المترتبة على الهجرة بالنسبة للمهاجرين أنفسهم وبالنسبة للوطن المهاجر منه والمهاجر إليه ومن العلماء الذين وجهوا مزيد عنايتهم إلى هذه

(١) يظهر من تقرير وفد مصر في المؤتمر الدولي للزراعة والتغذية المنعقد عام ١٩٤٧ ، أن متوسط ما كان يحصل عليه الفرد هو ٧٧٦ ٪ من السعرات الغذائية اللازمة له من الحبوب ، ١ ٪ من المواد البروتينية وذلك نظرا لانخفاض مستوى دخله (انظر صلاح الدين نامق : مشكلة السكان في مصر ص ٦٢) .

الناحية العلامة شمoller، وتروتشي Truchy^(١) وبيرو Perreau، فقد أوضح الأول مثلاً أن الدولة الرومانية قد زادت فيها أحركة الهجرة من الريف إلى المدن الكبيرة، وكان أغلب المهاجرين من صغار الفلاحين الذين نزحوا عن ديارهم على أثر استيلاء كبار الملاك الاقطاعيين على أملاكهم ومن الأرقاء الذين كانوا يقصدون إلى المدن ليشتغلوا فيها بالحرف لحساب أسبائهم وأظهر الثاني حركة الهجرة من الريف في فرنسا إلى المدن، فقد كان عدد من يسكن الريف في فرنسا في سنة ١٨٥١ يبلغ $\frac{3}{5}$ عدد سكانها، وأصبح في سنة ١٩٢١ $\frac{1}{5}$ وذكر بيرو Perreau أن سكان الريف هبط في إنجلترا في خلال القرن ١٩ من ٥٩٤ إلى ٢٨,٣٪ وتدرج عدد مدنها الكبيرة التي يزيد عدد سكانها على ١٠٠,٠٠٠ نسمة من مدينة واحدة في عام ١٨٠٠ إلى ٨ في سنة ١٨٥٠ ثم إلى ٤٣ في عام ١٩١٠ وهذا يوضح أثر الثورة الصناعية التي نشأت في إنجلترا على تركزها المرفولوجي نتيجة الهجرات المتصلة من أهل الريف إلى المراكز الصناعية في المدن وسار على هذا النهج كثير من العلماء في مقدمتهم العلامة مفورد Mumford .

وبعني فريق آخر من علماء السكان بدراسة الجانب الاقتصادي مثل بحث العلاقة بين عدد السكان وموارد الثروة ومستوى المعيشة ويدخل في نطاق ذلك المجاعات والآزمات الاقتصادية، ومن الرعيل الأول لأمثال هؤلاء العلماء مالتس Malthus وجيفرونز Jevons وآدم سميث Adam Smith ولكن الصلة بين مباحث السكان والاقتصاد تبدو بشكل أوضح فيما تعني

(١) هؤلاء الثلاثة من علماء الاقتصاد ومن مؤلفاتهم :

- Schmoller : Principes d'Economie Politique, 5vol, 1905—1908.
vol. 2. p. 76
Truchy : Cours d'Economie Politique, 2 vol, 1921 — 23
Precis Elamentaire 2 vol 1926 — 33 vol. 1. p 61.
Perreau : Cours d'Economie Politique 2 vol 1914 vol. 1.
P. 245.

به الدول المعاصرة لتحقيق ما يسمى بالرفاهية الاقتصادية Welfare Economic فلتقياس الرفاهية الاقتصادية لا بد من الوقوف على الدخل الحقيقي للفرد ، ويتوقف هذا على مقدار الإنتاج القومي من ناحية والكفاية الإنتاجية من ناحية أخرى وتقاس الكفاية الإنتاجية على أساس متوسط إنتاج كل فرد من أفراد السكان المشتغلين بالفعل . . وكلما ارتفع مستوى الدخل الحقيقي للفرد - مع بقاء المعايير الأخرى - كلما ارتفع مستوى الرفاهية الاقتصادية ، وكلما تقلب الدخل القومي أو تعرض لتقلبات من الكساد ، كلما تضعضع الشعور بالأمن وزادت البطالة - وانخفض مستوى الرفاهية الاقتصادية^(١) .

وهناك مسألة هامة ينبغي الإشارة إليها ألا وهي عناية بعض العلماء بتتبع أثر الظواهر الديموجرافية في العلاقات الدولية ، فكثيراً ما كانت الزيادة سبباً في قيام الحروب الطاحنة بين الدول التي تضخمت شعوبها وقلت بالنسبة لهم مواردها وتلك التي تخف كثافة سكانها وتعتظم مواردها الأولية **فقال** الكثرة العددية النسبية للأغريق والرومان كانت إحدى العوامل التي ساعدتهم على الغزو وتشديد الإمبراطورية اليونانية والرومانية . . ويرجع البعض سهولة انتشار الدعوة الإسلامية إلى حركات الهجرة العربية وتوطن الجاليات العربية في الأقطار التي قدر للمسلمين أن يغزوها فيما بعد^(٢) إذ ساعدت القبائل العربية التي استوطنت مصر وسوريا وفلسطين الغزاة المسلمين لأنهم من بني عمومهم . وقد أرجع العلامة الفرنسي ألفريد ساوق Alfred Sauvy قيام الحرب العالمية الثانية إلى العامل

(١) فؤاد الشريف : اقتصاديات المنافع العامة

Alfred Sauvy : La Population; Paris, 1448.

(٢) عزة النص : أحوال السكان في العالم العربي .

الديموجرافى ، فإن معاهدات الصلح التى أبرمت بعد الحرب العالمية الأولى قد أهملت قضايا السكان ، ولم تعالج مشكلة الهجرات وخاصة بعد إيقاف هجرة الأوربيين إلى الولايات المتحدة ، وتوقفها عن دول أمريكا اللاتينية . ويفسر العلامة كوكس H. Cox قيام اليابان بغزو الصين عام ١٩٢٥ وغزو إيطاليا للحبشة وليبيا إلى الضغط السكانى من كل من اليابان وإيطاليا مع وجود أيديولوجية تبرز حل المشكلة السكانية بالحرب والغزو^(١) .

وغنى عن البيان أن الدراسات السكانية قد ازدهرت وارتقت إلى مصاف العلوم النظرية والنظرية بفضل اعتمادها اعتماداً كلياً على الطريقة الإحصائية ، ولسنا بحاجة إلى توضيح هذا ، فإن القسم التطبيقى العملى من هذا الكتاب ، سيكون خير مرآة لمدى الانتفاع بهذه الطريقة فى معالجة عناصر المسألة السكانية سواء من ناحية الوصف والتحليل ، أو ناحية التطبيق . وحمادى القول أن علم السكان ، وإن كان علماً مستقلاً فى ذاته ، إلا أنه يرتبط بغيره من العلوم الإنسانية بروابط ووشائج قوية ويتأثر بها وحدها ويمدها بكثير من الحقائق التى تنتفع بها ، فقد ألحنا إلى مدى ارتباطه بالدراسات الانثروبولوجية و الانثولوجية و الانثوجرافية و البيولوجية ، أشرنا إلى مدى صلته بالدراسات الاقتصادية باعتبار أن النشاط الاقتصادى ليس سوى مظهر من مظاهر حياة السكان ولا تكاد توجد ظاهرة اقتصادية لا تتأثر بحالة السكان أو بحركتهم وهو متصل بالقانون باعتبار أن القانون ينظم العلاقات بين أعضاء ذلك الكائن المعنوى الذى ندعوه باسم السكان ، كما أن يقدم المادة الأساسية التى تعكس مدى انتشار الجرائم والعوامل التى تؤدى وتوحى بوسيلة مكافحتها أو التقليل من أضرارها ، وتلهم المشرع بالأسس التى يتوخاها فى وضع تشريعه ، أو تعديله ليكون مطابقاً لمقتضيات الأحوال السكانية ومنبثقاً من طبيعة الملابس الاجتماعية .

(١) H. Cox : The Population Problem

الفصل الثالث

أهداف الدراسات السكانية

ألمحنا إلى تطور الدراسات السكانية وتدرجها من حيث الموضوعات التي تعنى بها والتفريعات التي تشعبت عنها ، ومن الطبيعي أن تسير وفقا لذلك أهداف هذا النوع من الدراسة وأن تتدرج هذه الأهداف وتنوع بتنوع المجالات والمستويات والجماعات ، وخاصة أنها بدأت ذى بدء لتحقيق أهدافا عملية محلية ، وانتهت إلى أن غدت عملية تطبيقية عالمية .

والمتبع لأهداف الدراسة السكانية لا بد وأن يضع في الاعتبار الأول أن هذه الدراسة كانت تتخذ مظهر الحصر العددي ، لبعض القطاعات السكانية ، ولتحقيق وظائف اجتماعية محدودة ومحددة ، في مقدمتها جباية الضرائب وتعبئة الجيوش للغزو و كما يذكر بهذا الصدد أن القطاع المصري من الجمهورية العربية المتحدة كان من أسبق المجتمعات الإنسانية بممارسة لتعداد السكان ، فيذكر المؤرخون أن حوالى عام ١٥٠٠ ق . م قام مينا الذي ينسب إليه توحيد الوجهين القبلي والبحري تحت سلطة سياسة واحدة ، قام باجراء تعداد المصريين وقد قدر عددهم بثلاثة ملايين في ذلك الحين

وما يروى أيضا من أهمية التعداد السكاني ، أن القدماء كانوا يؤرخون الأحداث الاجتماعية الهامة (الحروب . الأزمات . الأوبئة) بقربها أو بعدها الزماني عن موعد إجراء التعداد السكاني فمثلا كانت تجري هذه التعدادات لأفراد الشعب كل سنتين ، وكانت الحوادث التي تحدث في خلال حكم أحد الفراعة ، تؤرخ بالنسبة إلى التعداد . يقال مثلا وقع هذا الحادث في التعداد الأول أو الثاني أو بعده دراليك .

على أن هذه التعدادات السكانية كانت لها وظائف هامة بالنسبة للدولة

ذاتها ، فكانت تساعد الحكومات في معرفة عدد الأفراد الذين تجبى منهم الضرائب وعدد من تجمعهم من الصالحين للخدمة العسكرية أو من تسخرهم في القيام بالأعمال الإنشائية العامة على نحو ما كان يفعل الفراعنة الذين اهتموا بتشييد الإهرامات . ويحمل القول أن تعداد السكان في العصور القديمة والمجتمعات التاريخية المتحضرة كانت تهدف أولاً وقبل كل شيء إلى حصر القادرين على دفع الضرائب أو المكلفين بالالتحاق في الجيش أى كان يهدف إلى تحقيق أغراض إدارية أو حربية أو مالية لصالح الحكومة اللهم إلا بعض الاستثناءات التي يمكن فيها أن يحقق النعداد السكاني أغراضاً نفعية لبعض الطبقات الشعبية ، على نحو ما يروى عن عناية الفرعون رمسيس الثاني بتعداد السكان لكي يوزع أو يعيد توزيع الأراضي عليهم بشكل يسكفل العدالة ويحقق للدولة دخلاً عادلاً من الضرائب . أو ما كان يجري في بعض الحالات بقصد تزويد السكان ، بما يلزمهم من مواد تموينية خاصة في أوقات المجاعات أو الأوبئة ، وربما كان هذا الهدف واضحاً بالنسبة للمجتمعات التاريخية التي كانت لها امبراطوريات تعتمد عليها في جلب المواد الغذائية اللازمة لسكانها كما كان شأن الامبراطورية الرومانية .

وعلى هذا النحو ظلت أهداف الدراسة السكانية نفعية محلية ، وإن تجاوزت ذلك المجال فلخدمة الدولة أو الطبقة الحاكمة أو الشعب المتسيد حتى تطورت الاهتمامات السكانية على يد التعاليم الإسلامية بالطبقات والمستويات الاجتماعية ومساعدة الفئات المعوزة والفقيرة وحصر أنصبة الزكاة . وفي المجتمعات الغربية تطورت أهداف الدراسة السكانية بعد اكتشاف الرحالة كولومبس للعالم الجديد عام ١٤٩٢م واهتمام الدول الأوروبية بالهجرة الواسعة للأمريكتين ومحاولة استغلال الثروات الطبيعية بها ، وظهور الوعي بأهمية الدراسة السكانية في تقدير القدرة الإنتاجية والاحتياجات للقوة البشرية ، الأمر الذي أدى فيما بعد إلى ظهور العناية

يبحث حالات السكان في الدول المختلفة من ناحية القدرة الإنتاجية والاستهلاكية والشرائية .

ومنذ عصر النهضة بدأت القوميات في الظهور في أغلب المجتمعات الأوربية ، وأصبحت كل أمة تهتم بنشاطها القومي الخاص ، ولم تقتصر عنايتها بالأمور الإدارية والخريرية والمالية . وإنما تناول إهتمامها سائر الشؤون الاجتماعية للسكان فأصبح تعداد السكان إحصاءاً اجتماعياً ، بمعنى أن كل دولة كانت تحاول أن تصف حالة سكانها من كل وجوها العائلية والدينية والمالية والسياسية والاقتصادية .

وقد ساعد على هذا التطور تقدم العلوم الطبيعية في القرن السابع عشر على يد مجهودات العلماء الطبيعيين وفي مقدمتهم . نيو تون ، وظهور الاهتمام بالإحصاء . في صورة علم جديد كان يطلق عليه . علم الحساب السياسي Political Arithmetic ، وهذا العلم يعتبر مقدمة لعلم السكان الاجتماعي ، لأن غرض ذلك العلم لم يكن بحث الناحية السياسية في المجتمع . وإنما كان غرضه بحث السكان من وفيات ومواليد في البلاد المختلفة ، وبحث دخل الأفراد وثرواتهم ، ومقدار ما ينتجونه ، وأنواع إنتاجهم ، والمدن التي يقوى فيها هذا الإنتاج ، ومقدار الضرائب المفروضة على الأموال .

هذا إلى أن كلمة « سياسي » كانت تقابل في الواقع كلمة « اجتماعي » عند المفكرين السابقين لآخر القرن التاسع عشر ، حين ابتدأ ظهور البحوث الاجتماعية في شكل عالمي ^(١) وهكذا تطور هدف الدراسات السكانية من ناحيتين : أما الناحية الأولى فهو الاتجاه إلى العناية بدراسة سكان الدول الأخرى ، بعد أن كان الاهتمام منحصراً في دراسة أحوال السكان المحليين ، والناحية الثانية هي الاتجاه إلى دراسة أحوال السكان المحليين ، لا بقصد

(١) الدكتور عبد العزيز عزت - في الإحصاء .

الأغراض الحربية والضريبية والمالية ، بل بقصد معرفة أحوالهم الاجتماعية للعمل على تحسينها .

فلا شك أنه يمكن للباحث في ضوء الدراسات الشاملة لسكان أى مجتمع من المجتمعات الإنسانية أن يحدد أو يرسم السياسة السكانية التى تلائم أحوال هذا المجتمع والتى تهدف إلى العمل على زيادة رفاهية أفراده ، على أساس موازنة عددهم بالموارد التى يمكن أن تستغل لصالحهم ، وآية ذلك أن الدراسات السكانية فى الآونة المعاصرة تستخدم فى محاولة تحديد معايير محدودة لقياس الرفاهية الاجتماعية والاقتصادية ، فمن ذلك مثلاً محاولة معرفة الدخل الحقيقى للفرد ، ويتوقف هذا المستوى على حجم الإنتاج وعلى الكفاية الإنتاجية التى تقاس على أساس مستوى إنتاج كل فرد من أفراد السكان المشتغلين فى كل ساعة عمل ، ومنها كذلك محاولة الوقوف على ثبات أو تقلب الدخل القومى العام باعتبار أن هذا يؤثر على الرفاهية الاقتصادية والاجتماعية للسكان .

إن هذا فضلاً عن رسم الخطوط الرئيسية لتوزيع الدخل القومى من الناحيتين الوظيفية والشخصية ، فمن الحق أن الغالبية العظمى من السكان يفضلون التقارب فى توزيع الدخل القومى على التفاوت الكبير فى توزيعه ، ويسعون وراء زيادة حصة العمل أى الأجور ، كما أنه من المسلم به أن يتحقق التفاوت العادل فى توزيع الدخل وفقاً للتفاوت فى المعرفة والمهارة ومدة الخدمة . . وكما قل التفاوت فى توزيع الدخل واقتصر التفاوت على مثل هذه الفروق العادلة ، وزادت حصة العمل فى هذا الدخل ، كلما ارتفع مستوى الرفاهية الاقتصادية والاجتماعية .

كما أن الدراسة السكانية تساعد من الناحية الاقتصادية على رسم خطة طويلة الأمد لنمو الدخل الحقيقى للفرد ورفع مستواه المعيشى ، فكل فرد من أفراد المجتمع « مستوى معيشة ملائم » أو مرغوب فيه يطمح إلى تحقيقه ،

وهذا المستوى يفوق مستوى المعيشة الفعلى لهذا الفرد ، وكلما أحسن الفرد بزيادة دخله الحقيقى من عام لآخر ، بحيث تتضامل الثغرة بين المستويين ، كلما ارتفع مستوى رفاهيته الاقتصادية والاجتماعية .

هذا إلى أن معظم الدول الحديثة قد أخذت فى نطاق سياستها السكانية تتدخل بمختلف الوسائل فى كل ما يتعلق بشئون السكان ، من زواج وطلاق وتنظيم النسل وتحسينه وتعقيم بعض الأفراد العالة على الغير ، كضعاف العقول وذوى الأمراض الوراثية الخبيثة ... الخ ، كما تعمل أحيانا على تنسيق توزيع السكان بين جهات الإقليم المختلفة ، إلى غير ذلك مما يحقق لسكان الدولة أكبر قسط من الرفاهية .

وقد تنوعت الأهداف التى تحققها الدراسات السكانية فى الأوقات المعاصرة ، وكثرت هذه الأهداف مع تطور المدنية والثقافة ، وخاصة مع التقدم الذى طرأ على الوسائل الآلية التى تستخدم فى تبويب وتصنيف البيانات التى تجمع فى مختلف ظواهر الحياة الاجتماعية للسكان .

ونجد فى وقتنا الحاضر أن تعداد سكان الدولة الواحدة يصف ويحلل سكان الدولة من عدة نواح ، إجتماعية وسياسية واقتصادية فهو يصف أولا توزيع سكان الدولة فى أجزائها المختلفة ، وتوزيعهم فى فئات أعمار لكل فرع ، ويصف الحالة المدنية والعلمية والدينية للسكان فى كل ناحية ، ويبين توزيع السكان فى الحرف والمهن والصناعات المختلفة ، ويبين الحالة العلمية لهم وكذا حالتهم الصحية ... ونحو ذلك من النواحي الاجتماعية الهامة .

وفى ضوء هذه الدراسات يمكننا الوقوف على مقدار رقى الأمة ، ورفاهية سكانها ومدى تقدمها فى النواحي الاجتماعية والصحية والثقافية والاقتصادية ، وهى إلى ذلك تعطينا من وقت لآخر صورة واضحة لحالة

السكان في جميع هذه النواحي ، نعرف بواسطتها أثر التشريع القائم في سرعة نهوض الشعب وتقدمه ، ونحكم على صلاحية النظم والتقاليد السائدة وملائمتها لتطورات العصر ومقتضيات الأحوال ، ونستطيع بفضلها الاهتمام إلى تعيين الاتجاه الذي تأخذه في طريق الإصلاح ، وأضف إلى ما تقدم أنها تلفت أنظارنا أولاً بأول إلى مواطن الضعف في السكان الاجتماعى ، وتشير إلى نوع العلاج اللازم لتلافي هذا العيب قبل أن يستفحل أثره .

وهكذا أصبحت المسائل السكانية من أهم المسائل التي توجه العناية إلى دراستها الآن . لقد واجهت العالم زيادة مخيفة في عدد السكان بعد أن قلت نسبة الوفيات إلى درجة كبيرة ، بفضل التقدم الصحى ، والقضاء على كثير من الأوبئة .

وفي الإحصائية التالية ما يوضح خطورة المشكلة التي يواجهها العالم اليوم :
قدر سكان العالم :

في أول التاريخ المبلادى بحوالى ٢٥٠ مليوناً

وفى عام ١٦٥٠	٤٧٠	(كانت الزيادة طفيفة جداً)
وفى عام ١٨٥٠	١٠١٠٠	
وفى عام ١٩٠٠	١٥٥٠	(فى نصف ذلك القرن كانت الزيادة موازية تقريباً لعدد السكان الذين عاشوا على الأرض منذ الخلق إلى القرن السابع عشر) .
وفى عام ١٩٥٠	٢٣٦٦	(كانت الزيادة فى نصف هذا القرن معادة لعدد السكان الحاليين لروسيا وبريطانيا وألمانيا وفرنسا وإيطاليا والولايات المتحدة واليابان وأربع دول أخرى فى حجم سكان بريطانيا) .

وفي عام ١٩٨٠ بحوالى ٣٥٧٠ مليوناً

« حسب تقدير الأمم المتحدة » .

وفي عام ١٩٨٠ بحوالى ٣٩٣٢ مليوناً

« في تقدير آخر للأمم المتحدة » .

(فإذا وصلنا إلى ذلك . حسب هــنا

التقدير وهو مبنى على معدل الزيادة

في الجيل الأخير كان معنى هذا أن

هناك زيادة في جيل واحد وهم

زيادة تعادل كل سكان العالم منذ

الخليقة إلى أول القرن الحالى) .

من هذا يتضح لنا أهمية الدراسات السكانية ، لحل هذه المشكلة
التي تتعرض لها معظم دول العالم تقريباً ، وقد اهتمت به هيئة الأمم المتحدة ،
حتى أن المجلس الاقتصادى والاجتماعى لهذه الهيئة وافق على عقد مؤتمر على
مستوى عال تحت إشراف الأمم المتحدة مع تعاون هذا المؤتمر مع
الاتحاد العالمى للدراسة العلمية للسكان ، ومع الهيئات المتخصصة المختلفة .
وقد عقد هذا المؤتمر في مدينة روما في المدة ما بين ٣١ أغسطس و ١٠ سبتمبر
عام ١٩٥٤ (١) .

والواقع أن الوعي السكانى قد نضج في جميع دول العالم المتعدين (٢) حتى
أصبحت المسألة السكانية من الاهتمامات العالمية ، وانتقلت من المجال المحلى
إلى المجال الدولى ، وأصبحت الدراسات السكانية تتخذ الجانب التطبيقى
العملى أكثر من الاهتمام بالجانب النظرى ، هادفة إلى إعداد طريقة عامة

(١) تقرير المؤتمر العالمى للسكان : أغسطس سنة ١٩٥٤

(٢) بدأ الاهتمام العالمى بمشكلات السكان يتخذ طابعاً علمياً منظماً منذ سنة ١٩٠٧ حيث
عقد أول مؤتمر عالمى لدراسة السكان في مدينة جنيف بسويسرا ثم تلاه مؤتمر آخر سنة ١٩٢٧
ومؤتمرات في سنة ١٩٣٩ ثم توقف نشاط المؤتمرات السكانية بسبب الحرب العالمية الثانية وما تلاه
من أزمات ثم بعد أن انتهت الحرب وتكونت هيئة الأمم ، بدأ التفكير في مشكلات العالم السكانية
من جديد وتولى ذلك جهاز الهيئة المعروف باسم المجلس الاقتصادى والاجتماعى . .

(٤ السكان)

للتخطيط الاقتصادي والاجتماعى لتحقيق رفع المستوى المعيشى والثقافى والصحى للمجتمعات البشرية .

ومما يدل على تزايد الوعى بخصوص هذه المشكلة أن معظم الدول قد اشتركت فى مؤتمر « روماء » المشار إليه حتى بلغ عدد المشتركين ثلاثمائة من علماء السكان المختصين .

وقد وضح خلال البحث فى أروقة المؤتمر أن قضية تزايد السكان تأخذ شكلا خطيرا فى البلاد المتخلفة اقتصاديا بوجه أخص ، ذلك لأن موارد هذه البلاد الاقتصادية لا تنمو بنسبة تكاثر السكان ، وبالتالي ينخفض مستوى المعيشة فى هذه البلدان بشكل يكاد يكون مضطردا .

وقد وضحت حقيقة أخرى وهى أن التزايد المستمر فى سكان هذه المناطق يقلل من المواد الأولية التى كان بالإمكان تصديرها إلى البلاد الأخرى المحتاجة إليها ، وهكذا فزيادة السكان فى منطقة ما يتعدى تأثيره المنطقة ذاتها إلى غيرها من مناطق العالم ويخل بالتوازن الاقتصادى العالمى الذى قد يؤدى بدوره إلى اهتزاز العلاقات الدولية وتوترها وبروز المشكلات والأزمات السياسية ، وهذا يؤيد صحة النظرية القائلة بأن الظواهر الاجتماعية المحلية ليست حالات خاصة بالأمة أو الدولة المائلة فيها ، بل هى فى الوقت نفسه مؤثرة فى كيان العالم أجمع ، طالما أن طبيعة المجتمع العالمى المعاصر جعلت دولة مترابطة المصالح متشابكة العلاقات ، فكما أنه لم يعد فى العالم مكان للاقتصاد المغلق Closed Economy فليس فى العالم أيضاً مكان للمجتمع المغلق المنعزل ، بل أنه يلاحظ أن الاقتصاد الموجه أو التخطيط الاقتصادى الذى أخذت به معظم الدول كان أمراً لا مفر منه لمحاولة التنسيق بين اتجاهات السكان وموارد المجتمع الاقتصادية ، وأصبحت سياسة التخطيط الاقتصادى وسياسة السكان المرسومة فى بلد ما

تأثران بما يجرى في البلاد الأخرى ، وتؤثران بدورهما في سياسات هذه البلاد .

وقد لوحظ في مَرْتَمَر رومَا أن معدلات الوفيات آخذة في التناقص المضطرد منذ نهاية الحرب النانية في معظم دول العالم ، وذلك نتيجة للتقدم الطبي والكيمائى الذى ساعد فى القضاء على كثير من حاملى الميكروبات ، وكذلك اكتشاف المبيدات والعقاقير التى تكافح الحيات والأوبئة كالبلسلين وغيره ، أضف إلى ذلك أن معدلات المواليد لم تتناقص كثيراً بل ظلت على حالها فى معظم الدول وبخاصة المتخلفة ، ولذلك فإن سكان هذا الكوكب يتزايدون بشكل يجعل بعض العلماء يعربون عن مخاوفهم الشديدة .

[فى البرازيل مثلاً ، كانت نسبة المواليد قبل الحرب الثانية تبلغ ٤٧ فى الألف ، وكانت نسبة الوفيات تصل إلى حوالى ٣٠ فى الألف ، ومن ثم كانت نسبة الزيادة الطبيعية فى السكان تصل إلى حوالى ١٧ فى الألف سنوياً . أما الآن فنسبة المواليد قد انخفضت انخفاضاً طفيفاً فأصبحت ٤٤ فى الألف ، إلا أن نسبة الوفيات قد انخفضت انخفاضاً كبيراً فأصبحت حوالى ١٨ فى الألف أى أن الزيادة الطبيعية فى البرازيل الآن هى ٢٦ فى الألف .

فإذا يكون مصير هذا البلد ومصير البلدان المشابهة له مثل أندونيسيا و الهند ودول جنوب شرق آسيا و الصين ، وماذا يكون مصير الدول التى تعتمد على هذه البلدان المتخلفة فى شراء ما يلزمها من مواد أولية .

// إن بلاد كالولايات المتحدة الأمريكية تستورد حوالى نصف مواردها الأولية من البلاد المتخلفة اقتصادياً ، وتستورد المملكة المتحدة حوالى ثلثى مواردها الأولية والغذائية من هذه البلاد المتخلفة أيضاً ، وتزايد السكان فى هذه المناطق يترتب عليه ازدياد الاستهلاك المحلى وبالتالي انخفاض الصادرات . وإذا كان من المعروف لدينا أن دولة كالولايات المتحدة

تستورد البترول والفوسفات والحديد الخام والزنك والمنجنيز والرصاص والكبريت والبوتاس ، فماذا يكون مستقبل الولايات المتحدة إذا حدث وأصبحت البلاد المصدرة لهذه المواد الأولية تستهلكها كلها أو معظمها لسد حاجاتها المحلية

إن هذا المثال يوضح عمق المشكلة السكانية وخطورتها بالنسبة للعالم أجمع ويفسر من ناحية أخرى تهافت الدول الكبرى على فرض نفوذها الإقتصادي والثقافي في الجماعات التي تورد لها المواد اللازمة لإنتاجها الصناعي .

الفصل الرابع

المصادر الإحصائية للسكان

من الواضح أن الدراسات السكانية تعتمد اعتماداً كلياً على الأرقام الإحصائية ، وما لا شك فيه أن التحديد العددي للسكان عرف منذ القديم ، ولكنه لم يكن في كل الحالات وفي مختلف المجتمعات بدرجة واحدة من الشمول والعموم من ناحية ، كما أنه لم يكن بأي حال من الدقة العلمية إلا بعد أن تقدمت مناهج البحوث الإحصائية تقدماً كبيراً في الآونة المعاصرة ولذلك فإنه يميز عادة بين المصادر الإحصائية الديموجرافية التي بنيت على التقديرات الاجتهادية والتي لم تعتمد على الطرق العلمية السليمة لاجراء التعدادات ، وبين تلك التي تركز على أسس علمية ، وشبه علمية و يظهر هذا الفرق واضحاً إذا نحن قارنا التعدادات السكانية التي أجريت في الإقليم الجنوبي مثلاً في فترة ما قبل التعداد ، والتي أجريت بعده ، فمن الطائفة الأولى ، تلك الإحصائيات التقديرية التي أجريت لتعداد سكان مصر في أثناء الحملة الفرنسية عليها من (١٧٩٨ - ١٧٩٩) ، وكانت هذه التقديرات تعتمد على أساس الضرائب التي تجبي من عامة الشعب ، بمعنى أن السجلات المودعة في الدوائر الحكومية كانت هي المصدر المباشر للإحصاءات التقديرية في تلك الفترة .

وما يذكر بصدد تلك التعدادات في تلك الآونة - أن جومار Gumart أحد العلماء الفرنسيين الذين رافقوا نابليون بونابرت في الحملة الفرنسية على مصر قد قام بإجراء تعداد للسكان على أساس اختيار مديرية المنيا ، كنموذج إحصائي ، لعدد السكان في القطر بأجمعه ، فقام بإحصاء عدد سكانها ووصل إلى أن كثافة السكان بالمنطقة ٢١٥ شخصاً في الميل المربع ثم ضرب الرقم القياسي في مساحة القطر ، فتوصل إلى أن عدد

سكان الريف بلغوا ٢٠٠.٠٧٦.٠٢٠ ، وأضاف إلى ذلك العدد الاحصاء التقديرى لسكان المدن والعرب ، فكان مجموع تعداد السكان فى مصر فى ذلك الحين على حسب طريقته ٢٠٠.٠٧٦.٠٢٠ .

ومن هذا النوع أيضاً من الاحصائيات والتعدادات الاجتهادية ما قام به محمد على (١٨٠٥ - ١٨٤٩) ، من محاولتين لتعداد سكان مصر كانت المحاولة الأولى عام ١٨٢١ وكان تقدير السكان ٢٤٠.٠٦٥.٢٠٠ وقد بنى هذا التقدير على أساس إحصاء عدد المنازل دون الرجوع إلى السكان أنفسهم . وذلك باعتبار أن المنزل الواحد فى ذلك الوقت كان يسكنه خمسة أفراد فى المتوسط . وأما عن محاولته الثانية لتعداد سكان مصر فكانت عام ١٨٤٦ وقد قدر عدد السكان بمقدار ٤٠٠.٤٧٦.٤٠٠ . وظاهر أن هناك فرقاً كبيراً بين التعدادين ، الأمر الذى يستخلص منه أن التعداد الأول لم يكن دقيقاً وربما كان ذلك راجعاً إلى موقف الشعب المصرى نفسه منه ، لأنه كان يدرك أن الغرض الأساسى من تعداد السكان كانت رغبته فى فرض ضرائب جديدة على الشعب ومعرفة حصيلة هذه الضرائب للصرف منها على جيوشه ومشروعاته الحربية ، وكان الشعب بطبيعة الحال يحاول التهرب من دفع الضرائب ومن التسخير لخدمة أغراضه الشخصية .

يقابل تلك التعدادات التقديرية الاجتهادية ، تعدادات رسمية حكومية يمكن أن تعتبر المصدر الرئيسى لأى دراسة ديموجرافية . سليمة فى شتى أنحاء العالم ، وقد أجرى أول تعداد رسمى للسكان فى إنجلترا سنة ١٨٠١ ثم تلتها بلاد شبه جزيرة إسكنديناوه والمناطق الشرقية من كندا التى أجريت فيها عمليات التعداد فى أواسط القرن ١٨ ، أما بقية القارة الأوروبية فقد بدى فى إجراء تعداد السكان بها فى النصف الأخير من القرن ١٩ . وقد أجرى فى الأقليم المصرى التعداد الأول لسكانها سنة ١٨٨٢ ، وهى

نفس السنة التي حدث فيها الاحتلال البريطاني ، ولذا نجد أنه بالرغم من تطبيق الأسس الإحصائية السليمة على تعداد السكان في تلك السنة إلا أن عدد السكان كان أقل مما كان متظراً ، لأن عملية التعداد نفسها حدثت في أعقاب الثورة العرابية ، عندما كانت تسود البلاد الاضطرابات ، بالإضافة إلى أن الاحتلال البريطاني كان له دخل مباشر انهرب السكان من قيد أسمائهم في السجلات خوفاً من الالتحاق بالخدمة العسكرية في تلك الفترة ، وهناك عامل آخر أدى إلى جعل مقدار سكان سنة ١٨٨٢ أقل من الواقع . . هذا العامل هو عدم تشجيع العناصر البدوية على تقييد أسمائهم في سجلات التعداد ، وما يؤيد هذا الرأي أن تقدير السكان الذي أجرى في عهد محمد علي ، سنة ١٨٤٦ كان يزيد ٤٥٪ عن تعداد سنة ١٨٨٢ ، مع أنه لم يحدث بين هاتين الفترتين وباء أو أمراض أودت بحياة كثير من السكان ، كما أنه لم تحدث هجرات خارجية .

وقد أجرى التعداد الثاني في مصر سنة (١٨٩٧) أي بعد ١٥ سنة من الأول . . ثم استمرت التعدادات المصرية تجرى كل عشر سنوات ، وكان آخر تعداد رسمي لسكان الاقليم المصري هو سنة (١٩٤٧) . وفي إنجلترا أجرى تعدادها الأول سنة ١٨٠١ واستمر بعد ذلك كل ١٠ سنوات . وقد تنقطع عملية التعداد في سنين الحرب والاضطرابات ، كما حدث أثناء الحرب الثانية ، فقد كان المفروض إجراء التعداد في إنجلترا سنة ١٩٣١ وقد أرجئت هذه العملية إلى سنة ١٩٥١ .

وبالرغم من شيوع الأخذ بفكرة إجراء التعداد كل عشر سنوات في دول العالم ، إلا أننا نلاحظ أن الكثير من الدول لم تجر بها عمليات التعداد على الأسس الإحصائية مثل الحيشة ، والمملكة العربية السعودية والجمهورية السودانية ، ولهذا نجد أن أي دراسة ديموجرافية لمثل هذه البلاد ستكون بعيدة عن الدقة ، ولا مناص من الالتجاء إلى التقديرات التي تقوم بها

الحكومات على أساس سجلات الضرائب ، أو ما يقوم بها بعض الباحثين بوسائلهم الخاصة .

ولكن من حسن الحظ أن الهيئات الدولية أولت أمثال هذه البلاد رعايتها واهتمامها بالدراسة الديموجرافية ، وتولت في كثير من الأحيان مهمة تقدير عدد سكانها .

ويمكننا أن نضيف إلى هذا ، أن دقة التعدادات تتفاوتت تفاوتاً كبيراً دولة إلى أخرى ، لأن دقة الإحصاء تتوقف على عوامل كثيرة ، منها جودة الخبرة الإحصائية لدى الموظفين القائمين بعملية التعداد ، كذلك يتوقف نجاح الإحصاء على مدى الوعي الاجتماعي لدى أفراد المجتمع الذي يجري فيه التعداد . ولا شك أن توفر وسائل التواصل وسهول المواصلات يعتبر من العوامل الأساسية لإعداد الرأى للعام لقبول عملية التعداد .

الإحصاءات الحيوية

يقصد بالإحصاءات الحيوية تلك الإحصاءات التي تضم معدلات المواليد والوفيات ، وتقسيم السكان على أساس النوع ذكوراً وإناثاً . الخ .

وقد بدىء في إجراء الإحصاءات الحيوية في أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية منذ أواسط القرن ١٩ ، وتفاوتت دقة هذه الإحصاءات من دولة إلى أخرى . ففي مصر مثلاً وجدت ظاهرة واضحة كانت تحول دون تسجيل المواليد الذكور خوفاً من الخدمة العسكرية ، وقد تلافى الحكومة هذه العقبة بتشريعات خاصة . كما أن تسجيل الوفيات كان لا يتم في القرى البعيدة عن مكاتب الصحة ، لكل هذا نجد أن الإحصاءات الحيوية في مصر كان ينقصها الكثير من عوامل الدقة التي توفرت لها الآن بفضل اهتمام أولى الأمر ، والاقتناع بأهمية الإحصاء .

غير أننا نلنس بمزيد من الأسف أن كثيراً من قطاعات الأمة العربية لم تكن العناية المرجوة بهذه الإحصاءات الحيوية .

الإحصاءات الديموجرافية الدولية

ونعنى بها تلك الإحصاءات التى تصدرها هيئات دولية ، كهيئة الأمم المتحدة التى تصدر مجلداً سنوياً يضم إحصاءات خاصة بسكان العالم ، واسمه Demographic year Book

وقد بدأت هيئة الأمم فى إصدار هذا المجلد منذ سنة ١٩٤٨ ، كما أنها أصدرت أيضاً كتاباً هاماً يعتبر الأول من نوعه ، ويختص بتوضيح طرق التعدادات فى جميع جهات العالم ، واسم هذا الكتاب « طرق التعداد السكانى ، Population Census Methods . وقد صدر فى نيويورك سنة ١٩٥١ .

ومن الهيئات الأخرى التى تهتم بجمع الكثير من الإحصاءات الخاصة بالدراسات الديموجرافية « مكتب العمل الدولى » ومقره مدينة « جنيف » فى سويسرا ، ويقوم بإعداد نشرات خاصة بعدد العمال الزراعيين والصناعيين فى جهات العالم ، والإحصاءات التى يصدرها هذا المكتب لها قيمة خاصة فى دراسة التركيب الجغرافى للسكان .

وهناك هيئة دولية للإحصاء مقرها « باريس » تعتمد إلى حد كبير على التعدادات الحكومية الرسمية التى تجرى فى دول العالم .

دراسات مونوجرافية إحصائية

وتألف هذه الدراسات من مجموعة التحقيقات التى تجرى فى كثير من دول العالم والتى ترتبط بوضع سياسة خاصة فى الحروب والسلم على السواء ، وتقوم بمثل هذه الدراسات عادة لجان خاصة تضم المختصين فى الدراسات

السكانية والإحصائية . وتقوم تلك اللجان بوضع تقارير مفصلة عن أحوال السكان . كما تقوم بوضع سياسة سكانية للدولة التابعة لها ، ويقصد بالسياسة السكانية ، السياسة التي تهدف إلى إيجاد نوع من التوازن بين توزيع السكان وتوزيع موارد الثروة ، ومن أمثلتها اللجان التي توجد في إنجلترا والتي تعرف فيها باسم « اللجنة الملكية للسكان » ومثل « لجنة مصادر الثروة القومية في الولايات المتحدة الأمريكية » وهذه اللجنة الأخيرة تجتمع سنوياً وتنظر في المشكلات السياسية والاقتصادية التي تنشأ بين السكان وموارد الثروة .

ونجد في إنجلترا بالإضافة إلى اللجنة الملكية للسكان لجنة أخرى شكلت سنة ١٩٣٩ ، وقدمارست عملها ممارسة فعالة خلال سنوات الحرب ، فهي التي اختصت بإصدار تعداد خاص بالعائلات البريطانية فقامت بحصر العائلات وعدد الأفراد الذين تنكون منهم كل عائلة ، وذلك لحل مشكلة السكن . وأساس هذه المشكلة ، هي الظاهرة الاجتماعية العالمية التي تعرف بالهجرة من الريف إلى المدن ، وبسببها تضخم عدد السكان في المدن وأصبحت مشكلة السكن من المشاكل الرئيسية الهامة .

ومن المصادر الإحصائية التي لها قيمتها ، التعدادات الخاصة بالإنتاج ، ومن أمثلتها التعداد الصناعي والزراعي في الإقليم المصري ، والتعداد الأخير « الزراعي » له قيمة كبيرة في الدراسة الديموجرافية في مصر ، وذلك لأن الزراعة لازالت تمثل الأساس الأول للاقتصاد القومي ، وقد أجرى أول تعداد زراعي في مصر سنة (١٩٢٩) ، والتعدادات الزراعية في مصر هي الأخرى من النوع العشري ، أي التي تجري كل ١٠ سنوات . هذا وبعد أن أنشئت وزارة الصناعة بالجمهورية العربية المتحدة ، قامت هذه الوزارة بإجراء أول تعداد صناعي في عام ١٩٥٨ .

ويمكننا أن نضيف إلى تلك المصادر ، الدراسات الفردية التي يقوم بها

أفراد ، والتي يمكن أن نعتبرها بحوثاً ديموجرافية مونوجرافية في مناطق ضيقة المساحة ، وتعتمد مثل هذه البحوث على طريقة تعرف باسم « طريقة العينة » . إذ هناك طريقتان للتعداد السكاني :

الأولى : هي طريقة التعداد الكامل ، والتي تهتم بمحصّر كل شخص يقطن في رقعة معينة من الأرض ، وتتبع هذه الطريقة في المناطق التي تتوفر فيها شتى الإمكانيات المادية اللازمة لإجراء التعدادات ، فمثلاً لا بد من توفر الخبرة الإحصائية ، والعدد الكافي من الموظفين الذين يقومون بعملية الإحصاء وكذلك توفر المواصلات في المساحات الواسعة . وهذه الطريقة هي المعمول بها في الجمهورية العربية المتحدة .

الثانية : أما الطريقة الثانية فهي بأخذ العينات Samples ، وتتبع هذه الطريقة إذا تعذرت الإمكانيات لإجراء تعداد كامل ، ففي السودان مثلاً لا يتيسر القيام بالتعداد الكامل للسكان نظراً لحداثة هذه البلاد في الإحصاء ، ولامتداد مساحتها ، ولعدم توفر المواصلات ، ولوجود عناصر جنسية مختلفة ، واختلاف اللغات وخصوصاً في المناطق الجنوبية والشرقية بالذات ، التي تسكنها قبائل رعوية تتميز بالترحال ، قد لا تتداركها عملية التعداد ، ولا شك أن طريقة العينة تسمح باختيار عدة مساحات في كل مديرية من المديريات . ثم يجرى تعداد كامل في هذه المناطق المختارة ، وبعد ذلك تعمم النتائج على بقية المديريات وبذلك يمكن تقدير التعداد الكلي للسكان .

تنسيق الإحصاءات السكانية

في الجمهورية العربية المتحدة

أدرك المسؤولون في الجمهورية العربية المتحدة ، حاجة البلاد إلى الإحصاءات السكانية في أكثر مرافقها الاقتصادية ، والاجتماعية والحربية حتى يمكن إرساء قواعد التنمية الاقتصادية والاجتماعية على أسس سليمة في حدود الإمكانيات الفعلية والمتوقعة .

وقد كان لابد من أن يعمل المسؤولون على ملافاة الثغرات وأوجه النقص التي كانت تشوب أجهزة الإحصاءات وعدم تكاملها والتناقض في بياناتها ونتائجها بسبب عدم تنسيق جهود أجهزتها واختلاف الأساليب التي تتبعها ، والقصور الفني في توجيهها ، وعدم إرشادها إلى أفضل الأساليب التي تحقق النهوض بمستواها من حيث الدقة والكفاية . ولم يكن هناك بد من إعادة النظر في نظام الجهاز الإحصائي الحكومي وتنسيق علاقته بالأجهزة الحكومية الأخرى ، ولذلك أنشئت هيئة فنية عليا للإشراف على النشاط الإحصائي في الدولة ، وتوجيهه الوجهة الصالحة ، ووضع الأسس العامة للإحصاءات والتعدادات اللازمة لمختلف المرافق ، ورسم خططها وتوقيتها حسب الأولوية ، وإسناد تنفيذ كل منها إلى الجهاز الذي يصلح لذلك ، ثم الإشراف على هذا التنفيذ ومتابعة مراحله المختلفة أولا بأول . والحقت هذه الهيئة المركزية للإحصاء بلجنة التخطيط القومي ، التابعة لرئاسة الجمهورية ووضع تحت إشرافها مصلحة الإحصاء والتعداد ، على أن يتولى إدارة جهازها الفني الإداري وكيل وزارة لشؤون الإحصاء ، تحت

(١) تقرير لجنة التخطيط القومي : اللجنة المركزية للإحصاء ١٩٥٧ - ١٩٥٨

(٢) القرار الجمهوري رقم ٨٦ الصادر في ٣١ يناير سنة ١٩٥٧

(٣) القرار الوزاري رقم ٣٨ الصادر في ٢٧ / ٥ / ١٩٥٨

مباشرة وزير الدولة لشئون التخطيط ، وذلك نظرا لخطورة المهمة التي يضطلع بها هذا الجهاز وأهمية الدور الذي يقوم به الإحصاء في مختلف مراحل التخطيط الاقتصادي والاجتماعي وقد حرص المسؤولون على أن يمثل الأقليم الشمالى بعضوين فى اللجنة المركزية حتى يتم تنسيق الإحصاءات السكانية بين الأقليمين ، وحتى يتسع نطاق مهمة اللجنة المركزية ، فيشمل البيانات والدراسات الإحصائية لسكان الجمهورية العربية المتحدة .

وقد حدد القرار الجمهورى إختصاصات اللجنة المركزية لتنسيق الإحصاءات السكانية على النحو الآتى :

(١) تقرير الإحصاءات والتعدادات الواجب إجراؤها لمعاونة لجنة التخطيط القومى فى رسم الخطط وتبعتها وتقويمها ، وليبيان التطورات الاجتماعية والاقتصادية وقياسها .

(٢) تحديد مواعيد وطرق إجراء هذه العمليات الإحصائية ومواعيد وكيفية نشر نتائجها بما يضمن سلامتها ودقتها وكفائتها ، وتعميم الإستفادة منها والاعتماد عليها .

(٣) تعيين الجهات أو الأجهزة الإحصائية التى تقوم بالعمليات الإحصائية المختلفة بما يحقق التنسيق السكامل بين هذه العمليات والأجهزة الإحصائية .

(٤) العمل على نشر الوعى الإحصائى فى البلاد والنهوض بمستوى الإحصاء

(٥) القيام بمهمة التوجيه والترشيد لجمع الأجهزة الإحصائية .

هذا وقد خطت الأجهزة الإحصائية والسكانية فى الجمهورية العربية خطوات إيجابية نحو تحقيق أهدافها ، وفى مقدمة ما قامت به من دراسات التعرف على الأجهزة الإحصائية والوقوف على تكوينها وأمكاناتها وأنواع البيانات الإحصائية التى تجمعها أو تنشرها وكيفية عرض هذه

البيانات وتنسيق العمل بين هذه الأجهزة لتوفير البيانات الاحصائية في كافة القطاعات بصورة وافية وخالية من النغرات والمتناقضات . كما عُنيت بالتبويب الموضوعي للإحصاءات السكانية وتحديد الاحتياجات الاحصائية اللازمة لخطّة التنمية الاقتصادية ، في المجالات الزراعية والصناعية والتجارية ، والاحصاءات المهنية ، وإحصاءات القوى العاملة ، والإحصاءات الاجتماعية المتعلقة بحالة التعليم والصحة وشؤون الأسرة والثقافة ووسائل التسلية ، والسياسة الاسكانية . إلى غير ذلك من الجهود التي يمكن أن تفيد الدراسات السكانية من الناحية النظرية والتطبيقية العملية .

الفصل الخامس

النظريات السكانية

تمهيد عام :

المؤلف عادة عند تناول النظريات المتصلة بالدراسات السكانية ، أن يقتصر الباحث على عرض وتحليل ونقد الآراء التي تعالج الجانب العددي الكمي للسكان من ناحية تأييد زيادة السكان أو ترجيح تحديد النسل ، ولكننا رأينا ، تطبيقاً للمنهج التكاملي ، ألا نغفل الجوانب الكيفية النوعية للنظريات السكانية ، ولذلك فقد قسمنا هذه النظريات إلى قسمين عامين : قسم ^① يعنى بطريق مباشر أو غير مباشر بالصفات الكيفية النوعية ، وله اتجاه هادف للارتفاع بالصفات والخصائص الكيفية للسلالة البشرية وفي نطاق الإمكانيات السكانية في الوحدات السياسية ، وهذا القسم يعتمد في المقام الأول على تقدم الدراسات الحيوية البيولوجية ومحاولة الاستفادة منها بتطبيقها وتجريبها على المجموعات السكانية ، ويعتمد كذلك على تطور الدراسات الاجتماعية في النواحي التطبيقية العملية والتشريعية التي تكفل إطراد تقدم الخصائص النوعية السكانية ، باتخاذ إجراءات وضرابط اجتماعية إيجابية أو سلبية وقائية ، وتنظم هذا القسم من النظريات النوعية ، مجموعة الآراء الايوجينية التي تلتقي في المحاولات المتتابعة لرق وتحسين الفروع الإنسانية ، والدراسات التي أجريت على الخصوبة السكانية بالنسبة لفروع العائلات البشرية ومختلف المستويات والطبقات الاجتماعية .

أما القسم الثاني من النظريات الكمية العددية ، فيرتكز فيما نعتقد على النسبية الاجتماعية ، بمعنى أننا لا نؤمن بعمومية تلك النظريات وصلاحياتها التطبيقية على المشاكل السكانية في جميع المجتمعات الإنسانية ، إذ أن لكل مجتمع ظروفه السكانية ، وأحواله المعيشية ، وأيديولوجيته الإصلاحية ،

ومعتقداته الدينية ، وعاداته الجماعية ، ونظمه السياسية ، ومعاييره وقيمه الأخلاقية ، إلى جانب الاعتبارات الاقتصادية ، التي تعمل متكاملة وبصورة إيجابية في الحكم على صدق نظرية من النظريات السكانية في فحواها العام أو محتواها المطلق أو تفرعاتها الجزئية على مجتمع من المجتمعات ، وفي أغلب الأحيان تعكس نظرية العالم الظروف والمقتضيات الاجتماعية للمجتمع الذي يعيش فيه في فترة زمنية معينة ، ولما كانت الجماعات في حالة دينامية متطورة ، فإن ما يصدق عليها أو يصلح تطبيقه فيها في مرحلة من مراحلها لا يصدق ولا يصلح في مرحلة أخرى ، ومن الأخرى أن النظرية التي قد تنطبق على الحالة السكانية لدولة من الدول لا تنطبق على غيرها ، ومن هنا وجب أن ننبه الأذهان إلى خطورة استمداد نظريات غريبة في علاج مشاكلنا السكانية ، إذ أنه لا بد وأن تنبثق سياستنا السكانية من واقع حياتنا الاجتماعية وأيديولوجيتنا الفكرية العقائدية .

المبحث الأول

النظريات الكيفية النوعية

المطابق الأول

اتجاهات تحسين النسل

ترتبط النظريات الكيفية النوعية بالاتجاهات النظرية والعلمية التطبيقية لتحسين السلالة البشرية ، ومن ثم تحسين نسل سكان المجتمع . وهذه الاتجاهات والأفكار قديمة ، فقد نادى بها ومارستها فلاسفة وشعوب كثيرة ، فوجد أن الشعب الأسريطي القديم يأخذ ببعض الممارسات التي تقصد إلى تحسين نوع سكانهم لضمان التأكد من سيطرتهم على البلاد التي تستعمرها ، ومن أمثلة هذه الممارسات : قتل الأفراد عديمي الفائدة ، و تقييد الهجرة بالنسبة لسكانهم المواطنين ، و تشجيع الزواج بينهم دون الإمتزاج بسكان البلاد الخاضعة لسكانهم ، بل كانوا يمارسون من فترة لأخرى عملية الإبادة بالجملة لسكان تلك البلاد لاعتقادهم بأن انسلابهم ضئيف يورث الصفات التروعية الضعيفة لشعوبهم .

كذلك مارس عرب الجاهلية كثيرا من الممارسات التي تهدف إلى تحسين نوعية سكانهم ، فكانوا يقرون نوعا من الزواج المؤقت بقصد الوصول إلى هذه الغاية ، وكانوا يتأذون ويتشائمون من مشوهي الخلقة وضعافي البنية ^(١) .

وقد عبر عن هذه الفكرة في التفكير الغربي الشاعر اليوناني القديم

(١) انظر تفصيل ذلك في مقال عن العرب وعلم تحسين النسل .

مجلة العلوم العدد الأول يناير سنة ١٩٥٨

(٥ السكان)

تيوجنيز Theognis في القرن السادس قبل الميلاد ، وعالجها في ثانيا قصائده ، وتلاه بعد ذلك أفلاطون وأرسطو ، وقد أكد كل منهما أهمية قوة السلالة ومثانة البناء الفيزيقي للجسم ، ونجد هذا واضحاً في جمهورية أفلاطون وكيف أن التربية والنظر والزواج كانت ترتبط بهذه الغاية وهي إنتاج سكان صالحين جسماً وعقلاً . . .

كما اقترح أرسطو في هذا المجال طائفة من الممارسات الشاذة العنيفة واستساغ الاجهاض وإعدام الأطفال ناقصي التركيب Deformed أو المشوهين وفلسدى الأخلاق ، واقترح تحديد السن الذي يجب فيه أن يقطع الإنسان عن الزواج أو عن الإنسال ، زاعماً أن الرجال المتقدمين في السن ، شأنهم شأن الأحداث الصغار لا ينبغي أن ينجبوا إلا مخلوقات ناقصة جسماً وعقلاً ، ونسل الشيوخ في نظره إنسال ضعيف قد لا يثمر فيه العلاج ، فيجب أن يمتنع الفرد عن الإنسال بعد أن يبلغ الوقت الذي يصل فيه عقله إلى غاية نموه ، وقد حدد هذا بصفة عامة بسن الخمسين (١) .

وقد أظهر الرومان اهتماماً بهذه الاتجاهات النوعية في تحسين سلالتهم (٢) وفي القرون الأولى من المسيحية وكذلك في العصور الوسطى اختفى الاهتمام بوسائل تحسين النسل ، كما تضاعف الاهتمام بمسائل العلمية الأخرى . ومع ذلك فقد كنا نجد بين الحين والآخر اهتماماً من بعض المفكرين الذين كتبوا في الموضوع من وجهات النظر الخاصة . وقد كان الناس وخاصة في أوروبا طوال هذه الفترة يأخذون ببعض المعتقدات البيوجينية ، من ذلك أن زواج رجل من شمال أوروبا بامرأة من جنوبها أو العكس ينتج نسلاً قرياً ، ومنها أيضاً تحديد سن الزواج ، فنجد كولونا Colonna ، يحذر من أن الزواج المبكر ربما ينتج نسلاً ضعيفاً كما اعتقد

(١) الدكتور مصطفى الحشاش : النظريات والمذاهب السياسية ص ٨٩ .

(٢) Duncan : Race and Population Problems pcs

« بوترو Bostro » ، أن التباين الكبير في السن بين الزوجين يؤثر في نسلهما .
وفي مستهل القرن السابع عشر أحيى الفيلسوف الراهب « كيانيل » ،
بعض نظم التحسين وكانت هذه في معظمها قائمة على آراء أفلاطون
في هذا الشأن ^(١) .

علم تحسين الوراثة :

هذا وتعتبر الحركة الحديثة لتحسين سلالة السكان ثمرة الدراسات العلمية
في الوراثة ، وقد كان المحرك الأول لها فرانسيس جالتون F. Galton
ويعتبر مقاله عن « الوراثة والعبقرية والشخصية Heredity, talent
and Character » ، الذي نشر سنة ١٨٦٥ وكتابه « النبوغ الموروث
Hereditary genius ، البداية الحقيقية لعلم تحسين النسل Eugenic »
حاول جالتون أن يثبت أن الأولاد ذوى المقدرات المميزة ينحدرون
من آباء ذوى مقدرات فوق المستوى العادى ، وقام بدراسات في السلالات
أدت به في النهاية إلى تقرير أن النبوغ والانتحاط أشياء تنتقل بالوراثة ،
وقد ابتكر جالتون بعض الطرق الرياضية لقياس درجة شدة الوراثة ،
وكانت هذه الطرق نفسها أساسا اعتمد عليه في الدفاع عن أهمية مقاييس
تحسين السلالات . وقد تقدمت بحوثه على يد مساعده وخليفته « كارل
بيرسون Karl Pearson » ، وقد حاول كل من جالتون وبيرسون
ابتكار بعض الوسائل التي يمكن بها التنبؤ بالخصائص العامة للأجيال اللاحقة
التي تنفرع عن والدين متجين ذوى طابع معين ، وذلك بقصد جعلها أساسا
يرتكز عليه التطبيق العملى للاختيار السلالى في الانسان ^(٢) .

(١) المصدر السابق .

Duncan Race and Population Problems

Duncan Race and Pop. Prob. P. 66 (٢)

وفد واصل البحث في هذا الموضوع أحد أتباع جالتون وهو
«وليام جرج William Geg» الذي نشر سنة ١٨٧٢ كتابه «الغاز الحياة
Enigmas of life» الذي دعا فيه إلى أننا يجب ألا ندع أجيال الضعفاء
وناقصى التركيب deformed والمشوهين يعيشون وينجبون ليضاعفوا
في أمراض المجتمع وآلامه... يجب ألا نسمح بالحياة إلا للأقرباء المعافين
ليتكاثروا ويكونوا قوة في المجتمع.

ومنذ الإعلان عن هذه الآراء وانتشارها أخذت حركة البحوث الخاصة
بتحسين السلالة تخطو إلى الأمام. حتى أنه في السنين الأخيرة طغت البحوث
اليوجينية على تلك المنصبة على النظريات التقليدية للوراثه.

وقد اتجهت هذه البحوث نحو كشف المسائل الآتية :

- ١- هـ مدى إمكانية وراثه الخصائص الفيزيكية .
- ٢- هـ مدى إمكانية وراثه الخصائص العقلية والنفسية .
- ٣- هـ الوسائل الإيجابية والسلبية التي يمكن بها تحسين الخصائص العقلية
والفيزيكية للأجيال التالية .

وقد تعارف المشتغلون باليوجينية على أنها تعنى على حد تعبير جالتون
«دراسة الوسائل العلمية والاجتماعية التي بمقتضاها يمكن أن نحسن أو نرفع
من شأن الخصائص الوراثية للأجيال التالية» سواء كان هذا التحسن من
الوجهة الفيزيولوجية أو من الناحية العقلية .

ولاشك أن الناس يتمايزون أو يختلفون فرداً عن آخر في ضوء
ما يرثونه من خصائص وراثية وصفات سلائية انحدرت إليهم من أسلافهم
بصورة عامة ووفقاً للبيئات المحيطة بهم .

وإصطلاح Euginics أصبح في الوقت الحالى يقتصر على كافة
المحاولات العملية والعلمية التي تؤدي إلى تحسين الصفات الوراثية والخصائص

السلالية للأجناس البشرية فقط بعد أن كان العلم في سنواته الأولى وفي الربع الأخير من القرن التاسع عشر يشمل في نطاقه كلا من النبات والحيوان... ومن أجل هذا كانت الإقتراحات اليرجينية في وقتنا هذا تهدف في النهاية إلى تحسين اجتماعي .

وهذه الوسائل المتعلقة بتحسين السلالات وخصائصها الوراثية تختلف عن طائفة أخرى من الوسائل والاقتراحات التي تعنى بنفس الغاية ولكنها تهتم بتحسين الظروف البيئية والاجتماعية . بينما الوسائل التي تدخل تحت اصطلاح Enginies وسائل من طبيعة بيولوجية متعلقة بالتركيب المادي للإنسان Human meterial . وإن كانت كل من الوسائل المتعلقة بالجانب المادي والجانب البيئي الاجتماعي تسيران جنباً إلى جنب من أجل الارتقاء بالإنسان ككل ، فلا شك أنه للحصول على نتائج إيجابية في هذا الصدد لا من أن تتكامل كلا الناحيتين .

وينبغي أن نشير إلى أن علم تحسين السلالات لا يمتد إلى جانب تحسين الخصائص والصفات السلالية للإنسان ، بدراسة الدور الهام الذي تلعبه تلك الصفات السلالية في تحديد خصائص الأجناس البشرية المتباينة وإظهار ما نطوى عليه من مميزات أو قدرات مميزة ، ويجدر بنا أن نشير إلى أن النظريات الكيفية النوعية في السكان تهدف إلى :

(أ) منع تزايد النسل من جانب الأشخاص مشوهي الخلقة .

(ب) تشجيع التزاوج من جانب الأصحاء عقلياً وجسدياً .

هذا وقد سنت بعض الدول تشريعات لمنع تزاوج ضعاف العقول والمصابين بالنقص العقلي . وتعتبر روسيا السوفيتية في مقدمة الدول التي سلكت هذا المسلك وكذلك بعض الولايات الأمريكية . . . وحددت الحالات التي يمتنع فيها الزواج بصفة عامة كالآتي :

- ١ — حالات النقص العقلي .
- ٢ — حالات الضعف العقلي
- ٣ — حالات الصرع Eplipsy .
- ٤ — الاجرام بالعادة .
- ٥ — حالات إدمان الخمر .

وكثيراً ما تلجأ بعض الدول إلى وسائل العزل والتعقيم للحد من تناسل ضعاف العقول ..

وتلجأ كثير من المجتمعات في الوقت الحاضر إلى اتباع هذه الطرق لحماية شعوبها من مظاهر النقص والضعف والتفكك ، دون أن يعنى ذلك بالضرورة وفي كل الأحوال الحد من الزيادة السكانية أو تحديد النسل وهذا واضح في الاتحاد السوفيتي فع أن الدولة تهدف في سياستها السكانية العامة إلى تشجيع التناسل فإن ذلك لم يمنع السوفييت من الأخذ بالوسائل الحديثة في تحسين السلالات .

وتعد انجلترا في مقدمة الدول التي قطعت شوطاً بعيداً في ميدان تحسين السلالات وتدلنا الإحصاءات الأخيرة لعام ١٩٥٣ أن حوالي ٥٠,٠٠٠ شخص من ناقصي التركيب العقلي أو الفيزيقي قد تم وضعهم في معازل خاصة تحت المراقبة .

ولكن سياسة العزل هذه تكلف الدولة نفقات باهظة وترك أثراً سيئاً في نفسية المعزولين خاصة ، هؤلاء الذين كان يمكنهم بشيء من التوجيه والترشيد أن يعالجوا أنفسهم أو يتمتعوا من تلقاء أنفسهم عن التناسل دون إجبار من جانب السلطات الرسمية .

وما يجدر الإشارة إليه ، أن تقدم الدراسات النوعية للسكان قد تقدمت تقدماً ملموساً في بريطانيا بفضل الجهود التي بذلها جالتون F. Galton .

فقد قام بدراسات أيجونية أدت به في النهاية إلى تقرير أن النوع والانحطاط في الصفات النوعية للسكان تنتقل بالوراثة ، وابتكر عدة طرق رياضية لقياس مدى تركيز العوامل الوراثية في تلك الصفات Intensity of Inheritance ، وتقدمت بحوثه على يد كارل بيرسون Karl Pearson ، وبفضل جهود هذين العالمين زاد الانتباه إلى أهمية هذه الدراسات في بريطانيا ، ففي عام ١٩٠٤ ، أسس جالتون في جامعة لندن جماعة للبحث في وسائل تحسين النسل ، وتطورت هذه الجمعية فيما بعد إلى ما يعرف باسم معمل فرانسيس جالتون للدراسات القومية لتحسين النسل .

Francis Galton Laboratory of National Eugenics

وقد ساهم العالم بيرسون بجهوده في هذا المعمل منذ عام ١٩٠٧ . وفي عام ١٩٠٨ تأسست « جمعية التربية الأيجونية » ، The Eugenics Educational Society برئاسة ليونارد دارون Leonard Darwin . وانتشرت فروع هذه الجمعية في أنحاء متفرقة من الجزر البريطانية . والملاحظ بصفة عامة أن الدراسات النوعية للسكان في بريطانيا قد تركزت أساساً على سياسة ضبط ضفاف العقول والعناية بهم ^(١) .

ويعتبر الكسندر جراهام بيل Alex. Graham Bell ، رائد الأبحاث المتعلقة بتحسين النسل في الولايات المتحدة ويخلفه من الاهتمام بهذه المباحث وتدعيمها العلامة دافينبورت Davenport الذي أسس في عام ١٩١٠ ، مصلحة تسجيل مباحث علم تحسين النسل ^(٢) وحددت مهمتها فيما يلي :

(١) تقوم هذه المنظمة بنشر سلسلة محاضرات ومجلة تحب اسمها Annals of Eugenics

(٢) تنشر هذه الجماعة مجلة ربع سنوية اسمها Eugenics Review

(٣) راجع كتاب Hogben ; Genetic Principles chap 8.

Encyclopedia Americana. Vol. 10

راجع بحوث علم القياس الحيوى Eugenics Record Office في مجلة Biometry

The Eugenics Record Office, N. Y. (٤)

- ١ - خدمة الاهتادات الخاصة بتحسين النسل .
- ٢ - عمل سجل تحليلي لخصائص الأسر الأمريكية .
- ٣ - تدريب خبراء ميدانيين لجمع المعلومات التي تهتم الدارسين لوسائل
تحسين النسل .

- ٤ - تسمية الوعي اليبدا في الذي يساعد على جمع هذه المعلومات .
- ٥ - التعاون مع المؤسسات والأفراد والفئات التي تهتم بالدراسات
التحسينية للنسل :

- ٦ - بحث وسائل وأساليب الوراثة النوعية للخصائص الإنسانية .
- ٧ - بذل المشورة بخصوص الصلاحية السلالية بالنسبة لما يعقد
من زيجات .

ثم تتابعت بعد ذلك الهيئات والمؤسسات التي تعنى بالبحوث السلالية ،
مثل رابطة الدراسات الأيوجينية^(١) و جماعة علم تحديد النسل الأمريكية^(٢)
التي تأسست في عام ١٩٢٦ و زاد نشاطها ابتداء من عام ١٩٣٠ حين حددت
ونظمت قواعد وقوانين الهجرة إلى الولايات المتحدة ، وقد برز نشاط
هذه الجماعة بشكل ملحوظ في مجلاتها . وخاصة مجلة « تحسين النسل »
Eugenics التي تغير اسمها إلى « مجلة الشعوب ، Peoples » في عام ١٩٣١ .
هذا وقد استجابت عدة جامعات ومؤسسات تعليمية في أمريكا لهذه
الحركة الأيوجينية التي تعنى بالدراسات النوعية للسكان ، وانتشرت فروع
جماعة دراسات تحسين النسل في سائر مناطق الولايات المتحدة الأمريكية ،
وازداد هذا الاتجاه نموا وازدهارا بإنشاء مؤسسة تحسين السلالة

(1) Eugenics Research Association.

التي تصدر مجلة باسم Eugenical Review

(2) American Eugenics Society.

Encyclopedia Americana. Vol. 10. p. 570.

في ميتشيغان^(١) ومؤسسة رفع مستوى الجنس البشري Human Betterment Foundation ومعهد دراسة العلاقة الأسرية^(٢) وكلاهما في كاليفورنيا ، ثم جماعة التربية الأيو جينية في شيكاغو^(٣) وكذلك جمعية جالتون Galton في نيويورك^(٤) .

وبالإضافة إلى ما تقدم ، فإننا نلمس انتشار الدراسات النوعية للسكان في كل من ألمانيا وفرنسا والسويد وإيطاليا وتشيكوسلوفاكيا والاتحاد السوفيتي ، وقد تبلورت هذه الدراسات في الاتحاد الدولي للمنظمات الأيو جينية^(٥) الذي يصدر مجلته الموسومة باسم Eugenic News ، وقد باشر نشاطاً مرموقاً في تنظيمه ودعوته لعدة مؤتمرات دولية لمناقشة المسائل النوعية المتعلقة بالسكان وتحسين السلالات .

وحامدي القول ، يمكننا أن نقرر بوجه عام أن الدراسات النوعية للسكان قد خطت خطوات واسعة وتقدمت تقدماً ملحوظاً في أوروبا وأمريكا ، واتتمت من النطاق الأنغليسي القرمي الوطني إلى المجال الإنساني الدولي .

ولا يسمح لنا المجال بذكر تفصيلات محاولات أصحاب النظريات النوعية ولكننا سنكتفي بأن نشير إلى أهم الآراء التي قيلت بهذا الصدد والتي ارتكزت على تحسين المستوى الكيفي والنوعي للسكان عن طريق التحسينات التي تطرأ على البيئة الاجتماعية للسكان ، ويطلق عادة على هذا الاتجاه الفكري اسم « Euthenie » ، أي دراسة الوسائل المؤدية إلى رفع المستوى النوعي للسكان عن طريق تحسين البيئة الثقافية والاجتماعية لهم .

(1) The Race Betterment Foundation Michigan.

(2) The Institute of Family Relations.

(3) The Eugenics Education Society of Chicago.

(4) The Galton Society of N. Y.

(5) The International Federation of Eugenics Organization.

وفي مقدمة هذه الآراء ما يراه العلامة ردفيلد Redfield من أن لسن الزواج دوراً هاماً في تحسين نوع السكان ، فقد اتضح له ذلك من إحصاء قام به على ٥٧١ من رجال المجتمع الممتازين ، ووجد أن الطفل الذي يولد لأب مكتمل السن (حول الستين) يتاح له فرص التبرغ أكثر بأضعاف مضاعفة من ابن لأبوين صغيرى السن ، كما أنه انتهى إلى أن الإنسال البطيء Slow-Breeding يعتبر أمراً حيوياً لإنتاج نوع نابه ، وقدر أن السكان الذين ينسبون إلى نوع غير راق في خصائصه Inferior Stock يحتاجون إلى مائة عام لكي يصبح نوعهم أرقى Superior Stock ، وهذا النوع الراقى يحتاج إلى مائتي عام لكي يصبح نوعاً عبقرياً ممتازاً ^(١) .

وكذلك أشار العالمان وتنسكى W. S. Woytinsky و إند E. S. Woytinsky أن التحسينات النوعية ورفع المستويات الصحية تنوقف على رفع المستويات الاقتصادية في الجماعات المتخلفة ، أما في المجتمعات المتطورة نسبياً ، فإنها تتركز أساساً على تنسيق الخدمات الصحية ، ورفع المستوى الصحى يتركز في أساسه على عملية نهوض اجتماعية متكاملة ، ومعنى ذلك أن التحسين النوعى للسكان يبدو مرتبطاً بالمسألة الاقتصادية في المناطق المتخلفة ، ومتصلاً بالخدمات الاجتماعية في الدول الصناعية .

أما العلامة « هنتجتون Huntington » فيسلم بأن الأفراد الناهيين يغلب أن يكونوا أبناء لآباء كبار في السن نسبياً ، إلا أن « هنتجتون » لا يرجع ذلك إلى الكبر في ذاته ، وإنما يرجعه إلى أن التأخر في سن الزواج

(١) نحن لا نؤمن بهذا الرأى وتؤيد العلامة كارساوندرز Carr-Saunders في معارضته له فليس هناك من سبب يحمل على الاعتقاد بأن والدين كبيرين في السن يمكن أن ينجبا أولادا يختلفون في صفاتهم الموروثة النوعية عن النسل الذى أنجبناه في صدر حياتهما .

(٢) W.S. Woytinsky and E.S. Woytinsky, World Population and Production, Trends and Outlook N. y 953

يترتب عليه استقرار اقتصادى وتضاعف فرص تربوية قيمة ، هذا من الناحية الاجتماعية ، أما من الناحية البيولوجية أنه ربما كانت قوة الوالدين غير عادية مما جعلهم لا ينجبون إلا بعد فترة طويلة - نسيا - من الزواج ، وبالتالي اكتسب الأطفال قوة فيزيقية Physical Vigor ساعدتهم بلا شك على التفوق .

رأى العلامة جوليان هكسلى J. Huxley (١) :

ساهم « هكسلى » مساهمة فعالة فى أبحاث تحسين النسل ، وهو ليس عالما بيولوجيا فحسب بل هو فيلسوف اجتماعى أيضا وله آراء جريئة فى هذا الموضوع يمزج فيها بين العلم المستمد من البحث والتجربة وبين التأمل والتعمق فى شئون الاجتماع .

يرى « هكسلى » أن علينا أن نرسم سياستنا لتحسين النسل وفق الخطط الآتية :

أولا - منع آثار العقم : ويظن أن للطبقات العليا الاقتصادية من القدرة ما ليس لغيرها ، أو على الأقل من المقدرة لتنجح فى نظامنا الاجتماعى ولكنها لا تتناسل بسرعة حتى يمكن أن تحل ذريتها محلها أما كالية أو كجزء مئوى من مجموع السكان . فعلى إذن محاولة علاج هذا الحال ، بالنصح الدينى والاستعانة بالوطنية ، وبالطرق المحسوسة الواضحة وذلك بإعطاء الرواتب الإضافية لأصحاب العائلات الكبيرة ، وتخفيض نفقات التعليم ، وانقاص ضريبة الدخل من أجل الأبناء . أما الطبقات الدنيا - وهى كما نزع - أقل مقدرة من غيرها - فإنها تتناسل بسرعة كبيرة جداً نسيا - فعلى أن نعلمها طرق تحديد النسل ، بالألا نسمح بمساعدتها وباستفادتها من العلاج بالمستشفيات الحكومية ، حتى لا يكون فى القضاء على آخر عائق فى سبيل الانتخاب

(١) جوليان هكسلى : الإنسان فى العالم الحديث (مترجم)

الطبيعى Natural Selection ما يسهل إنجاب الأطفال أو بقاءهم .
ويجب أن يكون التعطل ذريعة لتحقيقها ، أو على الأقل تنوقف المساعدة
على عدم الاكثار من إنجاب الأطفال .

ثانياً — رسم الخطط لبيئة مثالية :

ولا شك أن المثل العليا للبيئة الاجتماعية تختلف اختلافا كبيرا
باختلاف الآراء والمفكرين غير أنها تلتقى جميعاً عند تلك البيئة التى تهيء
الفرص للعمل المثمر الذى لا يتجاوز الحد الذى يشعر عنده الأفراد
بالاجتهاد ، والذى لا تكون ثمراته مجرد الحصول على الضروريات فحسب ،
بل يمكن من تحقيق قدر معقول من طيبات الحياة وملاذها ، ويسر الحصول
على قدر مناسب من وقت الفراغ ، وفضلاً عن هذا وذاك فإن البيئة المثالية
تتمكن كل إنسان من التعبير عن مواهبه الفيزيائية والعقلية تعبيراً عالياً مثالياً
سواء فى ألعاب القوى الرياضية أو الآداب أو الفنون أو الخدمة الاجتماعية
وهذه الخطط تتطلب تغيراً جذرياً فى البيئة الاجتماعية للسكان ، فضلاً
عن التحكم فى « البلازما الجراثومية الإنسانية » ، وتقتضى ارتفاعاً ملحوظاً
فى مستوى التغذية للغالبية العظمى من السكان ، حتى يكون كل فرد مزوداً
بالوحدات الحرارية اللازمة ، والعوامل المساعدة الملائمة للرياضة الصحية
وتحديد الطاقة الإنتاجية ، وتكافؤ الفرص التعليمية وهكذا نستطيع أن
نتأكد من أنه فى ظل تناسل الطبقات بطريقة أفضل ، سيقبل رفع مستوى
المعيشة من آثار العوامل الوراثية ، ويفتح المجتمع أنماطاً جديدة بالقدرة
العالية ، وستصبح الطبقات الفنية رافداً من روافد التحسن السلالى .

ويرى هكسلى فرق ما تقدم أن النظام الفردى التنافسى القائم على
الرأسمالية ، عاجز عن الانتفاع بما لديه من العوامل الوراثية القيمة وزيادتها ،
وعاجز عن تشجيع التغيرات الملائمة وإبعاد التغيرات الضارة ومن هذه

الزاوية يدعو هكسلى علماء تحسين النسل إلى محاولة تغيير النظام الاجتماعى ، بحيث تسير البيئة الاجتماعية فى اتجاه تصاعدى يزيد فرص الانتخاب التحسينى للسكان .

وأهم من ذلك علينا أن نحاول إيجاد نموذج حياة إقتصادية إشتراكية لا تكون عقيمة بالوراثة وعلينا أيضاً أن نحاول إيجاد نموذج للعائلة وللحياة التناسلية يمكن أن يسمح للعلم (تحسين النسل) بأن يكون أكثر سرعة وبناء .

ويبدو جلياً أن من الواجب التخلص من التزاحم الفردى كحافز أساسى للرقى المالى والإجتماعى فى الحياة . وعلينا تنمية قوة الدوافع الجماعية والدوافع الجماعية قوية فى الحياة القبلية ، وكانت قوية فى كثير من المدن القديمة كالإبانية القديمة . ومع ذلك فأهم ما هممنا أن نعرف أنها نجحت إلى حد كبير فى أن تأخذ مكان البراءة الفردية الحالية ، أو على الأقل فى أن تقلل من أهميتها الإجتماعية فى كثير من الدول الحديثة وبخاصة ألمانيا النازية وجمهوريات الاتحاد السوفيتى .

ويستدرك « جوليان هكسلى » فيقول ليس من عمل علماء الحياة البحث فى المزايا الخاصة والإجتماعية لمختلف الفلسفات السياسية . ولكن قد يوز لهم أن يبينوا أن البواعث الإجتماعية ليست كلها متساوية فى الأهمية من وجهة نظر علم تحسين النسل . فثلاً كانت البواعث الجماعية فى ألمانيا النازية تتضمن تقوية الروح القومية والنشاط القومى بدلاً من التقليل منهما ، وهذا عكس ما يسعى إليه علم تحسين النسل . ولا مرأه فى أنه قد يقال أن نتيجة هذا العمل تهم علم تحسين النسل وهناك كثيرون يؤيدون أهمية الإجراءات التحسينية التى اتخذت فى ألمانيا تحت تأثير الآراء والعواطف الإشتراكية القومية حتى ولو كان بعضها عقيماً وغير علمى ، ولكنها إذا أدت فيما بعد إلى كثرة السكان والحرب . فلا بد أن تكون فاسدة . وعلينا فى مسائل التطور ، كما يعتقد هكسلى ، أن تأخذ بالرأى الطويل المدى .

هذه بعض مقتطفات من رأى العلامة جوليان هكسلى وهى كما سبق أن أشرت مزيج من العلم والفلسفة الاجتماعية .

هذا ويمكن أن نوجز ما أشار إليه العلماء بصدد مقترحات الوسائل الإيجابية لتحسين النسل فيما يلى :

١ — تشجيع الأصحاء على الزواج والإنجاب بصرف الإعانات والأوسمة.

٢ — قيادة حملات الدعاية المنظمة لتبصير الرأى العام بحيوية هذا الموضوع .

٣ — وضع تشريعات تفرض ضرائب إضافية على الأصحاء الأقرباء غير المتزوجين .

٤ — تحديد الأجور مع مراعاة أن يعنى الحد الأدنى لهذه الأجور بحاجة الإنسان إلى السعرات الحرارية اللازمة لتوليد الطاقة والنمو .

٥ — تشريعات إجتماعية وصحية من أجل توفير ظروف العمل الملائمة.

٦ — تشريعات إجتماعية ترشيدية للانتفاع بأوقات الفراغ .

ثالثاً : الوسائل السلبية لتحسين النسل Negative Euginics⁽¹⁾

والمتحمسون للجانب السلبى لتحسين النسل ينادون دائماً بالتخلص من العوامل الوراثية غير المرغوب فيها وذلك بمنع الأفراد الحاملين، للعوامل الوراثية السيئة من أن ينجبوا أطفالاً . ولما كان هذا المنع ليس من السهل فقد اقترحت طرق ثلاث :

١ — منع تزواج جميع الناقصين defectives .

٢ — وضعهم فى مؤسسات .

٣ — التعقيم Sterilization .

وبخصوص الإقتراح الأول نجد أنه طريقة علاج مأمونة فعلاً ولكن

لبعض الشواذ الظاهرين فقط . ولهذا فإن كل الأفراد الذين يحملون الجينات المشوهة يصبحون هم أنفسهم مصدراً للتشويه . ولهذا فإن منع هؤلاء من الأنسال تماماً سينتج عنه اختفاء أمثالهم كلية في الجيل التالي . ولا تفيد هذه الطريقة إذا كان النقص أو الخلل ظهر حديثاً عن طريق الطفرة Mutation . وتجدر الإشارة إلى أن أكثر العيوب الوراثية أهمية بما في ذلك حالات الضعف العقلي ليست ظاهرة ولكنها كامنة Recessive .

أما اقتراح وضع الشواذ في مؤسسات فيمثل حملاً باهظاً من الناحية المادية يتقل كاهل جيل أو جيلين . بل إن المؤسسات الموجودة فعلاً لا يمكن أن تتسع لأكثر من ربع الشواذ . وقد قدر العلامة « دانكان Durcan » عدد ضعاف العقول فقط الموجددين في الولايات المتحدة سنة ١٩٢٧ بحوالى ٦٠٠.٠٠٠ . وهاك بالطبع فئات ناقصى العقول والمصابين بالصرع والجنون وبغيرها من الأمراض التى تنتقل بالوراثة .

أما الإقتراح الثالث وهو التعقيم فهو عبارة عن عملية جراحية تجرى على المصابين بالأمراض والعيوب والتشوهات الوراثية . ولا يفقد الأشخاص الذين تعمل لهم هذه العملية صفاتهم الجنسية كما لا يدل مظهرهم الخارجى على أن هذه العملية قد أجريت لهم ، ولكنهم لا يستطيعون انجاب أطفال . ويبدو أن هذا الإقتراح أسهل الإقتراحات الثلاث وأقلها ضرراً . إلا أن الأخذ به يلقى معارضة بعض الفئات ، الذين يرون فى التعقيم مخالفة وتدنيس للشرائع معتقدين أن لكل إنسان حق مقدس divine right فى الزواج والإنجاب بصرف النظر عن شذوذ ما ينبج . وفريق آخر من المعارضين يبنون وجهة نظرهم المعارضة على أساس أننا لا نعرف القدر الكافى عن حقائق الوراثة التى تمكننا من التعرف بالضبط على من يعقموا ومتى يعقموا ؟ وقد أخذت بعض الدول بسياسة المنع والتعقيم ونصت على ذلك

في قوانينها ونظمها ، وفي بعض البلاد لا تتم عملية التعقيم هذه إلا باستشارة الفرد أو باستشارة أوصيائه . وفي بلاد أخرى تتم هذه العملية إجبارياً بحكم قضائي .

وفي مقدمة البلاد التي تأخذ بسياسة العزل والتعقيم الاتحاد السوفيتي وبعض الولايات الأمريكية ، وحددت الحالات التي يمنع فيها الزواج أو يجري لها التعقيم كالآتي : (١)

١ — حالات النقص العقلي Mental defectiveness

٢ — حالات الضعف العقلي Feeble-mindedness

٣ — حالات الصرع Epilepsy

٤ — الإحرام بالعادة .

٥ — إدمان الخمر Alcoholism

وقد لجأت كثير من الدول في الوقت الحاضر إلى اتباع هذه الطرق لحماية شعوبها من مظاهر النقص العقلي والضعف، دون أن يعنى ذلك بالضرورة وفي كل الأحوال الخدمن الزيادة السكانية أو تحديد النسل ، وهذا واضح في الاتحاد السوفيتي فمع أن الايديولوجية الاشتراكية تتعارض مع سياسة تحديد النسل ، إلا أنه في الوقت ذاته تأخذ بالوسائل الحديثة في تحسين السلالات .

وتعد إنجلترا في مقدمة الدول التي قطعت شوطاً بعيداً في ميدان تحسين النسل وتدلنا الإحصاءات الأخيرة لعام ١٩٥٣ أن حوالى ٥٠.٠٠٠ شخص من ناقصي التركيب العقلي أو الفيزيقي قد تم وضعهم في معازل تحت المراقبة .

وجرت كثير من ولايات الولايات الأمريكية المتحدة على سن تشريعات ملزمة للأخذ بسياسة التعقيم والعزل . ففي سنة طبق القانون المتعلق بالعزل

والتعقيم في ٢٣ ولاية من مجموع الولايات الأمريكية الثمان والأربعين .
وتدل الإحصاءات التي تنشرها مراكز العزل والتعقيم على أنه قد تم
أجراء ٦٠٠٠ عملية للتعقيم في سنة ١٩٢٦ وحدها .
وقد اقترح - كخطوة تمهيدية - أن يلزم كل شخص بتقديم شهادة
عند شروعه في الزواج تتضمن تاريخه الشخصي والأسرى والأمراض
التي أصيب بها ، ونتائج الفحص الطبي العام الذي يجري في ولايته .
وقد أخذت بعض الدول فعلا بهذا الاقتراح وأصدرت تشريعات
بتقديم هذه الشهادات ، إلا أن هذه التشريعات لم تصل بعد إلى درجة
الالزام القهرى .

المطلب الثاني

الخصومة المتباينة في الطبقات الاجتماعية

يلاحظ في الوقت الحاضر ، وفي ضوء الدراسات الديموجرافية المعاصرة ، أن النقص في معدل المواليد أكثر ظهوراً في الجماعات والطبقات التي على قدر كبير من التعليم ، وهي الطبقات التي تستطيع أن تولى أطفالها العناية الاجتماعية الملائمة لتنشئتهم في ظروف نوعية إيجابية ، فلا شك أن النساء المنعلمات مثلاً أقدر على تحمل مسؤوليات الأمومة من الجاهلات ، وقد ورد في كتاب دون ، الوارثة والسلالة والمجتمع ، نتيجة بعض الدراسات الديموجرافية المونوجرافية في جماعة أمريكية على نحو ما هو مبين في الجدول التالي الذي يبين متوسط عدد أطفال الأمهات اللاتي بلغن من العمر ٤٥ — ٩ سنة موضحاً ما بلغنه من تعليم وثقافة :

عدد سنوات الدراسة للأمهات	عدد الأطفال
لم تأخذ تسطاً من التعليم .	٣,٩٥
مضين من ١ — ٤ سنوات في مدرسة متوسطة	٤,٣٣
٥ — ٦ " " " "	٣,٧٤
٧ — ٨ " " " "	٢,٧٨
١ — ٣ " في مدرسة عالية	٢,٢٧
٤ سنوات في مدرسة عالية	١,٧٥
٣ سنوات في كلية جامعة	١,٧١

راجع Dunn: Genetics in the 20th . Century كتاب الوراثة والبيئة والمجتمع تأليف دون ودجرها نكي (مترجم) .

وفي ضوء هذا الجدول نلاحظ العلاقة العكسية بين ثقافة الأمهات وعدد ما ينجبن من أطفال .

هذا وقد أجريت تحليلات إحصائية نوعية على الخصوبة التناسلية واختلافها باختلاف الطبقات الاجتماعية وذلك على النحو الآتي .

في عام ١٩٣٥ وجد أن أطفال الأسر التي يقل دخلها السنوي عن ألف جنيه ضعف عدد أفراد الأسر التي يتراوح دخلها السنوي بين ١٥٠٠ - ٢٠٠٠ جنيه ، وأطفال هذه الأسر الأخيرة أكثر بنسبة ٥٠٪ من أطفال الأسر التي يكون دخلها ٣٠٠٠ جنيه أو أكثر بكثير . ووجد أن أطفال عامل المزرعة أكثر بكثير من عدد أطفال مالك المزرعة . كما وجد أن أطفال العامل الماهر الممتاز أقل من أطفال العامل غير الممتاز . أما أصحاب الأعمال والكتابة والموظفين فأقل الجميع أنجاباً للأطفال .

وعندما فحصت مقاييس الذكاء في أطفال هذه الأسر ، وجد أن معدل الذكاء كان يقل في الأسر التي يرتفع فيها عدد الأطفال ويزيد في الأسر التي تنقص عدد أطفالها . والجدول التالي يبين مدى اختلاف معدلات الذكاء باختلاف عمل الآباء : (١)

الوظيفة	متوسط الذكاء بالنقط
موظفون (رجال حرف)	١٢٥
رجال أعمال وكتابة	١٢٠
عمال مهرة ممتازون	١١٣
عمال عاديون	٥٦

وتبين الخصوبة عند الطبقات الاجتماعية المختلفة معناه أن الأجيال

(١) من كتاب دون : الورانة والالة والمجتمع .

المقبلة ستجدر بنسبة أعلى من الطبقات الأكثر خصوبة وبنسبة أقل من الطبقات الاجتماعية الأقل خصوبة. ولكن حظ الطبقات الاجتماعية الأقل خصوبة من الذكاء أقل. وأكثر هذه الطبقات ذكاء تمنع نفسها بنفسها من انجاب النسل وتحمل عبء الأبوة. وعلى هذا فإن معدل الذكاء يقل في الأجيال القادمة، حتى أن بعض الهيئات الموثوق بها في أمريكا ترى أن معدل الذكاء سيكون انخفاضه أسرع من ذلك بكثير.

اختلاف الطبقات في الخصوبة:

هذا وللعلامة فرانك نوتشتين Frank Notestein مقال حول اختلاف الخصوبة باختلاف الطبقات الاجتماعية الاقتصادية، بمعناها الواسع العريض، والعناية باتجاهات هذه الاختلافات وبعض العوامل البيئية المتصلة بها، والمشكلات التي ينبغي أن يوجه إليها البحث، إذا ما أردنا أن نفهم دلالة هذه النواحي المرتبطة بعضها ببعض الآخر.

ومن المرجح أن الاختلافات في الخصوبة بين الطبقات الاجتماعية الاقتصادية لم تصبح ذات شأن ملحوظ، إلا بنمو ثقافتنا الحضرية الصناعية الحديثة. وإحقاقاً للحق، لقد لاحظ الباحثون - على مر عصور التاريخ الإنساني - أن الطبقات العليا، لا تتكاثر بنفس النسبة التي تتكاثر بها الطبقات الدنيا، إلا أن تلك الملاحظات إنما تنصب على الطبقات المتقنة والفئات الحاكمة، التي لا تمثل الاشرذمة ضئيلة جداً بالنسبة لمجموع السكان

أعيد طبع هذا المقال من المجلة السنوية الأكاديمية الأمريكية للعلوم السياسية والاجتماعية .
عدد نوفمبر ١٩٥٦ - من ص ١ - ١١ بإذن من المؤلف والناشر .

The Annals of the American Academy of Political and Social Science, Nov. 1936.

Reprinted in Class, Status, and Power, edited by Reinhard Bendix and Seymour Martin Lipset & Kigan Poul, 1945 pp. 271-281.

وقد ترجم المؤلف هذا المقال وراجعه الدكتور يوسف مراد ونشر في العدد الثاني من مجلة اليونسكو التي تصدر بعنوان «مطالعات في العلوم الاجتماعية» ربيع ١٩٥٩.

في المجتمعات التي تقوم اقتصادياتها على الزراعة والحرف اليدوية .
غير أن نوتشين وجه عنايه إلى القطاعات الرئيسية للسكان : وأعنى سكان
المجتمعات الحضرية الذين يمثلون اليوم أكثر من نصف مجموع السكان
عامة بينما يمثل أفراد الطبقات الراقية الربع على وجه التقريب ، فضلا
عن أن هذه الطبقات ليست على جانب من الخصوبة ، يمكنها من الاحتفاظ
بعدد أفراد على ما هو عليه ، أو يمكنها من اخلاف عدد يماثلها من الأفراد
بل إنه يمكن للوطن تجديد إخلافها عن طريق طبقات الريفين والعمال
الذين يعتبرون ، بحق روافد (ومستودعات) سكانية للأمة . وفي ضوء
هذا المقياس ، تبدو مسألة اختلافات الخصوبة كمسألة حديثة العهد .
وحتى إلى هذه اللحظة ، لا يمكن القول بأن العلاقة بين الخصوبة والمركز
الاجتماعي الاقتصادي ، تمثل ارتباطاً عكسياً دائماً وفي كل المجتمعات ، فهذا
الارتباط العكسي خاصية مميزة ، يمكن ملاحظتها في المجتمعات الصناعية
في أوروبا وأمريكا ، أما معلوماتنا عن الجماعات السكانية الأخرى
(خارج أوروبا وأمريكا) فمحدودة جداً ، غير أنه يمكننا أن نلاحظ
بينها بعض الأمثلة للاستثناء من القاعدة العامة ، فالصين مثلاً ما زالت
تمثل بصفة رئيسية بلداً ذا نظام اقتصادي زراعي ، نظام يعلق أهمية
غير عادية على استمرار الأسرة وهناك قام لامسون Lamson
بدراسة مجموعة من العينات الصغيرة ، مأخوذة على نطاق واسع من مجتمعات
حضرية ، فوجد أن المتعلمين والأغنياء ينجبون أطفالاً أكثر عدداً
من الجهلاء والفقراء^(١) . في الريف الصيني تبدو الاختلافات في الخصوبة
بين المجموعات المتفاوتة في مستوياتها الاقتصادية أمراً غير ذي أهمية نسبية ،

Herbert D. Lamson, "Differential Reproduction in (١)
China", The Quarterly Review of Biology, Vol. 10, No. 3 (Sept.
1935), pp. 308-321.

غير أنها إذا وجدت فإنها تشير أيضاً إلى ارتباط مباشر بين الخصوبة والمركز الاقتصادي . وقد قامت بعض الأوساط العلمية بجمع معلومات ^(١) حديثة حول هذا الموضوع ، وذلك من خلال دراسة أحوال ما يقرب من ٤٠,٠٠٠ أربعين ألف أسرة ، موزعة من حيث إقامتها على ١٠١ مجتمعاً ريفياً ، ولم تمدنا هذه المعلومات بأى دليل يثبت أن المتزوجات من أسر الملاك العاديين land-owner أكثر أو أقل خصوبة منهن في عائلات كبار الملاك land-lord ومستأجرى الإقطاعيات tenants ومع ذلك فقد ثبت بوضوح أن هناك ثمة علاقة إيجابية بسيطة مطردة بين الخصوبة ومساحة المحصولات crop area في المزرعة ، فقد أتضح أن النساء المتزوجات في العائلات التي تملك أكبر المزارع مساحة في المنطقة ، ينجبن أطفالاً أكثر عدداً مما تنجب نظيراتهن في العائلات التي تملك أصغر المزارع مساحة في نفس المنطقة [ومهما تكن دلالة تلك العلاقة المباشرة بين الخصوبة والمركز الاقتصادي للعائلة ، فإنه من الواضح على أقل تقدير أن اختلاف الخصوبة باختلاف الطبقات الاقتصادية في الصين ، يغير تماماً الاختلافات الملحوظة بين تلك الطبقات في المجتمعات الصناعية الغربية .

ولماذا تتبعنا العلاقة بين الخصوبة والمركز الاقتصادي في إنجلترا ، نجد أن هناك شواهد يقينية تدل على أن العلاقة العكسية بين الخصوبة والمركز الاجتماعي الاقتصادي ، أخذت تتطور تطوراً سريعاً في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، ولقد أمكن التمييز بين خمس طبقات عامة ، وثلاث طوائف مهنية خاصة ، وخصوبة كل طبقة محسوبة على أساس

(١) اشترك في جميع هذه المعلومات أمثبات الآتية :

متوسط عدد الأطفال المولودين - يعبر عنها كنسبة مئوية لعدد الأطفال في جميع الطبقات مع مراعاة تشابه تاريخ الزواج ، ولا شك أن عرض الموضوع على هذا النحو يخفي الحقيقة النابتة بأن الخصوبة في كل الطبقات آخذة في التناقص في هذه الفترة ، ومع هذا فإن التناقص كان أكثر سرعة في الطبقات العليا عنه في الطبقات الدنيا ، وأكثر سرعة في الطبقات الحضرية عنه في الجماعات الزراعية والجماعات التي تعمل في المزارع . ولا يمكن إنكار تأثير هذه الاتجاهات المختلفة على الخصوبة بالنسبة لكل طبقة . وبين النساء المتزوجات في الفترة من ١٨٥١ إلى ١٨٦١ كانت العلاقة عكسية بين الخصوبة وبين المركز الاجتماعي الإقتصادي ، إلا أن الاختلافات بين الطبقات كانت ضئيلة وتنبئ المعلومات أن هذه الاختلافات كانت أكثر ضآلة في الفترة السابقة على هذه الفترة . ومهما يكن من شأن هذه الاختلافات فإن الثابت أنها ازدادت بسرعة بعد عام ١٨٥١ ، فقد يزايد حجم الطبقات أكثر من مرتين ونصف بزيادة الزيجات المعقودة بين عامي ١٨٨٦ ، ١٨٩١ عنه وقت بدء التسجيل ومنذ ذلك التاريخ يحتمل أن تكون الاختلافات قد قلت ، إلا أن هذا الاستدلال أو الاستنتاج لن يكون جازماً لأنه يتعلق بنساء ذوات خصوبة مستمرة وقت إجراء التعداد .

ومن المحتمل أن نجد في القرن الحالى ما يعزز بقوة العلاقة العكسية بين الخصوبة والمركز الاجتماعي الإقتصادي في الولايات المتحدة ، فقد قام كايزر Kiser ^(١) بدراسة جماعات مختارة من السكان البيض الوطنيين في شمال شرق الولايات الوسطى ، فوجد أن انخفاض الخصوبة بوجه عام نجم عنه تزايد الاختلاف بين الطبقات الحضرية والطبقات الريفية وذلك في الفترة من ١٩٠٠ إلى ١٩١٠ .

Census of England and Wales 1911, Vol. XIII, Pt II, London : His Majesty's Stationery Office, 1923.

Clyde V. Kiser, "Trends in the Fertility of Social (١) Classes from 1910" Human Biology, Vol. 5 No. 2 (May 1933).

وقد كشف « أوجبرن Ogburn^(١) »، في دراسته لحجم الأسر في نفس الإقليم عن تزايد مماثل للاختلاف وذلك في الفترة ما بين ١٩٠٠، ١٩٣٠. ولقد وجد أن نقص حجم الأسرة في الجماعات الحضرية كان أكبر نسبة في طبقات أصحاب المهن الحرة وأقل نسبة بين العمال غير المهرة، بينما دل تغير حجم الأسرة في الجماعات الريفية على تغير بسيط في الخصوبة. وليس هناك دليل قاطع حول ما إذا كان الاتجاه العام يسر نحو الاختلاف المتزايد في خلال الفترة كلها أم لا. ولقد قدم هولبتون Whelpton بيانات تشير بوضوح إلى أن الاختلاف في خصوبة الجماعات الريفية والحضرية آخذة في الهبوط في العصر الحاضر. وقد يصدق هذا القول نفسه على الاختلافات بين الطبقات المختلفة في كل جماعة.

هذا، وبينما تأخذ الاختلافات في الخصوبة بين الطبقات الاجتماعية الاقتصادية في الهبوط بدرجة ما، تظل العلاقات العكسية ثابتة. ولقد أثبت عدد من الدراسات الحديثة صحة هذه الحقيقة، ليس فقط بالنسبة للبلد الواحد ككل، بل أيضاً بالنسبة للسكان جميعاً في مختلف المجتمعات، متدرجين من الريف الواسع والقرى الزراعية إلى المدن الكبيرة، وحتى بالنسبة للقطاعات الفقيرة من المدن الكبيرة، حيث يتوقع الإنسان أن يجد من العوامل القوية ما يحقق تجانساً كبيراً^(٢).

ولاشك أن تزايد اختلاف الخصوبة بين الطبقات قد ارتفع أساساً كنتيجة لانخفاض معدل المواليد، الذي كان سريعاً في الطبقات العليا أكثر منه في الطبقات الدنيا، وكان أسرع في الحضر منه في المجتمعات الريفية.

(١) William F. Ogburn and Clark "The Family and its Functions", Chap. 13, Recent Social Trends in the United States (New York and London; Mc Graw. Hill Book Co. 1933), Vol. 2, p. 686.

(٢) أنظر مثلاً من تلك الدراسات الحديثة.

Raymond Pearl, "Differential Fertility", The Quarterly Review of Biology, Vol. II No. 1 (Morch 1927), pp. 102-118.

W. F. Ogburn and Clark Tibbitts, "Birth Rates and Social Classes", Social Forces, Vol. 8 No. 9 (Sept 1929). pp. 1-10.

ولقد اتضح أن هذه التجمعات المختلفة قد نشأت أساساً بسبب الاختلاف في استعمال وفاعلية منع الحمل^(١) ، ويميل بعض الباحثين إلى إرجاع هذه العلاقة المتغيرة في مجموعها إلى التخلف في انتقال معرفة وسائل منع الحمل من طبقة لأخرى وإلى النظر إليها كعلاقة مؤقتة أكثر منها علاقة دائمة ، وأن هناك من الأدلة العقلية ما يحمل على الاعتقاد بأن الاختلافات بين الطبقات سوف تضيق ، بل ربما قد تنعكس إذا خضعت خصوبة جميع الطبقات لإشراف أكثر شمولاً ، فإذا ما وضعنا تخطيطاً ، للمواليد ، فإن عدد الأطفال سيكون متناسباً مع مقدرة الآباء على إعالتهم . ويشير أصحاب هذه الفكرة إلى أن هذا الأمر قد تحقق بالفعل في استوكهلم ، حيث أصبحت المعلومات الخاصة بمنع الحمل ميسرة منذ وقت طويل ، وحيث أصبح معدل المواليد الآن أقل كثيراً من المستوى المطلوب للإخلاف الدائم . كما يتضح ذلك من الجدول رقم ١ المبين فيما يلي^(٢) :

المجموع	الفنون والوظائف	التجارة	آخرون	العمال	الداخل
١١٠	١١٠	١١٠	١٤٠	١١١	أقل من ٤,٠٠٠
١١٢	١١٢	١١٥	١٢٠	١٠٩	٤,٠٠٠ — ٦,٠٠٠
١٢٥	١٢٧	١٣١	١٢٥	١٠٥	٦,٠٠٠ — ١٠,٠٠٠
١٥٤	١٥٤	١٥٤	١٥٢	—	١٠,٠٠٠ فأكثر
—	١٢٣	١٣٤	١٢٤	١١٠	المجموع
—	١٢٥	١٢٨	١٢٢	١٠٧	المجموع غير المعياري

جدول ١ — المادلات المقتنة لمصوالة أربع جماعات مهنية في استوكهلم من عام ١٩١٩ إلى ١٩٢٢ ، مع تقسيم فرعي لها طبقاً لدخل الطبقة .
(١) انظر مقال ريموند بيرل .

Raymond Pearl, The Annals, Nov. 1936-es
(٢) هذا الجدول مأخوذ عن كارل أرفيد أدن ، وإدوارد ب . في هتشنسون دراستها لاختلافات الخصوبة في السويد .

Karl Arvid Edin and Edward P. Hutchinson, Studies of Differential Fertility in Sweden. 116 Pp. (London : P. S. Kinn & Son Ltd 1935), p. 59.

والملومات والبيانات الواردة في الجدول خاصة بالتزوجين .

فقد وجد كل من أدین «Edin»، وهتشنسون Hutchinson أن المزوجين في الطبقات العليا في استوكهولم أكثر خصوبة من نظرائهم في الطبقات الدنيا. ويعتبر الدخل عاملاً أكثر أهمية من المهنة في تحديد هذه العلاقة ، فبين الجماعات المتساوية في الدخل ، تنعدم العلاقة بين الخصوبة والمهنة . ومن ناحية أخرى ، لوحظ في كل جماعة مهنية — باستثناء العمال الصناعيين أن الخصوبة تزداد بشدة كلما قل الدخل ، وقد وجدت بعض العلاقات العكسية المماثلة في قليل من المدن الأوروبية الأخرى وإن كانت العلاقة لا تبدوا بمثل هذه القوة وهذا الوضع .

وتفسر العلاقة العكسية المرجودة عادة بين الخصوبة والمركز الاجتماعي الاقتصادي ، على أنها تخلف في انتشار معرفة وسائل منع الحمل ، فهو زيادة في التبسيط لعلاقة سببية معقدة. ولا شك أن عامل منع الحمل هو أهم العوامل التي أمكن بواسطتها ضبط الخصوبة وتحديدتها ، إلا أنه يمكن إرجاع الاختلافات الأساسية في مدى انتشار وفاعلية سياسة منع الحمل إلى : الاختلافات في العادات الجمعية customs والعادات الفردية habits ، والاتجاهات والاهتمامات الناشئة من تعقد الاختلافات في بيئة الطبقات . ويجب أن نوجه النظر إلى هذه الاختلافات البيئية كأسباب أساسية لكثير من اختلافات الطبقات في الخصوبة ، وعوامل تغيرها ^(١) ويجدر بنا في هذا المجال أن نناقش باختصار بعض هذه العوامل البيئية .

عامل التربية

من المعروف المتواتر منذ مدة طويلة أن التعليم الواسع المدى ، والخصوبة المنخفضة ، يسيران جنباً إلى جنب ، وإن أي عدد من الدراسات يقارن فيها بين خصوبة خريجي الجامعات وخصوبة غيرهم من غير الخريجين ،

(١) وكما أن الاختلافات بين الأفراد ترجع إلى عدة عوامل تتضمن أيضاً الاختلافات التوالدية المتوارثة ، فكذلك الشأن بالنسبة للاختلافات بين الطبقات غير أن هذا الموضوع يخرج عن نطاق دراستنا الحالية ولذلك استبعدنا الحديث عنها .

أو أشخاص آخرين يشبهونهم بوجه عام في «طرق معيشتهم» ، ليشير إلى هذا الاتجاه نفسه ^(١) . وعلى أية حال فهذه الدراسات تشير إلى أن الخصوبة المنخفضة للجامعيين ، ترجع أساساً إلى قلة النسبة التي تزوج بينها ، وإلى سن الزواج المتأخر ، أكثر من كونها نتيجة ضعف خصوبة المتزوجين منهم . هذا وقد لاحظ العلامة نوتشتين Notestein .

١- أولاً : أن التحصيل الدراسي والخصوبة يرتبطان ارتباطاً عكسياً ، ليس فقط في العينة العامة لكل مجتمع ، بل أيضاً داخل الطبقات المهنية الواسعة نسبياً . فالإختلافات في الخصوبة بين خريجي الجامعات وخريجي المدارس العليا أقل نسبياً إذا ما نورنت بالإختلافات في الخصوبة بين خريجي المدارس العليا وخريجي المدارس العامة . ويبدو أن الحصول على قدر متوسط أو محدود من التعلم ، يكون مصحوباً بانخفاض كبير في الخصوبة .

٢- ثانياً : أن الارتباط العكسي بين الخصوبة والمركز المهني العام يصدق ، أو يظل قائماً ، حتى إذا كانت المقارنة مقصورة على جماعات تعليمية أو مستويات تربوية متشابهة .

٣- ثالثاً : يبدو أن الخصوبة في كل طبقة مهنية أو تربوية تعليمية ، تتأثر بالخصائص العامة للمجتمع أو البيئة الاجتماعية المحلية . فعدلات المواليد تبلغ أقصى علوها في الأحياء الفقيرة من المدن الكبرى ، ولكنها تنخفض باطراد في المدن السغرى مثل كولمبس وسيراكوز . وتصدق هذه العلاقة عندما تكون المقارنة مقصورة على جماعات مهنية وتعليمية متماثلة .

(١) انظر أمثلة على هذه الدراسات في البحوث الآتية :

Willystine Goodsell, "The Size of Families of College and College Women", The American Journal of Sociology, Vol. XLI, No. 5 March 1936.

May Roberts Smith "Statistics of College and Non-College Women," Quarterly Publications of the American Statistical Association Vol. 7 (1900) , pp 1 - 26.

٣ - عامل الدين :

وتقدم لنا بعض الدراسات الميدانية ، معلومات قيمة حول العلاقة بين الخصوبة والمذهب الدينى - الذى يعتنقه من أجريت بينهم تلك الدراسات فتجد مثلاً أن الكاثوليك أكثر خصوبة من البروتستانت ، ولو أن الاختلافات تكون أعظم بين عائلات أصحاب الأعمال منها بين العمال غير المهرة ؛ ففي هذه الطبقة الأخيرة تظل نسب العائلات الكبيرة كما هي . ومن الواضح بنفس الدرجة أن كلا من الجماعتين الدينتين تبدى خاصية الارتباط العكسى بين الخصوبة والمركز المهنى ، على الرغم من أن هذا الارتباط أقوى بين البروتستانت منه بين الكاثوليك ، وتتفق هذه النتائج في روحها العامة مع الدراسة التى أجريت على رواد عيادة تحديد النسل في مدينة نيويورك ^(١) . وتظهر هذه الدراسة أن - حتى بين الجماعة المختارة من بين الذين كانوا يترددون على العيادة ، كانت ممارستهم لمنع الحمل قبل زيارة العيادة ، أقل حدوثاً وأضعف فاعلية وتأثيراً عنها بين رواد العيادة من البروتستانت واليهود . ونحملنا هذه المعلومات على الاعتقاد اعتقاداً حازماً أولاً : بأن الخصوبة أقل انضباطاً بين الكاثوليك عنها بين البروتستانت وثانياً : بأن الخصوبة في كلا الجماعتين الدينتين تستجيب في نفس الاتجاه لبيئات متماثلة .

٣ - عامل مركز الدخل

وترتبط الخصوبة كذلك ارتباطاً عكسياً بمركز الدخل . ويصدق هذا على الخصوبة بين الأسر التى اختبرت من الأحياء الفقيرة في بعض المدن الكبرى

(١) Regine K. Stix and Frank Notestein, "Effectiveness of Birth Control", The Milbank Memorial Fund Quarterly Vol. VIII, No. 2 (April 1935) pp. 162-178.

وقد تبين بوضوح أن النساء في الأسر ذات الدخل الذي يقل عن ١٢٠٠ دولار في عام ١٩٢٩ أكثر خصوبة من نظيراتهن في الأسر التي دخلها ٢٠٠٠ دولار أو أكثر . ويوجد أيضا نفس النمط من العلاقة بالنسبة لطبقة أصحاب الأعمال ويجب أن نفطن إلى أن اختلاف خصوبة الفقراء والأغنياء لا يوضح بالضبط تأثير الدخل في حد ذاته على الخصوبة ، أكثر مما توضح اختلافات الخصوبة بين الجماعات التعليمية أثر التربية في حد ذاتها عليها . وإذا كنا عندما نتكلم بوجه عام نعتمد بالفقراء غير المتعلمين والمال اليدويين وخاصة فئة غير المهرة ، فإن تصنيفات الجماعات على أساس أية خاصية ستكشف عن علاقة مستويات الخصوبة بالعوامل الأخرى بل بعوامل أكثر من ذلك مما يساعد على تحديد العادات الجمعية والفردية والاتجاهات والإهتمامات للجماعات ذات المركز المنخفض أو الأدنى . وعلى هذا النحو تكون جميع الخواص متشابهة إلى درجة تجعل من المستحيل فصل بعضها عن البعض الآخر فصلاً تاماً .

ومن المهم بوجه خاص في تحديدنا لعلاقة الفقر بالخصوبة أن نفطن إلى الطبيعة المعقدة للخواص الطبقية ، وكثيراً جداً ما يفترض أن الخصوبة العالية للفقراء تشير إلى التأثير المباشر للفقر أو انعدام الدخل في تنشيط الخصوبة ، والشواهد هنا نافية تماماً . إذا يبدو أنه من الممكن أن يرتبط الفقر بالخصوبة من خلال طرق المعيشة التي هي في الوقت نفسه أسبابه ونتائجه . وإذا ما استقرت طرق المعيشة هذه فإنها تكون بطيئة التغير .

وعلى أساس هذه النظرة لواقع الأمر ، فإنه يكون من الصعب توقع أن يعمل الضغط الاقتصادي المتزايد كمشط مباشر للخصوبة .

الفصل السادس

النظريات الكمية للسكان

أولاً : — نظريات ترمى إلى زيادة عدد السكان Expansive Population doctrines ؛ وقد ظهرت الاتجاهات الرامية إلى زيادة عدد السكان منذ قديم الزمن ، وكما ساعد على ظهور مثل هذه الاتجاهات اعتبارات عديدة نجمل أهمها فيما يلي .

أولاً : — زيادة عدد السكان في الدولة يزيد من قوتها الحربية. فالرغبة في الفتح والتوسع وتشديد الامبراطوريات كان يتطلب ولا شك زياده متتابعة في عدد السكان حتى يتيسر للدولة حشد الجيوش وشن الحروب والغزوات . والتاريخ يحدثنا عن كثير من الملوك والاباطرة الذين لم يكن لهم من هم إلا أشغال نار الحروب وتسيير الجيوش ابتغاء للمجد وحبا في السيطرة .

ولكننا يجب ألا نغفل ناحية هامة في هذا الشأن ، ذلك أن الزيادة السكانية بقصد القوة الحربية الصرفة لا بد أو يكون له أخطر العواقب مالم تسيره تدابير اقتصادية معينة ، فالجيوش الكبيرة تتطلب نفقات مختلفة فضلا عن أن عدداً كبيراً من الأيدي العاملة المنتجة يكون معطلا بسبب تعبثهم في وقت الحروب أو الاستعداد لها . ولذلك فإن الدولة التي تجعل همها زيادة السكان بقصد القوة الحربية فقط دون مراعاة للاعتبارات الاقتصادية والاجتماعية الأخرى قد تجدد نفسها في وقت من الأوقات في مرفق حرج وقد يسبب لها ذلك انهياراً لم يكن بالحسبان . ولكن إذا كانت القوة العسكرية يتبعها غزو أراضي جديدة من الممكن أن تكون مجالا حيويًا لهجرة السكان في هذه الحالة قد يمكن تحقيق الموازنة

الاقتصادية . بين عدد السكان المتزايد وبين الموارد الغذائية والمادية التي تتحكم فيها الدولة .

وهناك مسألة أخرى قيمة بالاعتبار وهي أن انتقال المجتمع من شكل اجتماعي معين . إلى شكل اجتماعي آخر يمكن أن يحدث نوعاً من التقدم الاقتصادي الذي يسمح بنجاح سياسة الحكام العسكريين في سياساتهم السكانية التوسعية ، فانتقال المجتمع من مرحلة الرعي إلى دور الاستقرار والزراعة أو انتقاله من دور الزراعة إلى دور التجارة والصناعة يمكن أن يفسح المجال أمام السياسة التوسعية . ولذلك يذهب بعض العلماء إلى القول بأن الدولة أو الحاكم الذي يهدف إلى سياسة توسعية في سكانه يمكن أن يكون نجاحه مضموناً ومأمون العاقبة لو أنه أستطاع أن يطور - في نفس الوقت - مجتمعه إلى حالة اقتصادية أفضل من التي كان عليها قبلاً .

والدعوة إلى الزيادة السكانية بقصد العزة الحربية قديمة قدم التفسير الاجتماعي فقد تبناها أسيرطه ، ثم فلاسفة الرومان بعدهم ، كما تبناها نابليون بونابرت وموسيلني وهتلر في العصر الحديث . وقد اتخذت الدعوة النازية إلى زيادة عدد السكان شكلاً سياسياً وعسكرياً وانتولوجياً ، وقد حمل أودلف هتلر في كتابه « كفاحي » حملة شعواء على الذين كانوا يدعون إلى تحديد النسل في ألمانيا ويقول « إن طريقة الإنسان في تحديد النسل هي نقيض لأملوب الطبيعة ، فالطبيعة إذ تدع للبشر حرية التناسل تخضع سلااتهم لامتحان قاس ، وتختار أصلحهم للحياة فتحتفظ بهم وتكمل إليهم مهمة حفظ النوع ، وأما الإنسان فإنه يحد من نسله بوسائل الخاصة ولكنه يصبر على حفظ كل كائن بعد مولده سواء كان صالحاً للحياة أم لم يكن ، وبهذه الطريقة يمكن الحد من العدد ولكن قيمة الفرد تتضاءل كما تتضاءل جودة النوع . . . ليعلم أذن الذين يفكرون في حل مشكله تزايد السكان باللجوء إلى الطريق المتبعة في فرنسا (أي بتحديد النسل)

أن هذه الطريقة تعنى القضاء على مستقبل الشعب الألماني . .
فالنظرية النازية في زيادة السكان لم تكن تدعو إلى الزيادة المطلقة
لكل سكان العالم ولكن تؤيد الزيادة في سكان ألمانيا أو الجنس الجرمانى
فقط على أساس أنه الجنس الأمثل الذى تقع على عاتقه مهمة حمل مشعل
الحضارة . وهى فى هذه النقطة بالذات تختلف عن السياسات السكانية التوسعية
الأخرى وخاصة الاشتراكية .

ثانيا : — زيادة سكان الدولة تعتبر قوة تؤدي إلى احترامها في المحيط
الدولى وتؤدي إلى زيادة رفعتها وتبرير مطالبها بمجالات حيوية .
فإنجلترا مثلا بعد أن أخذت بآراء مالنس Malthus ردحا من الزمان
وجدت من عدد سكانها رجعت وأخذت بآراء العلامة هربرت سبنسر
H. Spenceer فعملت على الاكثار من النسل وإلى الاعتداء على غيرها ،
وأتخذت من الزيادة السكانية حجة للمطالبة بمجالات حيوية وقد تبعتها
في ذلك معظم الدول الأوروبية في أواخر القرن الماضى وأوائل هذا القرن
ومخاصة إيطاليا وألمانيا ، فقد أعتدت إيطاليا على ليبيا والحبشة وتغلغلت
فى تونس ، وأعتدت فرنسا على الجزائر وتونس والمغرب وأعتدت بلجيكا
على الكونغو . . . الخ ويقول هتلر فى كتابه « كفاحى » . .

على الألمان أن يعتنقوا وهم مرتاحو الضمير ، النظرية القائلة
أن إرادة الله مافضت ولا يمكن أن تقضى بأن يكون لشعب من الأرض
خمسون ضعف ما لشعب آخر ، وأنه إذ كانت الأرض التى عليها نعيش
قادرة فعلا على إعالة الجميع ، فليس من العدل أن يحال بيننا وبين إحراز المدى
الحيوى لنمونا وبقائنا . إن التسليم بحقنا فى التوسع لن يكون عفو الخاطر ،
فهنالك ما يبرر حق كل فرد فى الكفاح لتأمين ما يكفل له البقاء ، وما يعجز
اللين عن احرازه ، على القوة أن تناله . .

ثالثا : — زيادة عدد سكان الدولة زيادة لقوتها الاقتصادية ،

إذ أن كثرة القوى العاملة فيها سوف يزيد من قوة الانتاج ، وبينما يرى هذا الرأي فريق من العلماء يرى فريق آخر أن السكان وزيادتهم ليست هي سبب القوة الاقتصادية بل إن الزيادة السكانية هي التي تعتبر نتيجة للقوة الاقتصادية أو الرفاهية والتقدم الاقتصادي فالفرص الاقتصادية الجديدة في الدولة قد يكون لها من الآثار السكانية التوسعية ما يفوق غيرها من الأسباب . فالظروف الاقتصادية والتطور نفسه نقلت السكان في العصور القديمة من حياة الصيد إلى الرعي ، ثم استقرت بهم بعد ذلك في عهد الزراعة ثم تطورت بهم إلى عهد الصناعة والإنسان في هذه الحياة المتطورة يتقبل في سهولة ما تمليه عليه الظروف الاقتصادية ، وغنى عن البيان أن التحسن العظيم الذي طرأ على العالم في الناحية الاقتصادية بعد الثورة الصناعية والتقدم التكنولوجي في أواخر القرن الثامن عشر ، أدى إلى زيادة هائلة في سكان الدول الصناعية خلال تلك الفترة بشكل لم يسبق له مثيله في تاريخ الإنسانية .

غير أنه إذا كانت الزيادة السكانية نتيجة من نتائج التقدم والانتعاش الاقتصادي ، فإن ذلك يتنافى أو يتعارض مع رأى آخر يقول إن الإنسان عندما يرتفع في السلم الاقتصادي يكون لنفسه تقاليد وعادات معيشية جديدة تتلاءم مع التحسن المطرد في مستواه الاقتصادي وأن مستواه الاجتماعي حينئذ قد يحتم عليه أنه يحدد نسله أو يضبطه ، ولذلك قيل بحق أنه كلما ارتفع الإنسان في مستواه الاقتصادي أصبحت طرق تنظيم النسل حقيقة واقعة في حياته .

رابعاً : - الأديان السماوية تدعو في جهرها فليست لها إلى الزيادة السكانية ، فالأديان السماوية الثلاث الإسلام والمسيحية واليهودية تهدف لنمو التوسع السكاني أو هي على الأقل تمهد الأذهان وتوحي إليها بذلك ففي القرآن الكريم هناك الآية : « الخيال والبنون زينة الحياة الدنيا » (٧ السكان)

كما أنه أى الدين الإسلامى ينهى بطريقة أو بأخرى عن تحديد النسل من خلال معنى الآية الكريمة : « ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق ، نحن نرزقهم وإياكم » .

وقد زاد المسلمون زيادة كبيرة غذاة الرسالة المحمدية وخاصة بعد تغلغل قواعدها الأخلاقية فى نفوس عرب شبه الجزيرة وأقلاهم عن العادات المألوفة فى الجاهلية مثل وأد البنات infanticide وقتل الأولاد خشية الفقر ، وبما ساعد على النمو السكانى فى ذلك الوقت أيضاً استقرار الأسرة العربية بعد أن كفّل لها الإسلام والشرعة ذلك ، بما شرع من أحكام منظمة للزواج ، كما أن الفتوحات الإسلامية فى ذلك الوقت كان لها أثر لا يستهان به فى التشجيع على زيادة التناسل تمشياً مع الحديث الشريف : « تزوجوا اتناسلوا فإنى مباح بكم يوم القيامة » .

أما الآثار التوسعية للدين المسيحى فتظهر واضحة فى أوروبا فى العصور الوسطى خاصة عندما قويت شركة البابا ورجال الكنيسة فتقويت بذلك الناحية الدينية فى نفوس الشعوب ، وفرض على الناس التمسك بحرفية التعاليم المسيحية فى تحريم الاجهاض ومنعه منعاً باتاً .

خامساً : — زيادة عدد السكان يؤدى إلى سيادة ظاهرة تقسيم العمل Division of Labour وهذا يؤدى إلى التخصص Specialization وزيادة الإنتاج ، ومن الذين يقولون بهذا رأى العلامة الفرنسى « اميل دوركايم E. Durkheim فهو يقسم المجتمعات البشرية بصفة عامة إلى قسمين :

١ — مجتمعات محدودة النطاق قليلة السكان ساذجة بسيطة ، غير معقدة التركيب وغير مميزة الوظائف وغير خاضعة لمبدأ تقسيم العمل ومن ثم فليس للتخصص وجود . وذلك مثل الترابطات أو الإجتاعات الإنسانية الأولى التى لا نجد فيها تمييزاً بين الوظائف ، فليس ثمة هيئة خاصة تقوم بشئون

الاقتصاد أو بالتشريع وما إلى ذلك من مستلزمات الحياة الاجتماعية ،
وتقوم الوحدة أو الترابط أو التضامن في مثل هذه المجتمعات المحدودة
السكان على أساس ميكانيكي آلي ، أى على أساس التشابه في الوظائف
والواجبات وهذا هو ما يقصد إليه دوركيم *Solidarité Mechanique* .

٣ — أما حين يتزايد عدد السكان فإننا نكون بإزاء مجتمعات واسعة
النطاق معقدة التركيب ومميزة الوظائف وتخضع لمبدأ توزيع العمل والتخصص ،
ففي هذه المجتمعات تستقل الهيئات والطوائف وتتوزع الأعمال وتنوع
الوظائف ، ويتعين على كل فرد عمل يؤديه ، ويصبح أداة من أدوات الإنتاج ،
وترس صغير في جهاز المجتمع الضخم الذي يسير بانتظام ، وعنصراً
من العناصر الاجتماعية الإيجابية ، ولا يبنى الفرد والتخصص .
في هذه المجتمعات سيادة الأنانية أو التفرد والتفرق ، بل على العكس
فإن المجتمع يظل محافظاً بوحدة وتضامنه وإن كان الأساس في الوحدة
والتضامن في هذا النوع من المجتمعات غير الأساس في المجتمعات المحدودة
السكان ، التضامن هنا يقوم على أساس عضوى فزيولوجى وهذا هو ما يقصد
إليه دوركيم بقوله أن المجتمعات الحديثة المعقدة الكثيرة السكان
تقوم على أساس تضامن عضوى *So lidarité Organique* .

ولا يخفى أن زيادة عدد السكان مع سيادة المبادئ المشار إليها يؤدي
إلى المنافسة بين الأفراد ، ويدفعها إلى الابتكار وإلى خلق معنى الذائبة
الاجتماعية في نفوس الأفراد .

غير أننا لابد وأن نشير إلى خطورة الايديولوجيات السكانية
التي تقوم على أساس الدوافع العدوانية ، بحجة العنصرية أو تجاهل
المصالح الحيوية للشعوب الأخرى .

E. Durkheim : Les Regles de la Methode Sociologique
Paris 1927.

الدكتور عبد العزيز عزت رأى في طبيعة المجتمع البشرى القاهرة ١٩٥٦ .

ويذهب العلاقة الفرنسي سوقي Sauvy إلى أن العوامل السكانية كانت من أسباب قيام الحرب العالمية الثانية فيقول : « إن المعاهدات الدولية التي أبرمت بعيد الحرب العالمية الأولى لم يكن يمكن أن يكتب لها البقاء لأنها أهملت قضايا السكان ، فهي مثلا لم تعالج مشكلة الهجرة ؛ وليس من السهل أيضا الأزمات الاقتصادية والحرب العالمية الثانية دون الإلتفات إلى نتائج إيقاف الهجرة إلى بلاد العالم الجديد وخاصة الولايات المتحدة الأمريكية .

والباحث الاجتماعي يمكن أن يلقى الضوء على العلاقة الوثيقة التي تربط مشكلة السكان . فالحرب — في رأى عدد من علماء السكان — تعتبر إحدى النتائج الخطيرة للضغط السكاني ، فالإنسان وهو يزداد تباعاً في العدد وتضييق به سبل المعيشة داخل حدود دوله ، قد يفكر في اغتصاب موارد دولة أخرى ، ومن مؤيدي هذا الرأي A. Ross, H. Co. X وهو الرأي ولا شك ينطوي على بعض المغالاة فالحرب ظاهرة اجتماعية معقدة وشأنها شأن بقية الظواهر الاجتماعية ترجع إلى أسباب كثيرة تتفاعل فيها السياسة والإقتصاد والإجتماع والتاريخ ، وبما يوضح مغالاة هذا الرأي أن الهند والصين ودول آسيا عموماً وخاصة تلك التي يشتد فيها الضغط السكاني لم تثر حرباً شعواء ضد دول أخرى ، بل أن كلا من الهند والصين قد استعمرتا مرة طويلة ، بل إن التاريخ يشهد على أن الدول الغربية هي التي كانت تثير الحروب من وقت لآخر ، وأن كل ماشهه آسيا

راجع :

(1) Adolphe Landry : Traité de demographie, Paris, 1949.

Alfred Sauvy : La population, Paris, 1948. P. 5-6

(2) Foundations of Modern world Society, 1948 London by Linden A. Mander.

من حروب في هذا القرن كان بسبب الدول الغربية ، وذلك أن الحربين
المحليتين اللتين نشبتا في كوريا سنة ١٩٥٠ وفي الهند الصينية سنة ١٩٥٣
كانتا ترجعان إلى أسباب مذهبية أكثر منها سكانية .

ومع ذلك فلا يمكن أن نفكر أن الضغط السكاني مع وجود ثقافة
معينة تؤيد مبدأ الحرب كحل للمشاكل الدولية قد يتولد عند انفجار
في الرأي العام المحلي يؤدي إلى الحرب فعلاً . واليابان تنهض دليلاً على صحة
هذا الرأي ، فهي دولة مكتظة بالسكان وفي نفس الوقت قد شعرت
شعوراً قوياً بوطأة الإزدحام السكاني ، ولم تجد وسيلة أفضل من الفتح
والحرب لحل مشكلاتها السكانية ، فليجأت إليها وأعلنت الحرب على الصين
سنة ١٩٣٥ وغزت منشوريا كما أعلنتها على الولايات المتحدة بهجومها
المسلح على « بيرل هاربر » سنة ١٩٤١ ، ونفس الشيء يقال عن غزو إيطاليا
للبييا والحبشة : وهذه النظرية تصدق أيضاً على كثير من الأحداث التاريخية .
فعظمة الأغريق القدماء لا يمكن تحليلها إلا في ضوء عدة اعتبارات
من بينها الخصوبة العديدة ، فقد ساعدتهم الكثرة العددية في بناء امبراطورية
ضخمة في سواحل البحر الأبيض المتوسط ، وكذلك أهل فينيقيا
الذين لم يجدوا مجالاً حيواً لاعدادهم المتزايدة في سهولهم الضيقة المحصورة
بين جبال لبنان والبحر .

وعندما بدأ الهرم يدب في أوصال دولة الأغريق كانت دولة الرومان
الفتية في أوج شبابها غنية برجالها فدان لهم العالم القديم إلى أن طرأ عليهم
ما طرأ على اليونان فقل نسلهم وعجزوا عن تعويض قتلاهم في الحروب
الطاحنة التي خاضوا غمارها فيما بعد .

والعرب في جاهليتهم الأولى كانوا يتسكثرون بسرعة أو يذهب
بعض المفكرين إلى القول بأن وأد البنات أو قتل الأطفال كان وسيلة
هدهم إليها الطبيعة وصقلتها التقاليد ورسبتها في نفوسهم كل يوازنون

به بين أعدادهم وواردهم الاقتصادية المحدودة ، فلما جاء الإسلام ونهاهم القرآن عن هذه العادة البربرية محرماً إزهاق النفس البشرية إلا بالحق ونهاها عن قتل الأبناء خشية الاملاق ، تزايد السكان بسرعة ، وقد تفاعلت هذه الزيادة مع عوامل أخرى روحية ودينية ونفسية جعلت المسلمين يجدون في الفتوحات الخارجية مجالاً لفيض حيويتهم ومتسعاً لاستيعاب فنتاج خصوصيتهم ، وحينما استناموا إلى الترف والدعة دب الوهن في أوصال امبراطوريتهم فنقص عددهم وقعدت أعمارهم وضاعت شوكتهم .

وما يقال عن الاغريق والرومان والعرب يمكن أن يقال عن التتار والمغول والأتراك وقبائل الهون التي دهمت أوروبا في مطلع التاريخ الوسيط . كذلك يرجع بعض المؤرخين قوة فرنسا العسكرية من القرن السابع عشر إلى الغزارة السكانية للشعب الفرنسي في ذلك الوقت ، وهذا هو الواقع الآن بالنسبة للولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفيتي واليابان قبل انهيارها والصين بعد ثورتها الاشتراكية فهذه الشواهد كلها ظواهر حيوية تبين أثر التفوق العددي السكاني في قوة الأمة وبالعكس فإن تدهور فرنسا السياسي والاقتصادي في الوقت الحاضر مرتبط بأوثق الارتباط بتناقص سكانها .

وحين يعطى العلماء للوفرة العددية في السكان هذه الأهمية في نهضات الأمم ، فإننا لانهمل عوامل أخرى مهمة كالخبرة والثقافة والموارد الطبيعية ، ولكن هذه العوامل تعطى خيراً أكثر إذا كانت مقرونة بالكثرة العددية .

ثاني - نظريات تنادى بالحد من الزيادة السكانية :

Restrictive Population Doctrines :

وقد ظهرت هذه النظريات منذ برزت أمام المفكرين المشكلة الإنسانية العتيقة وهي كيفية ملائمة أعداد الناس مع البيئة التي تعيش فيها ، فموارد

الطبيعة مهما تعددت وتنوعت لا يمكن أن تفي برغبات الإنسان وتشبع مطالبه المتزايدة في الحياة . وكلما تزايدت أعداد الناس في المجتمع الواحد كلما اتخذ تفكير الناس طابعاً عميقاً في كيفية استغلال كل مظهر من مظاهر الطبيعة المحيطة به استغلالاً اقتصادياً مفيداً ، ومن هنا جاء القول بأن هناك ثمة علاقة بين عدد السكان من جهة والموارد الاقتصادية من جهة أخرى وأن هذه العلاقة النسبية هي الأساس الأول في المشكلة السكانية منذ أقدم العصور إلى وقتنا هذا .

ولقد كانت سياسة منع السكان من التزايد السريع من السياسات البارزة منذ أقدم العصور ، وإن كان الأمر في الأخذ بهذه السياسات لم يكن سافراً أو مباشراً بل كان يجد في أكثر الأحيان مبررات اجتماعية عديدة بعيدة في الظاهر عن جوهر المشكلة . ويرى عدد كبير من علماء السكان أن الإنسان قد اتبع منذ القدم وسائل عديدة يتحایل بها على الحد من الزيادة السكانية ، أهم هذه الوسائل هي :

١ - وأد الأولاد Infanticide : أى قتل الأطفال بعد ولادتهم مباشرة ، وقد سادت هذه العادة بشكل واضح في العصور القديمة ، ولا تزال روايتها موجودة في بعض الجماعات المتخلفة في أفريقيا وآسيا وأستراليا . ويؤكد بعض المفكرين الاجتماعيين وعلماء الأنثروبولوجيا أن أكثر شعوب العالم القديم ومنها الشعب اليوناني والروماني وعرب الجاهلية وباقي شعوب البحر الأبيض المتوسط قد أخذت بهذه العادة بطريقة أو بأخرى . ويعزو بعض الاقتصاديين هذه العادة إلى أسباب اقتصادية محضة ، وهي الموازنة بين عدد السكان وبين مصادر الثروة المحدودة ، وهم يرفضون مثلاً الرأي القائل بأن عرب الجاهلية كانوا يقتلون بناتهم دفاعاً عن الشرف وخوفاً من تعرضهم للعار في المستقبل .

ولا شك أن ظاهرة وأد الأولاد أخذت في التلاشي من تلقاء نفسها

كنتيجة للتطور الفكري والعقلي والتقدم الحضارى ونزول الرسالات السماوية التى حذرت هذه العادة الرميمة ، واعتبرتها عادة بربرية يجب أن يأنف الإنسان منها وبعد اكتشاف العقاقير الطبية التى يمكن أن تمنع النسل منذ البداية وإن كان العلامة « تومبسون Thompson ^(١) » يؤكد أن هذه العادة ما زالت مجردة فى بعض جهات الهند والصين وخاصة التبت وكذلك فى بعض أقاليم الصين الثانية ، ومع ذلك فمن المستبعد أن يكون لوأد الأولاد وجرد فى الصين اليوم ذلك أن السياسة الاشتراكية ضد تحديد النسل على طول الخط .

٢ - الإجهاض Abortion . وهى وسيلة من وسائل التخفيف من الزايد السكانى ، ويرجع تاريخ استخدامها إلى آلاف السنين وهى وسيلة لا تختلف فى طبيعتها عن الوسيلة السابقة ، وإن كان الإجهاض لم يقاوم بنفس العنف الذى قومت به عادة قتل الأولاد ، ولذلك استمر الإنسان يمارس هذه العادة حتى اليوم فى كثير من جهات العالم ، ويتم الإجهاض عادة فى سرية تامة فأغلب القوانين الوضعية أصبحت تحرم هذه العادة وأصبحت تعاقب من ثبت لجوءه إليها .

٣ - قتل المسنين والشيخوخ والمرضى . وقد كان لهذه الوسيلة أثر كبير فى الحد من تزايد السكان . فقد كانت بعض الأشكال الاجتماعية وخاصة القبائل والبطون والعشائر تلجأ إلى هذه الوسيلة فى حالات القحط الشديد أو حالات الانتقال بسبب الغزو أو الحرب .

٤ - الحروب . كانت الحروب ولا تزال وسيلة من أهم وسائل الحد من الزيادة السكانية فى العالم ، وقد كانت الحرب سمة من السمات التى تميزت بها المجتمعات التاريخية والمجتمعات المتمدينة إلى وقتنا هذا ، ويمكن الأثر الفعال لهذه الوسيلة فى أنها لا تحد من السكان فحسب بل وتمنع تزايدهم

(1) Thompson : Population Problems

فى المدة التى تلى الحرب ، ذلك لأن القتال والمعارك تبنى فى الغالب ثمرات الشباب فى أى دولة ، وبذلك يحتل التوازن فى فئات السكان ، فنجد المجتمع بعد الحرب ممثلا من أغلبية فى سن الشيخوخة وأغلبية فى سن الطفولة وأقلية نسبية فى الشباب الذين هم فى سن الأخصاب الطبيعى .

٥ — الهجرة . وكانت الهجرة وسيلة جماعية للحد من زيادة السكان فى أى إقليم ولا تزال هذه الوسيلة متبعة إلى الآن ، وهى إحدى الوسائل السلمية المشروعة فى مواجهة التزايد السكانى . والتاريخ زاخر بأنواع عديدة من الهجرات والتى كان لبعضها آثار بعيدة المدى فى تاريخ الإنسانية . وستتكمم عن الهجرة بالتفصيل فى موضع قادم من هذا الكتاب .

٦ — ومن الوسائل التى لجأ إليها الناس للاقلال من عدد السكان وسيلة العزل Isolation ، والعزل عبارة عن إبعاد الزوجين وانفصالها الجسدى والمعيشة لفترة من الزمن ، وقد وجدت هذه العادة فى كثير من الشعوب القديمة ، ولا تزال موجودة فى بعض القبائل المتخلفة فى الحضارة والمعاصرة حاليا فى جهات متعددة من أفريقيا وآسيا ، و « العزل » فى هذه الجماعات يعتبر من التقاليد الاجتماعية التى لها صفة القداسة والإلزام والتى يتعرض مخالفتها لأشد أنواع العقاب الجمعى المادى والمعنوى ، ويدخل بعض المفكرين فى عداد العزل ذلك التقليد القديم الذى كان يحرم الزواج على الأرملة التى مات عنها زوجها ، هذا وللفقهاء العرب والمسلمين خاصة فهما خاصا لطريقة « العزل » باعتباره وسيلة لمنع الانسال وبالتالى عامل من عوامل تحديد النسل (١) .

(١) راجع ماورد بهذا الصدد فى كتاب الدكتور عبد العزيز عزت « الاتحاد والنظام والعمل »

القاهرة ١٩٥٣ ص ١٠٢

وقد اعتمد على أقوال السمرفندى فى بستان العارفين ص ١٤٦ - ١٤٧

وكتاب نيل الأوطار للشوكانى ج ٦ ص ١٩٥

وابن سينا القانون طبعة مصر من ٥٧٩

وقد سادت الآراء والنظريات التي تنادى بوجوب وضع حد للتزايد المستمر في سكان العالم ، منذ أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر ، وما زال فريق كبير من علماء السكان الاجتماعيين والاقتصاديين يحملون لواء هذه الدعوة في ضوء الاعتبارات الآتية :

١ - أن تزايد عدد السكان يؤدي غالباً إلى انخفاض مستوى المعيشة في البلاد ذات الموارد المحدودة ، والكفاية الإنتاجية المتخلفة .

٢ - أن تزايد عدد السكان يؤدي إلى انخفاض المستوى الصحي وانتشار الأمراض والأوبئة فتكثُر السكان ، خاصة إذا لم تسير هذه الزيادة رعاية صحية للطفولة وسياسة إسكانية سليمة ، يؤثر على مستواهم الصحي .

٣ - أن تزايد السكان قد يؤدي إلى الحروب ، أو الاستعمار ، خصوصاً إذا ما ضاقت موارد الدولة عن حالة سكانها ، فإنها تتطلع إلى فتح أسواق جديدة أو البحث عن موارد جديدة ، على نحو ما رأينا من السياسة النازية في دعواها إلى إيجاد ما أسمته بالمجال الحيوي لألمانيا .

٤ - أن تزايد السكان مع قلة الموارد الغذائية وضعف الكفاية الإنتاجية ، قد يؤدي إلى انتشار المجاعات ، وغرس المبادئ المتطرفة والفوضى الاجتماعية .

ولعل أهم النظريات التي ذاعت عن تنادى بتحديد النسل هي نظرية مالتس Malthus ، وقد رأينا أن تفرد لعلاجها المبحث التالي .

الفصل التاسع

نظرية مالتس

• توماس روبرت مالتس T. R. Malthus مفكر إنجليزي زائع الصيت ولد سنة ١٧٦٦ في أسرة غنية ونشأ نشأة دينية حيث تعلم اللاهوت في جامعة كامبردج . ثم أصبح قسيساً في سنة ١٨٠٠ واشتغل في نفس الوقت مدرساً للدين في الجامعة التي تعلم فيها من قبل .

وقد أظهر مالتس منذ حداثة ميله قوياً إلى التفكير النظري ودراسة المسائل السياسية والإقتصادية والاجتماعية وكتب في كثير من هذه المسائل كتاباً لفتت إليه الأنظار خاصة وأن هذا المفكر الشاب كان يطالع بي قومه بين الحين والحين بآراء جريئة لم يتعود عليها الشعب الانجليزي ذو الطبيعة التقليدية المحافظة من ذلك أنه هاجم رئيس وزراء بلاده ولیم بث W. Pitt « On the Proposed Bill of the Amendment of the poor laws »

غير أن الشيء الذي لفت الأنظار إلى مالتس هو ذلك البحث المشهور الذي ألقى فيه الضوء لأول مرة على مشكلة السكان بصورة منظمة ، وفي إطار علمي تحليلي جعل من مالتس مفكراً أصيلاً ، فقد اعتبر - بحق - منذ ذلك التاريخ - وبصرف النظر عن آرائه ونظرياته - أول من أرسى دعائم علم السكان أو الديمغرافيا وجعله علماً مستقلاً يعتمد على المناهج العلمية وخاصة الإحصائية . ويدخل ضمن مجموعة العلوم الاجتماعية .

وقد ظهر بحث مالتس في كتيب صغير لأول مرة في سنة ١٧٩٨ ولم يذكر مالتس عليه اسمه كعوايف له ، وكان عنوان الرسالة هو : « بحث في أصول مشكلة السكان بوصفها تؤثر في مستقبل الرفاهية في المجتمع مع ملاحظات على آراء جردوين وكندرسية وغيرها من الكتاب . »

وتتضمن هذه الرسالة أسس نظرية مالتس في السكان كما تتضمن هجومها
لاذعاً على آراء المفكر الاشتراكي جدوين الذي كان ينحرف في علاجه
للمشكلات الاجتماعية بتوجيه النقد للمؤسسات الاجتماعية الكائنة ويحملها
تبعاً ما يعانیه المجتمع من أمراض وآلام ، وكانت آراء جدوين هذه تلبى
ذيوها وانتشاراً كبيرين وخاصة لأنها ظهرت في فترة الإنقلاب الصناعي
وما عاصره من مشكلات إجتماعية عديدة وخاصة في المدن نتيجة الهجرة
المستمرة إليها من الريف وتكدسهم حول مراكز التصنيع مع قلة أجورهم ،
وكان جدوين ينظر إلى المستقبل نظرة المتفائل في مستقبل البشرية إذ أن
التقدم التكنولوجي - في نظره - كان حرياً بأن يوفر من فرص الرقي
والازدهار الشيء الكثير للناس في المجتمع إذا قاومت المؤسسات الإنسانية
Human Institution بدورها خيراً قيام . وقد أستهل مالتس رسالته
بتوجيه الهجوم على آراء جدوين هذه إذا أنه يرى أن مصدر الشرور
الإنسانية والمشكلات الاجتماعية هو الإنسان نفسه وليس المؤسسات
والنظم التي تسود المجتمع ، فالعيب إذن - في نظر مالتس - لا يرجع
إلى نظم بقدر ما يكمن في الطبيعة البشرية ذاتها ، وأنه لكي يتم إصلاح المجتمع
وشقائه من أمراضه وما يقاسيه من آلام لا بد أن يبدأ الأفراد بإصلاح
ذوات نفوسهم ، ولعل أول عيوب الإنسان في رأى مالتس هو التوالد
السريع المتواصل الذي لا يتناسب مع مواد الغذاء أو مواد العيش الممكن
الحصول عليها وأنه من هنا نشأت طائفة من المتاعب الاجتماعية كالفاقة
والبؤس والشقاء والحروب والمجاعات . . . إلخ .

• An essay on the principle of population as it affects the
future improvement of Society, with remarks on the speculation
of Mr. Godwin, Mr. Condercet and other writers •

المبادئ الرئيسية في النظرية المالتسية :

تقوم نظرية مالتس على عدة مبادئ تحدد نظرية العامة في السكان ،
ولعل أهم هذه المبادئ :

١ — إن السكان يتحد دون تبعاً لكمية الموارد أو مواد التغذية
أى أن هناك تناسباً طردياً بين الموارد الغذائية والأعداد السكانية ،
ويعبر مالتس عن هذا المبدأ بقوله :

« Population is necessarily limited by means of
Subsistence »

٢ — يزداد عدد السكان أزدیاداً مضطرباً تبعاً للزيادة المضطربة
في مواد التغذية أو موارد العیش ، ما لم توقف هذه الزيادة موانع قوية
لا سبيل لشجها ، يقول مالتس :

٣ — إن تلك الموانع وغيرها من الموانع التي تحد من الزيادة المتواصلة
للسكان ، والتي تجعل السكان في مستوى يلأم للموارد المعيشية تتلخص
عموماً في الموانع الأخلاقية وكذا الرديلة والبؤس أو الفاقة .

٤ — وهناك اعتبار يضيفه مالتس إلى هذه المبادئ وهو أن قدرة الإنسان
على التناسل أكبر من قدرة الأرض أو مصادر الطبيعة عموماً على إنتاج
ما يتطلبه البقاء الإنساني من غذاء ، وعلى هذا الأساس خلص مالتس
إلى أن سكان العالم بوجه عام يطردون في الزيادة على أساس متوالية
هندسية geometrical progression بينما تطرد الزيادة في الموارد
الغذائية على أساس متوالية عددية أو حسابية arithmetical
progression ، ويرى مالتس أن العلة الحقيقية للمقلب الاجتماعي
هي عدم التناسب بين العدد الذي يزداد به السكان والعدد الذي تزداد به
الموارد الغذائية في العالم ، إذ يتضاعف عدد السكان في كل جيل

أى كل ٢٥ سنة إذا لم يعقهم عائق قوى ، بينما لا نجد هذا التضاعف موجوداً في مواد الغذاء ، فإذا بدأنا مثلاً بعدد سكان مقداره مليون نسمة فإنه بعد ٢٥ سنة يصبح العدد ٢ مليون نسمة وبعد ٢٥ سنة أخرى يصير العدد ٤ مليون ثم ٨ ثم ١٦ ثم ٣٢ مليون نسمة . . . وهكذا بينما تتدرج زيادة الموارد الغذائية في متوالية حسابية أى من ١ - ٢ - ٣ - ٤ ، ولزيادة الأيضاح نقارن بين المتواليتين فيما يلى :

المتوالية الهندسية ١ ٢ ٤ ٨ ١٦ ٣٢ ٦٤ ١٢٨

المتوالية الحسابية ١ ٢ ٣ ٤ ٥ ٦ ٧ ٨

أى أنه بعد سبعة أجيال (الجيل ٢٥ سنة) ستكون نسبة الغذاء إلى عدد السكان كنسبة ٨ : ١٢٨ .

ويرى مالتس كما سبق أن أشرنا أن المتوالية الهندسية هى التى تعكس فاعلية قانون القوة التناسلية عند الإنسان ، بينما المتوالية الحسابية تعكس مدى قدرة الإنسان والطبيعة على انتاج القوت أو مواد الغذاء ، ويقرر مالتس فى رسالته أنه لا يخترع هذا الكلام مع عنده بل إنه من واقع الاحصائيات الثابتة التى أجريت لأن كان فى زمانه . خاصة فى بلاده (إنجلترا) وكذلك فى الولايات المتحدة الأمريكية وفرنسا وغيرها من البلاد الأوربية . ودليله بصدده ، القانون الثانى الخاص بالغذاء هو أن الأرض الزراعية محدودة وإنتاجها يخضع خضوعاً تاماً لقانون أفعلة المتناقصة (يتلخص هذا القانون فى أن لكل مساحة من الأرض الزراعية حداً يبلغ عنده الاننتاج حده الأمثل أو الأقصى بالنسبة لما يستخدم فيها من العمل ورأس المال بحيث لو زيد مقدار المستخدم منهما عن هذا الحد لأخذ الاننتاج الذى تغله الأرض فى التناقص التدريجى أو النسبى ، وذلك لأن الانتاج الزراعى عندما يصل إلى أقصى حد يكون

من غير المفيد زيادة رأس المال أو الأيدي العاملة لأن الأراضي ان تغطي أكثر من ذلك ، ولن تقابل الإنتاج على الوحدات التي استخدمت سواء من رأس المال أو العمل أى زيادة مماثلة في الإنتاج ، وبتقسيم الإنتاج على الوحدات التي استخدمت سواء من رأس المال أو العمل نجد أن نصيب كل وحدة قد تناقص .

ولكن نظرية هذا شأنها لا يمكن من الناحية المنطقية أن تصدق أو تعقل إذ أنه طبقاً لهذه النظرية لا يمكن أن يعيش السكان إلا إذا توفر القوت الكافي . وعدم توفره يعني انعدام الحياة ، ولو أن مبدأي الزيادة الهندسية والحسابية يمارسان عملهما منذ بدء الحياة لكان معنى هذا أنه كان يجب أن تفنى البشرية منذ زمن بعيد ، ذلك أنه بعد ثلاثة قرون من البدء بأى نقطة تكون النسبة بين عدد السكان وكمية الغذاء كنسبة ٤٠٩٦ : ١٣ وهذا موقف رهيب لا يمكن تصوره بسهولة ، ولذلك يبادر مالتس إلى القول بأن مثل هذا الموقف الرهيب فعلاً هو الذي ينطوي على مآسى البشرية وشقاءها ، وأن السكان لم يصلوا في وقت ما إلى النسبة المتقدمة الذكر لسبب واحد هو علو نسب الوفيات وأنه لولا علو هذه النسب لوصل السكان فعلاً إلى هذه الأعداد الخيالية وأن الطبيعة العائلة كان لابد أن تضع من الموانع ما يجنب الإنسان مصيراً قاتماً ، ويرى مالتس أن هناك نوعين من الموانع يساعدان على الحد من الزيادة السكانية ، وينصح هو باتباع النوع الأول وهو الموانع الأخلاقية Moral restraints وهي موانع وقائية يحورها تعقل الإنسان وتبصره وبعد نظره مثل العفة أو الرهينة والزهد أو تأخير سن الزواج . ولكن مالتس يرى أن هذا النوع من الموانع لا يكفي وحده لموازنة أعداد السكان بموارد الغذاء وذلك لسبب واحد وهو أنه جميع الأفراد لا يملكون نظراً ثافياً أو بصيرة تنمادة ، ولا تتوفر لدى الجميع قوة العزيمة أو القدرة على كبح جماح الشهوات ، ومن ثم كان لابد من موانع أخرى تفرضها الطبيعة

فرضا على بني الإنسان مثل العمل في المهن غير الصحية والفقر المدقع والأمراض والأوبئة والتجحر والمجاعات والحروب الطاحنة التي شهدتها البشرية وما زالت تشهدها وستظل تشهدها ما لم يضع الإنسان حدا لشروده بنفسه ، وإلى هذه الموانع القسرية التي تفرضها الطبيعة يرجع الفضل في موازنة أعداد السكان بموارد العيش المحدود في العالم .

ومن هذا التسلسل المنطقي يصل مالتس إلى خلاصة مؤداها — وهو في ذلك يهدم آراء جدوين — أن الإنسانية لا يمكن أن تصل إلى سلام مستقر أو سعادة أو ازدهار ما لم يغير الإنسان من طبيعته العاشية ويعمل عقله ويكبح جماح نزواته وشهواته ، وأن النظم الاجتماعية أو المؤسسات الإنسانية لا مسئولية عاها البتة فيما أل إليه أمر الناس من بؤس وشقاء فالمسئولية كلها تقع على عاتق الإنسان ، وأن القضاء على المشكلات الاجتماعية رهن بتحسين ذاتية الفرد ، فנקطة الانطلاق في أى إصلاح إجتماعى شامل لابد أن تكون من داخلية نفس الأفراد ومن عقولهم لا من نظم أو مؤسسات خارجية .

وقد آثرت هذه الآراء موجة قائمة من التشاؤم حتى لقب مالتس بزعم ملتشائمين، ووصفت نظريته بأنها «عبقريّة سوداء» تخنق كل أمل للجنس البشرى . وقد طبع كتاب مالتس طبعه ثانية في سنة ١٨٠٣ وذكر اسمه عليه في هذه المرة كمؤلف له ، وفي هذه الطبعة أظهر مالتس شيئا غير قليل من الحكمة وأدخل عليه بعض التعديلات التي خففت من حدة تشاؤمه وقد وجه الأنظار بصفة خاصة إلى أن ارتفاع مستوى المعيشة يعتبر أحد العوامل الهامة التي تساعد على الحد من الزيادة السكانية إذ يلاحظ أن الأغنياء أو أفراد الطبقة العليا في المجتمع أقل تناسلا وتزايداً من أفراد الطبقة الفقيرة ، وأن تحسن المستويات واتساع نطاق الطبقة الأولى في المستقبل قد يكون له بعض الأثر في الحد من زيادة السكان

غير أنه يجب أن نشير إلى أن مالتس لم يتكلم - كما أعتقد البعض - في مسألة منع النسل أو منع الحمل أثناء الحياة الزوجية كما أنه لم ينصح أبداً باتباع طريقة الاجهاض في الحد من زيادة السكان ، - وقد يكون ذلك راجعاً إلى كونه من رجال الدين - وكل ما نصح به ذلك المفكر هو الأعراض عن الزواج كاية أو على الأقل تأخير سن الزواج إذا كان دخل الفرد غير كاف للإنفاق على أسرة وأولاد .

نقد آراء مالتس :

لقد كانت آراء مالتس ، - شأنها شأن كل آراء تناول مشكلات الناس في المجتمع - أنعكاساً لطبيعة الظروف الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التي أحاطت بالمجتمع الانجليزي في عهده ، ولذلك فالبرغم مما تتطوى عليه نظرية مالتس من مجانبة للصواب في كثير من أجزائها ألا أنها على العموم تعكس لنا مجموعة متشابهة من المشكلات الاجتماعية التي سادت في ذلك الحين ، وتعكس لنا من ناحية أخرى طريقتين أو زاويتين ننظر من خلالها على هذه المشاكل . الزاوية الأولى هي الزاوية التي ننظر من خلالها المفكر الاشتراكي جدوين ، والزاوية الثانية هي التي ننظر من خلالها المفكر المحافظ مالتس

لقد شهد الربع الأخير من القرن الثامن عشر والربع الأول من القرن التالي عدة ظواهر كان لها أكبر الأثر في بروز عدد من المشكلات الاجتماعية ، مما يجزم بعض النقاد بأنها من العوامل التي طبعت تفكير مالتس بالصورة التي جاءت عليها نظريته ، فقد شهدت إنجلترا في تلك السنين علوا متزايداً في معدلات المواليد بسبب الازدهار الاقتصادي الموثق الذي صاحب السنوات الأولى فقط من الثورة الصناعية ، كما أن انهيار نظام الأقطاع ساعد على تحرر الفلاحين وشعورهم بقدرتهم على التنقل وممارسة

أى نوع من أنواع النشاط الاقتصادى . هذا إلى سيادة تيارات فكرية شجعتها الحكومة إلى حد كبير وكانت تدعو إلى زيادة عدد السكان لمجابهة الموقف المضطرب فى أوروبا فى ذلك الحين ، إذ أن زيادة عدد السكان تعتبر قوة تساعد على تدعيم مركز الدولة فى الصعيد العالمى وتمكنها من حشد الجيوش ، كما كانت مدرسة التجاريين تدعو هى الأخرى إلى زيادة عدد السكان لأغراض سياسية واستعمارية .

وحينما شب مالتس وجاوز العشرين من عمره كانت الثورة الصناعية وخاصة فى إنجلترا قد بدأت تخلف آثارها السيئة ومشاكلها المعقدة ، فقد جلبت مراكز التصنيع أعداداً غفيرة من السكان وخاصة من الريف طمعاً فى تحسين مستواهم المعيشى إلا أن زيادة هؤلاء العمال عن حاجة الطلب سبب انخفاض الأجور وزيادة ساعات العمل ، كما اضطرت الأطفال والنساء إلى العمل تحت ظروف صحية سيئة وترك هؤلاء تحت رحمة أصحاب الصانع والرأسماليين ، حيث لم تكن الأفكار النقابية قد تبلورت بعد ، وقد كانت هذه الظروف القاسية التى يعيش فيها آلاف العمال واضحة لكل ذى عينين وتكلم عنها كثير من المفكرين ، وقد تكون هذه الظروف هى التى أوجت إلى مالتس بالمصير القاتم الذى ينتظر مستقبل البشر ، فهو يرى تزايداً مستمراً فى عدد السكان وانخفاضاً مستمراً فى مستوى معيشة أغليتهم ، كما سببت الهجرات المتتالية من الريف إلى المدن نقصاً فى الأيدي العاملة الزراعية مما أدى — بالإضافة إلى عدة عوامل أخرى — إلى إنهيار الانتاج الزراعى وخاصة القمح الذى ساء محصوله لعدة سنوات متتالية .

وهناك ظرف آخر عاصر شباب مالتس وكان له أثر كبير على تفكيره وهو أن أوروبا كانت فى حالة يرثى لها بسبب الثورة الفرنسية وحروب نابليون ، فهذه الحروب فضلاً على استنفادها لكثير من الأحوال والعتاد مما أرهق ميزانية الحكومة وعاق بينها وبين تحقيق إصلاحات اجتماعية ،

فضلا عن هذا احتاجت هذه الحروب إلى وقود لها من الرجال مما أصاب بعض القطاعات الاقتصادية وحدث من إنتاجيتها ، بالإضافة إلى صعوبة استيراد الغذاء من الخارج بسبب الحروب البحرية بين فرنسا وإنجلترا وبسبب النظم الضرائبية والجركية المعمول بها في ذلك الوقت .

هذه الظروف كلها أحاطت بمالتس وبالمجتمع الإنجليزي عموماً ، ويجب أن توضع في الاعتبار عند تحليل نظرية مالتس في السكان وتوجيه النقد إليها .

ولقد كان من نتيجة ذبوع آراء مالتس أن امتنع الكثيرون عن توجيه اللوم إلى الطبقات الحاكمة فيما يتعلق بحالة الشقاء التي كانت تعيشها الجماهير الغفيرة من الشعب ، فهو يلقى بالمسئولية على كاهل الفقراء أنفسهم لعدم تبصرهم وعدم تقديرهم لأمور حياتهم .

وقد أدى هذا الاتجاه أيضاً إلى سريان روح الأنانية بين الأثرياء واعتبار الفقراء أسس البلاء والمسؤولين عن كل الأمراض الاجتماعية ، وقد أتضحت هذه النزعة كل الوضوح في مهاجمة قانون الفقراء The Amendment of the poor laws فهو يلوم الدولة وينصحها ألا تقدم أى معونة أو مساعدة قانونية إلى الفقراء والمعوزين لأنهم يخرجون على قوانين الطبيعة (بتركهم الجبل على الغارب فيما يختص بالتناسل أو الإنجاب) وقد تحمس المحافظون في إنجلترا لهذه الآراء وتبنوها وأخذوا يدافعون عنها خاصة وأنها تحارب آراء المفكر الاشتراكي جدين Godwin . وقد نشأت مدرسة فكرية تنشر آراء مالتس وتذيعها بمخلف الطرق منذ ظهورها وكان أهم للفكرين الذين ساروا في هذا الاتجاه هم رسلز Russels وبروهم Brougham وجون سمر J. B. Summer ووريكارو Ricardo . وأخذ هؤلاء المؤيدون شكل مدرسة منظمة

منذ سنة ١٨٧٧ بزعامه شارل برادلو C. Bradlaugh وأنى ييزانت A. Besant ، ومنذ ذلك التاريخ أخذ عدد السكان في إنجلترا يتناقص كما قل عدد المتزوجين فيها وبالتالي قل عدد المواليد ، فلقد كان عدد المواليد في إنجلترا مثلاً بنسبة ٣٦,٥ في الألف سنة ١٨٧٨ فأصبح ٣٤ في الألف سنة ١٨٨٠ وأنخفضت النسبة بعد ذلك إلى ٢٠,٥ في الألف سنة ١٨٨٥ .

وكان لهذا أثره السيء في بلاد استعمارية تريد أن تستغل مستعمراتها بطريق الإقامة ، وكان نتيجة لازمة لذلك أن قامت مدرسة مضادة تعارض الدراسة السكانية على الأسس المalthusية وإقامتها على الأساس البيولوجي الذي نادى به هربت سبنسر Herbert Spencer في الدراسة السكانية فهو يرى أن البقاء للأصلح والأقوى وأن زيادة عدد السكان لابد منه للشعوب التي تريد النضال في الحياة وأن مسألة المواد الغذائية لابد وأن تتوفر للأقوى ، وقد هاجم العلامة « سالدر » Salder ، في كتابه « قانون السكان » ، آراء مالتس كما هاجمها أيضاً المفكر « ثورنتون » Thornton ، في كتابه « زيادة السكان وعلاجها » ، كما كان هدفاً لنقد الكتاب الاشتراكيين في فرنسا مثل فورييه Fourier وبروديهون Proudhon ثم هاجمه رعاة الوطنية والقومية في فرنسا الذين هاهم قلة التناسل في فرنسا وأبرز هؤلاء المهاجمين كوفيس Coves لورو بوليو ، وايف جيرو Y. Guyot

وكانت سهام النقد التي وجهت إلى نظرية مالتس تدور حول الاعتبارات التالية :

① أولاً : لقد اعتقد « مالتس » ، أن عوامل تحقيق التعادل أو التوازن بين عدد السكان وكمية المواد الغذائية ، إنما يأتي بالحد من الزيادة في السكان .

راجع

Karl Pearson : Population. Gilleh & Gillen : Cultural Gy.

عن طريق الموانع الوقائية النفسية ، والموانع الطبيعية ، وأغفل أوكاد بغفل
العوامل الاجتماعية الأخرى التي تعمل على التقليل من نمو السكان قليلا
كثيراً ونذكر منها :

١ - الرهينة والزهد :

تقوم الرهينة على أساس ديني ، قوامه التفرغ للعبادة والانقطاع
عن ملاذ الدنيا ، بما فيها متعة الزواج ، وقد يكون الباعث لها نزعة صوفية
ودعامتها التملص من أدران الجسم ، والهرب من مطالب الغرائز ،
وقد يكون العامل الاقتصادي هو العامل الحلي ، الكامن وراءها . . .
ومهما يكن من شيء فإن الرهينة تحرم كثيراً من أفراد المجتمع من الزواج
وبالتالي من التناسل . . . وتنتشر الرهينة في بعض المجتمعات التي تسير على
تعليم الديانة البوذية عامة وفي التبت خاصة .

٢ - وأد البنات :

وهذه العادة كانت منتشرة في بعض المجتمعات المتخلفة في الحضارة :
فثلاً كان مبيعها عند العرب في الجاهلية الفقر أو الشرف ، أو الخوف
من العار ، ولا شك أن هذه العادة من شأنها أن تحرم المجتمع من عدد كبير
من الإناث وبذلك يقل الإنجاب .

٣ - نظام تعدد الأزواج :

فهناك مجتمعات يباح فيها تعدد الأزواج ، أي أن المرأة الواحدة تتزوج
بعدد من الرجال وهذا النظام يؤدي إلى قلة النسل ، وهي عادة منتشرة في التبت .

٤ - الاضطهاد :

يتخذ الاضطهاد المظهر السياسي أو الديني أو الاقتصادي ، فالاضطهاد السياسي
مثلاً يقضى بسوء معاملة أو نفي طوائف أو أفراد ، لهم آراء سياسية معارضة
لأصحاب السلطة في البلاد ، سواء أكان ذلك نتيجة لغزو أو لفتح أو لتغيير

نظام الحكم القائم ، فإن هذا من شأنه أن يرغم مثل هذه الطوائف على الهجرة الخارجية .

أما الاضطهاد الاقتصادي فيتمثل في حرمان أو مصادرة أو اغتصاب أملاك أو أموال طائفة من الأفراد ، وعدم رعايتهم ، بحيث تعيش في ذل ومهانة حتى يضعفوا ويقل نسلهم .

٥ - انحطاط المستوى الخلقي :

فقد يؤدي إلى انتشار الأمراض التناسلية وخاصة في بلاد لم تتوافر فيها وسائل العناية الصحية ، كما كان الحال في إقليم « أو غنده » حين دخلها الاستعمار الأوروبي في أواخر القرن ١٩ فقد نقص بسبب ذلك سكان « أو غنده » إلى نصف ما كانوا عليه قبل استيلاء الإنجليز عليها .

٦ - العامل الثقافي :

وخاصة الثقافة الجنسية وممارسة وسائل تحسين النسل أو السلالة ، على نحو ما يدرسه علم الأوجينية أو المورثات أو ضبط النسل Birth Control

ثانياً : أغفل « مالتس » كذلك تطور وتغير الكفاية الفنية في الانتاج ... ومعنى هذا أنه لا محل لتشاؤم « مالتس » المطلق وخوفه من حدوث كارثة أو قحط فالكثافة العددية ليست بذات دلالة على زيادة السكان عن الموارد أو قلتهم ، فضلاً عن أن السكان لا يعيشون على موارد الأرض وحدها - كما سبق أن أشرنا .

وعدد العمال العاطلين عن العمل ليس أيضاً دليلاً على تزايد السكان أو قلة عددهم بل قد يرجع ذلك إلى سوء توزيع العمل ، وخاصة إلى فساد التنظيم الاقتصادي والاجتماعي ، وقد شهدت الولايات المتحدة الأمريكية في سنة ١٩٥٧ - سنة ١٩٥٨ بطالة في عمال صناعة السيارات وخاصة في مركز هذه الصناعة في مدينة « ويترويت » ، حتى وصل عدد العمال

العاطلين بسبب الكساد الجزئى الذى أصاب هذه الصناعة والصناعات المتصلة بها حوالى ٢ مليون عامل ، وفى هذه الحالة لا يمكن أن نأخذ ذلك دليلاً على إزدحام الولايات المتحدة بالسكان إذ أنها فى الواقع ليست من البلاد التى تشكو من مشاكل إزدىاد السكان فى الوقت الحاضر . ومن جهة أخرى فقد تكون موارد الأمة كافية لا عالة العاملين وغير العاملين ، والبرهان على ذلك أن كثيراً من الدول تدفع للمتعطلين تعويضاً مالياً مناسباً يواجهون به مقتضيات المعيشة إلى أن يعثر على أعمال ، وهذا دليل على غنى الأمة بمجموعها بصرف النظر عما قد يصيب بعض قطاعاتهم من تخلف .

هذا إلى أن العالم اليوم به مساحات شاسعة غير مستثمرة ، والبؤس السائد فى بعض المناطق من الممكن أن يزول أو على الأقل تخف حدته إذا تغير توزيع السكان . فضلاً عن ذلك فإنه إذا كانت القدرة الانتاجية متفاوتة لدى الشعوب ، فمن الممكن الحصول على انتاج أوفر بتحسين سبل الانتاج واستعمال الوسائل الفنية فى الزراعة والصناعة ، والاستفادة بحقائق علم الاجتماع الصناعى وعلم النفس الصناعى والعلاقات الصناعية فى رفع الكفاية الانتاجية والتدريب المهنى ،

وإذا كنا نلاحظ أن التخلف وانخفاض مستويات المعيشة يعزى إلى الجهل والكسل فى بعض البلاد ، فإنه يعزى إلى سوء التنظيم الإقتصادى والاجتماعى فى بلاد أخرى ، كأن تكون فئة قليلة من السكان تملك أكبر حصه من الأرض وأعظم نصيب من المال والاحتكارات الصناعية والتجارية .

وقد تضاعف سكان بريطانيا ذاتها بعد مائتوس ثلاث مرات ومع ذلك فقد ازدادت فى الوقت نفسه رفاهية الشعب البريطانى وتحسنت مستويات معيشته أضاعاف ما كان عليه الحال فى أيام مائتس الذى كانت

مخاوفه تنحصر في أن لا يستطيع الشعب الانجليزى المحافظة على مستوى معيشته في ذلك الوقت .

ثالثا : يجب أن نشير إلى أن هناك ثمة اتجاهات اجتماعية إصلاحية تحاول أن تعالج موضوع السكان على أساس التكامل الديموجرافى فى داخل الدولة الواحدة عن طريق تنظيم هجرات داخلية من المناطق الكشيفة إلى المناطق المتخلخلة والتي تشكو قلة فى الأيدى العاملة . وينادى أصحاب هذا الاتجاه بأن يؤخذ بفكرة التكامل الديموجرافى هذه على نطاق دولى عن طريق تهجير أعداد من السكان من المناطق المكتظة وتوطينهم فى البلاد والقارات التى تشكو قلة فى الأيدى العاملة ، وبما يقوى الأمل فى الأخذ بهذه الاتجاهات أن المنظمات الدولية بدأت تعطى لمسائل السكان جانباً كبيراً من الأهمية وخاصة منذ أعقاب الحرب العالمية الثانية وبرز وظهور مشكلات اللاجئين ومشروهمى الحرب والأقليات . ولا شك أن هذا الاتجاه العالمى فى تناول مشكلات السكان - ولو أنه لا يزال فى طور النمو - يجعل من أفكار « مالتس » توقعات يستبعد تحققها فى هذا القرن على الأقل ، وخاصة وأن انتصارات الإنسان على الطبيعة وقهره إياها يتزايد يوماً بعد يوم ، فعقلية مثل عقلية « مالتس » كان يستحيل عليها أن تتصور - مثلاً - أن يخرج الإنسان من نطاق الأرض وجاذبيتها ، فضلاً عن تصور الوصول إلى الكواكب الأخرى .

د وفيما يختص بالبلاد العربية فإن أكثرها لم يصل بعد إلى درجة من الاكتظاظ تخشى معه تجاوز الحد الملائم ، ولا ضرر على البلاد العربية من نمو سكانها وبالتالي من ارتفاع الكثافة فيها وخاصة إذا مارفعت الحدود المصطنعة بين الدول العربية القائمة ونظم انتقال السكان فيما بينها ، ووسعت الأرض المستعمرة بتوسيع شبكة الري الدائم ، ورفع إنتاجية الأرض العربية الزراعية باستعمال الأسمدة والآلات على نطاق واسع ، فضلاً عن التعاون

في دعم التصنيع وتنسيقه فيجب ألا ننسى أن الفن الزراعى فى تقدم مستمر ، الأمر الذى سيمرتب عليه زيادة الموارد الغذائية من حيث الكم والكيف . فضلا عن أن الموارد الغذائية لم تعد مقصورة على الإنتاج الزراعى ، بل غدت تعتمد على الإنتاج الصناعى الكيمايى ، كما أن تحسن وسائل المواصلات مكن من نقل المواد الغذائية من البلاد الغنية بها إلى البلاد المفتقرة إليها .

كذلك نجد أن علم التغذية فى تقدم ، وأن رقيه ستؤدى إلى التوفير فى استخدام المواد الغذائية والاقتصاد فى استعمالها إلى أبعد حد ممكن . ومعنى هذا أنه لا محل لتشاؤم « مالتس » المطلق وخوفه من حدوث كارثة أو قحط .

رابعاً : اعتقد « مالتس » أن الذى يحدد رفاهية الشعب أو فقره هو حصوله على المواد الغذائية ، أو إشباع حاجاته الطبيعية الضرورية للحياة ، مع أن الحاجات الاجتماعية هى التى غدت تحدد مستوى الشعب المادى والفكرى أو الروحى ، وكلما زاد التقدم كلما ازدادت هذه الحاجات تعقيداً وكلما صعب إشباعها .

والواقع أن نظرية « مالتس » فى جملتها نظرية نسبية ، لا يمكن الأخذ بها على علاتها ، بحيث تنطبق أحكامها على مختلف المجتمعات فى مختلف العصور ، فهى إذا نجحت فى تفسير تزايد السكان مع تناقص نصيبهم من المواد الغذائية فى بعض المجتمعات كالهند والصين مثلاً ، فإنها تعجز عن تفسير ظاهرة السكان فى الولايات المتحدة وأستراليا وكندا ، فقد بدأت نسبة زيادة السكان تقل كثيراً عما قال به « مالتس » .

وهذه الزيادة لم تؤد إلى نقص حصة كل فرد من المواد الغذائية ، بل لوحظ أنه كلما زاد عدد السكان فى بعض المجتمعات زاد مستوى

المعيشة ارتفاعاً ، وهذا مادفع بعض الحكومات إلى العمل على زيادة السكان ، بتشجيع الهجرة تارة أو بتشجيع الزواج وإنجاب الأولاد عن طريق الإعانات والمنح تارة أخرى .

١- يتضح مما سبق أن نظرية مالتس ، نظرية نسبية ، وأن زيادة السكان ليست ضارة في كل الأحوال ، بل قد تكون الزيادة أمراً ضرورياً في أحوال كثيرة ، ولزيادة الإيضاح يجدر بنا أن نقول أن زيادة السكان تمر بمرحلتين .

١ - مرحلة قلة السكان Underpopulation

٢ - مرحلة كثرة السكان Overpopulation

ويفصل بين المرحلتين ، الحد الأمثل للسكان Optimum Size ففي المرحلة الأولى يكون عدد السكان قليلاً بالنسبة لموارده ، أى يكون عدد السكان قليلاً بالنسبة لما هناك من أرض زراعية يمكن استغلالها أو ثروة معدنية يمكن استخراجها ، وغير ذلك من الموارد التي تعمل على زيادة الإنتاج . في هذه المرحلة يكون من المفيد اقتصادياً أن يزداد عدد السكان حيث تكون الزيادة مقترنة بزيادة الناتج المتوسط لكل فرد . فمن الواضح أنه إذا كانت هناك بلد غنية بمواردها الطبيعية غير المستغلة ، وكان عدد السكان فيها قليلاً ، فإن زيادة العدد في مثل هذه الظروف تساعد على حسن استغلال تلك الموارد ، وذلك لأن زيادة العدد تفسح المجال لتقسيم العمل بين الأفراد ، كما أنها تساعد على زيادة الطلب على السلع المنتجة ، ويترتب على تقسيم العمل ، زيادة القدرة الانتاجية للفرد ،

يضاف إلى ذلك أن قلة السكان لا تساعد على قيام مشروعات عمرانية أو إنشائية كبيرة ، ذلك لأن هذه المشروعات تقتضى حداً أدنى للطلب على منتجاتها ، فإذا كان عدد السكان ضئيلاً ، فقد لا يتوافر هذا الحد الأدنى للطلب ، وبذلك فإن زيادة عدد السكان تجعل من الممكن تنفيذ

هذه المشروعات ، وإذا استمر السكان في الزيادة . . . فقد نصل إلى الحد الذي يحدد لنا القدر الأدنى للطلب على منتجات المشروعات الكبيرة ، ويستنفد كل أو معظم مزايا تقسيم العمل . بعد هذا لا تكون لزيادة السكان فائدة ، ويكون أثرها الوحيد هو زيادة عنصر العمل بالنسبة لعناصر الإنتاج الأخرى ، فتبدو كل زيادة في السكان بعد هذا الحد مقترنة بتناقص الناتج المتوسط ، ومن هنا تبدأ مرحلة كثافة السكان .

ويتضح من ذلك أن حجم السكان في علاقته بموارد الثروة الأخرى قد يجعل المجتمع خفيف السكان ، بحيث تكون كل زيادة في عدد السكان مقترنة بزيادة في الناتج المتوسط لكل فرد ، ولذلك لاندحش إذا وجدنا أن الكثرة العظمى من الأديان تحض الناس على أن يتناسلوا ويتسكثروا وخاصة عند كوفشيوس ، حكيم الصين الذي جعل من حب التناسل عبادة . وكان هذا الاتجاه أمراً ضرورياً ، لأن كثرة السكان وازدياد الناس على سطح الأرض أمر كان لا بد منه لعمرانها ولتقدم النوع البشري .

وهناك بلاد لا تزال إلى الآن غنية بالموارد وسكانها قليلون لا يستطيعون إدارتها واستثمارها إلى درجة تقرب من الكمال . هذه البلاد في حاجة بلا شك إلى السكان .

فأمامنا مثلاً قارة أستراليا بها مشروعات كثيرة لا تستطيع البلاد أن تنفع بها لقلة سكانها . وما يصدق على أستراليا يصدق على السودان و العراق . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى نجد أن حجم السكان في علاقته بموارد الثروة قد يجعل المجتمع كثيف السكان بحيث أن كل زيادة في عدد سكانه ، تؤدي إلى تناقص الناتج أو المتوسط .

فمسألة الكثافة أو القلة مسألة نسبية ، ولا يجوز أن نحكم بأن بلد ما ، خفيف السكان لمجرد أن عدد الأفراد قليل في الكيلو متر المربع ،

كما لا يجوز أن نحكم بأن بلدًا ما، كثيف السكان لمجرد أن عدد الأفراد كبير في الكيلو متر المربع، فالمسألة تتوقف على العلاقة بين العدد وبين مراد الثروة.

ومن ثم فقد يكون عدد الأفراد في الكيلو متر المربع قليلًا، ومع ذلك تكون البلد كثيفة السكان بالمعنى الاقتصادي، وذلك إذا كانت البلد صحراوية مثلاً. كذلك قد يكون عدد الأفراد في المنطقة كبيراً، ومع ذلك تكون البلد خفيفة السكان بالمعنى الاقتصادي، وذلك إذا كانت البلد غنية بمواردها من الأنهار والأرض والمعادن والصناعات المختلفة والتجارة... إلخ.

هذه النسبية تجعل من العسير الحكم على بلد معين بأنها كثيفة أو قليلة السكان، وتعمل من الصعب قياس مدى الكثافة أو القلة إحصائياً.

أما الحجم الأمثل للسكان Optimum Size of population فالمراد به الحجم الذي يبلغ معه الناتج المتوسط أقصاه، وهو يتحقق عندما تعبر البلاد مرحلة قلة السكان دون أن تدخل مرحلة الكثافة، فهو يمثل الحالة الوسط بين مرحلتى القلة والكثافة.

ويمكن توضيح ذلك بافتراض حالة مجتمع يتزايد عدد سكانه مع بيان أثر هذه الزيادة في الناتج المتوسط لكل فرد.

عدد الأفراد بالملايين	ميوست الناتج للفرد بالجنهات
٥	١٠٠
٦	١٢٠
٧	١٣٠
٨	١٣٥
٩	١٣٠
١٠	١٢٠
١١	١٠٥

في مرحلة قلة السكان

الحجم الأمثل

في مرحلة الكثافة

نلاحظ في هذا المثال أنه عندما كان عدد السكان ٥ ملايين ، كان الناتج المتوسط مقدراً بـ ١٠٠ جنيه ، ولما زاد عدد السكان ، زاد الناتج المتوسط ، وإستمر هذا الناتج في الزيادة ، إلى أن بلغ أقصاه ١٣٥ جنيناً مصرياً عند ما بلغ عدد السكان ٨ ملايين ، بعد هذا الحد أخذ الناتج المتوسط في التناقص .

وعلى ذلك يمكن القول أن الحجم الأمثل للسكان في هذا العرض هو ثمانية ملايين ، وأن مرحلة القلة تتمثل من الفترة التي يكون عدد السكان فيها دون ذلك .

ويذهب « كارسو ندرس » Carr Saunders في نظريته عن أنسب السكان إلى البحث عن مقياس يعرف به مدى ما يصل إليه السكان إلى حد الكمال أو دونه ، وكان هذا المقياس الذي وضعه « كارسو ندرس » هو مراقبة متوسط الدخل وقصد به متوسط ما يكسبه الفرد ، فإن كان متوسط الدخل آخذاً في الزيادة دل هذا على أن عدد السكان في هذا البلد مناسباً ، وما زالت الحاجة ماسة إلى المزيد من عدد السكان حتى إذا ما وصلنا إلى حالة استقرار في متوسط الدخل كان عدد السكان هو الأنسب ، ثم إذا أخذ متوسط الدخل في الهبوط تدريجياً بعد ذلك ، فعنى هذا أن البلاد بلغت أقصى ما يمكن أن تتسع له أرجاؤها من السكان وعلى ذلك تتخذ وسائل لتقليل نسبة الزيادة السكانية .

لأن النقص الكبير في متوسط دخل الفرد دليل على اكتظاظ البلاد بالسكان مما يتسبب عنه انخفاض مستوى المعيشة .

هنا وقد تعرضت نظرية كارسو ندرس إلى سهام نقاد جماعة الاشتراكيين ، ونحن نلخص آراءهم فيما يلي :

يعتقد الاشتراكيون أن العلاقة بين الإنسان والإنسان تأتي في مرحلة
أولى من مرحلة تحديد العلاقة بين الإنسان والبيئة وقدرتها
الإنتاجية . ومعنى ذلك أنهم يرمون أولاً وقبل كل شيء إلى تحقيق عدالة
التوزيع بين أفراد المجتمع في حدود الثروة الموجودة فعلاً ولا يسلمون
بنظرية الحد الأمثل للسكان التي تدعو إلى تحديد عدد السكان بحيث يتحقق
التوازن بين عدد السكان وموارد المعيشة ، ووجهة النظر الاشتراكية أن
هذا التوازن لا يختل بعامل تزايد العدد وإنما اختلاله يرجع إلى النظام الطبقي
واستئثار الأقلية بموارد الإنتاج ولذلك يدعون إلى إلغاء الميزات الطبقية
وتحقيق العدالة الاجتماعية في توزيع الملكية .

ولا يعنينا في هذا المجال بسط الآراء الاشتراكية وإنما سنكتفي
بأن نشير إلى نماذج من مواقف الاشتراكية المعتدلة من المسألة السكانية .
ويذهب أنصار المذاهب الاشتراكية بصفه عامة إلى أن الموارد
الطبيعية في العالم لا تزال بكراً ، وتحتاج إلى أيد عاملة ، وأن وسائل
الاستغلال لا تزال في كثير من جهات العالم بدائية ، وأن كل ما يتطلبه
الأمر هو جهود اقتصادية لزيادة الإنتاج ، . . . وهكذا مثلاً قد أنشئ
المجلس الاقتصادي والاجتماعي لهيئة الأمم المتحدة ، للعمل على معاونة
الدول المختلفة لتنمية مواردها ، وتقديم المعونة الفنية والمادية اللازمة
لهذا الغرض .

وينقسم الاشتراكيون المعتدلون إلى عدة طوائف نكتفي بالإشارة
إلى أهمها :

١ - الاشتراكية المسيحية :

كان أول ظهورها في إنجلترا في منتصف القرن التاسع عشر ،
وكان أنصارها يصدرون مجلة The Christian Socialist وقد دعا أتباع

هذا المذهب إلى تأليف جماعات التعاون للعمال ، وجماعات الإستهلاك التعاونية . وحملوا على كبار الملاك العقاريين . ولا يزال في إنجلترا إلى الآن أعوان لها بين المسيحيين البروتستانت .

ويعارض معظم أصحاب هذا المذهب مبدأ تحديد النسل ، وهذا الاتجاه مستمد من الأصول المسيحية التي يعبر عنها العلامة Andr Wallz إذ يرى أن المعتقدات الدينية تلعب دورا هاما في كثافة السكان ، فالكثافة تزداد في المجتمعات التي تخلص للمذهب الكاثوليكي ، بينما تتخلخل كلها تحرر المجتمع من القيم الخلقية والدينية التي تنادى بها المسيحية .

٢ - الاشتراكية الزراعية :

تنتشر مبادئها في البلاد التي يكثر فيها كبار الملاك الزراعيين ، كالولايات المتحدة وإنجلترا ، وهي ترمي إلى إلغاء حق الملكية الخاصة على الأراضي الزراعية ، ولكنها لا تمس ملكية الأنواع الأخرى من رؤوس الأموال . ومنها فريق يميز تملك الأراضي الزراعية ولكنه يوجب فرض ضرائب باهظة على ملاك هذه الأراضي .

وللطابع الريني أثره الكبير في زيادة عدد السكان وذلك بحكم العادات والتقاليد وتغلغل المعتقدات الدينية في نفوس أفرادها ، فضلا عن أن الإنتاج الزراعي يسمح بمساهمة أكبر عدد من الأفراد في العمل مما يؤدي إلى كبر حجم الأسرة ، واعتزاز رب الأسرة بكثرة عدد أفرادها .

٣ - اشتراكية الدولة :

تأخذ بمبدأ الملكية الخاصة للأفراد ، ولكنها تدعو للملكية العامة لبعض المشروعات الحيوية في الدولة . فهناك من المشروعات ما يتعين على الدولة أن تتولى أمرها ، وذلك إما لعجز الأفراد أو الشركات الأهلية عن القيام بها ، وإما لأنه إذا ترك أمرها ، لم يسرها أصحابها في طريق المصلحة العامة للمجتمع .

وعلى هذا فهى تدعو إلى تدخل الدولة فى العلاقات بين الأفراد باسم العدالة والمثل العليا ، فتحد مثلاً من مساوىء المنافسة الحرة ، وتمنع تحكم بعض المنتجين المحتكرين فى سواد الشعب من المستهلكين ، وتترلى الدولة إدارة بعض المشروعات الصناعية ، وتشرف على سير بعض المشروعات الفردية ؛ وتنظم التجارة الدولية والمصارف « البنوك » . الخ . وللدولة أيضاً أن تحرم استهلاك بعض الموارد وفقاً للصالح العام .

ويرى أصحاب اشتراكية الدولة العمل على حل مشكلة السكان عن طريق زيادة الموارد ، والعمل على موازنة عدد سكان الدولة بمواردها ، ويرون أن زيادة عدد السكان يزيد من قوة الدولة العسكرية .

٤ — الاشتراكية الديمقراطية :

يعنى أصحابها بمنح الطبقات الكادحة حق الانتخاب ، وتكوين أحزاب سياسية تحاول أن تحصل على الأغلبية لتصل إلى تولى شؤون الدولة بطريق الأغلبية البرلمانية ، وقد بدأ الاتجاه الاشتراكي الديمقراطي فى اتحادات العمال القائمة فى إنجلترا منذ عام ١٨٩٣ ، ثم قامت حركة سياسية كبيرة من جانب الاتحادات العمالية والتجارية ، والجمعيات التعاونية للحصول على حق تمثيل العمال فى البرلمان الإنجليزى ، إلى أن تم لها ذلك حوالى عام ١٩٠٠ ، ثم تألف بعد ذلك حزب العمال الذى لا يزال قائماً بإنجلترا إلى الآن ، وقد قام هذا الحزب بإبان توليه الحكم ، بتأميم السكك الحديدية والنقل البرى وتأميم العلاج المجانى وكذا أمم صناعة الصلب ، وكان يعتزم تأميم صناعة السفن والأدوات الطبية لولا نجاح حزب المحافظين عليه فى الانتخابات وتوليه زمام الحكم فى البلاد .

ويرى معظم أصحاب الاشتراكية الديمقراطية أن فى زيادة عدد سكان الدولة زيادة لقوتها الاقتصادية ، إذ أن كثرة القوى العاملة فيها سوف يزيد من قوة انتاجها .

٥ — الاشتراكية الفابية :

تكونت جماعة الفابين Fabian Society في إنجلترا عام ١٨٨٤ من الاشتراكيين الديمقراطيين والأكاديميين ؛ وكان هدف هذه الجماعة العمل على نشر النظريات الاشتراكية المعتدلة بين هيئات العمال والاتحادات التجارية ، وحث الطبقات المتعلمة على بث روح الفضيلة والأخلاق الفاضلة ، وتقوية دعائم التعاون بين طبقات المجتمع ، والاتجاه إلى تنفيذ الآراء الاشتراكية بطريق التشريع لا عن طريق العنف .

وقد اعتمدوا في تبرير مذهبهم الاشتراكي على أن التقدم العمراني للمجتمع هو السبب في الازدياد السريع وارتفاع القيم ، وعلى ذلك فيجب ألا يستأثر بتلك المنح طبقة دون طبقة ، بل يتحتم أن تنتفع بها الطبقة الكادحة . وليس معنى ذلك أن تنتقل ملكية الأراضي أو رؤوس الأموال المستغلة في الصناعة إلى ملكية طبقة العمال ، بل تنتقل هذه الملكية إلى الحكومة باعتبارها ممثلة للمجتمع بمختلف طبقاته .

وقد كان معظم أصحاب الاشتراكية الفابية من رواد الإصلاح الاجتماعي فهم لم يرموا إلى تحديد النسل ، بل كانوا يرون أن في زيادة عدد السكان زيادة في قوة المجتمع الإنتاجية ، وعلى الدولة ، أن تعمل على تحقيق المساواة والعدالة الاجتماعية .

٦ — الأيديولوجية العربية والمسألة السكانية :

والآن يجدر بنا أن نتساءل عن موقف الأيديولوجية العربية من المسألة السكانية .

أن المجتمعات في عصرنا الحاضر ، تنقسم بحسب أيديولوجياتها العامة إلى ثلاث كتل رئيسية : تتبع إحداها الكتلة الاشتراكية وتتبع الأخرى الكتلة الغربية ، وتتقف الثالثة — أو هي تحاول أن تقف — موقف حياد

بين هاتين الكتلتين الرئيسيتين ، وتنادى بمبدأ جوهرى تبني عليه سياستها في جميع المجالات ، وهو أن تنبع هذه السياسة من صميم ظروفها الاجتماعية الخاصة .

وإذا حاولنا إظهار انطباع هذه الأيديولوجيات على المسألة السكانية ، نجد أن الأيديولوجية الغربية ذات طبيعة مالتسية في عمومها تنادى بتحديد النسل كلما انخفض مستوى المعيشة ، في حين أن الأيديولوجية الاشتراكية ترى أن زيادة عدد سكان الدولة زيادة لقوتها الاقتصادية لأن ذلك سيؤدي إلى كثرة القوى العاملة وبالتالي ارتفاع قوة الإنتاج أما الكتلة الثالثة ، وهي كتلة الحياض الإيجافى ، فهي تحاول أن تنهج سياسة تنبع من ظروف معيشتها الداخلية الخاصة ، ودون أن تتأثر بأيديولوجية دولة أجنبية وآراء مستوردة ، ويمكننا أن نمثل لهذه الكتلة بالجمهورية العربية المتحدة ، فلقد حاول دعاة الغرب إيهامنا بأن مصر بلد لا يصلح إلا للزراعة ، بل حتى في هذا الميدان لا يمكن أن تصل مصر إلى نجاح كبير بسبب أن المساحة القابلة للزراعة محدودة . بل إن وندل كليلاند Wendell Cleland يذهب إلى أن الصناعة المصرية غير قادرة على الإزدهار فليس هناك من سبيل لحل المشكلة السكانية الآن إلا عن طريق تحديد النسل والواقع - الذى اعتنقه الأيديولوجية العربية - أن بلادنا قادرة على التوسع الاقتصادى وأنها بالفعل سائرة في طريق الإزدهار والتمز الاقتصادى في كافة فروع الإنتاج - ولقد عبر الرئيس جمال عبد الناصر - في خطابه الذى ألقاه يوم ١١/٢٠ في المنيا - عن موقف الجمهورية العربية المتحدة من مسألة تحديد النسل ، فوصفها بأنها دعاية استعمارية ، وقال إن إمكانياتنا تسمح لنا بزيادة السكان وأن ما علينا إلا أن نمضى قدماً في تنفيذ مشروعاتنا وبرامجنا للنهوض الاقتصادى ، فإن هذا وحده كفيل بحل مشكلة ازدياد عدد السكان . ويرى الرئيس عبد الناصر أن الزيادة في موارد الإنتاج ينبغي أن تزيد عن معدل الزيادة في عدد

السكان كي نحقق تقدماً اقتصادياً وارتفاعاً في مستوى المعيشة لسائر أفراد الشعب وطوائفه . ورسم السبيل إلى ذلك بالمجتمع الديمقراطي الاشتراكي التعاوني ^(١) .

هـذا عن المبدأ السياسي أو رأى الساسة في ازدياد السكان ، أما من الناحية العلمية الإحصائية فقد أثبت كثيرون خطأ هذا الزعم أى عدم مقدرة مصر على النهوض الاقتصادى ، وبات من الأوفق أن نترك سياسة الدعوة إلى تحديد النسل ، لأنها على الأقل لا تتمشى مع اتجاهنا العام نحو العزة القومية والسيادة .

ولقد توصل إلى رأى مشابه لهذا الأستاذ السيد عبد الحميد الدالى في كتابه « العناصر الحيوية لمشكلة السكان في مصر » ، إذ يقول ^(٢) :

« إن سياسة عدم التدخل هى — فى اعتقادنا — الخطوة المثلى وهى التى تتيح لنا أن نحقق التوازن بين زيادة السكان والمحافظة على مستوى ملائم للمعيشة ، ولا شك أن أى زيادة فى سرعة نمو السكان من شأنها أن تجعل الهبوط بمستوى المعيشة عند الحد المنخفض الذى هو عنده أمراً محتوماً . ومن الواضح أننا يجب ألا نذهب مع التفاؤل إلى أبعد مما ذهبنا ، إذ أن التقدم الاقتصادى مرهون بأمور شتى ليست كلها فى أيدينا (حديث المؤلف قبل قيام ثورة الشعب عام ١٩٥٢) . وإذا كنا ندعو إلى ما يشبه الثورة فى أوضاعنا الزراعية والصناعية والتجارية — وذلك عبء ثقيل — فليس من إصالة الرأى أن نزيد فى متاعبنا بزيادة غير مستحبة فى السرعة التى ينمو بها السكان فى مصر وهى فى الوقت الحاضر تكاد تكون أكبر سرعة لنمو السكان فى العالم »

(١) لم نورد رأى الرئيس جمال عبد الناصر بحكم منصبه السياسى ، ولكن باعتباره صاحب أيديولوجية جديدة يسير عليها المجتمع المصرى العربى .
(٢) عبد الحميد الدالى العناصر الحيوية لمشكلة السكان فى مصر ص ٣٧٧ وما بعدها .

والواقع أننا يجب أن ننتهى من هذه المشكلة إلى اعتناق مبدأ النسبية الاجتماعية . فكل مجتمع يقبى المذهب والسياسة التى تتفق مع ظروفه . وهذا الاتجاه يعزز رأينا بصدد ارتباط وسائل التحسين وأهدافه بأيدولوجية الدولة العامة وموقفها فى المحيط الدولى . ولدينا مثالين حين على ضرورة اعتناق مبدأ النسبية الاجتماعية ، وهما شكل المشكلة فى الهند ونفس هذا الشكل لها فى استراليا .

فعدد سكان الهند حسب تعداد ١٩٥١ حوالى ٣٦٠ مليون نسمة يزادون خمسة ملايين نسمة كل سنة . وقد دلت تقارير الهيئات المختصة التى بحث المشكلة هناك على أن أقصى طاقة الأراضى الزراعية فى الهند بعد استصلاح جميع ما يمكن استصلاحه من أراض وبعد استغلال أحدث الطرق العلمية فى زراعة الأراضى المزروعة حالياً ، بعد كل هذا لن تتمكن الهند من إطعام أكثر من ٣٧٥ مليون نسمة بمعدل فدان لكل فرد بينما متوسط نصيب الفرد الأمريكى الواحد ٢٥ فداناً . وبديهي أنه عند ما تصل الهند إلى أقصى طاقتها الإنتاجية فإن عدد السكان سيكون فات الرقم المحدد له وهو ٣٧٥ مليون نسمة بكثير ، لذلك ينبغى العمل الآن على تحديد النسل كى تتفادى الهند كارثة اقتصادية محققة ~~لها~~ .

والمثل الآخر هو استراليا وعدد سكانها ٩ ملايين نسمة ويمكنها بإمكانياتها الحالية أن تستوعب ثلاثين مليوناً . فيجب أن ترتفع فيها الدعوة إلى تشجيع التناسل . ومع ذلك فإذا كان أهلها لا يأخذون بسياسة تشجيع التناسل فهذه أمور داخلية ترجع إليهم أولاً وأخيراً ولا مجال للسيطرة عليهم لفرض وجهة نظر معينة .

وإنما قصدنا من ضرب هذين المثالين إلى أن نوضح أن الدعوة إلى تحديد

النسل لا يجب أن نتمسك بها على طول الخط ، وكذلك ينبغي ألأنحاربها دائماً وفي كل المجالات . وإنما هناك نسبة اجتماعية تفرضها الظروف الخاصة لكل مجتمع - والتي توجب عليه أن يأخذ بسياسة معينة تتمشى وهذه الظروف الخاصة .

والواقع أننا توسعنا في معالجة مشكلة تحديد النسل إلى حد ما ، وأظهرنا أنها ليست مطلقة وإنما هي نسبية . فنحن لم نعالج المشكلة لذاتها وإنما عالجانها كوسيلة أساسية على أنها مظهر من المظاهر التي تختلف المجتمعات في معالجتها باختلاف إيديولوجياتها العامة .

وإذا نظرنا إلى مسألة من زاوية القرية العربية ، والتكامل الديمجرافي للشعب العربي ، تكادت وجهة نظرنا فيما يتصل بموقف الأيديولوجية العربية من الزيادة السكانية

الفصل الثامن

التغير السكاني

من المقرر أن عدد السكان لا يبق في أى بلد من البلاد على حال من الاستقرار ، فهو يتغير دائماً زيادة ونقصاً ، بتغير الظروف والملايسات كما تنعرض البنية السكانية ذاتها في الوحدة الاجتماعية نفسها للتغير النوعى في نسبة الذكور والإناث ، ففي بعض الأحيان نجد أن عدد الذكور يربو على عدد الإناث وفي أحيان أخرى يكون العكس . ، وقد يكون التغير في نسب فئات العمر من سكان الوحدة الاجتماعية فى أى مجتمع يلاحظ عادة عالم الديموجرافيا أثر هذا التنوع على قوة الجماعة الدفاعية ومقدرتها الإنتاجية ، باعتبار أن الفئة المنتجة هى الشباب والرجولة الكاملة وأن الفئة المستهلكة هى فئة الطفولة والسكرولة .

وغنى عن البيان أن موضوع التغير السكاني له أهميته العلمية والعملية القصوى فى تحديد المشاكل السكانية ومحاولة مجابتها ورسم السياسات الإصلاحية والخدمات الاجتماعية والتصميمات الإنتاجية .

وقد تنبّه الأذهان إلى خطورة هذا الموضوع ، فأولاه كثير من العلماء المحدثين عناية خاصة ، ولا سيما من ناحية التغير الذى يطرأ نتيجة للتحضر والتصنيع فنجن نلاحظ أن المجتمعات الحضرية ، Urban Communities ، قد شهدت وما تزال تشهد تزايداً مطرداً فى عدد سكانها فى كثير من جهات العالم وخاصة تلك التى دهمتها الثورة الصناعية كما يصدق هذا إلى أبعد الحدود على المدن التى اتسع نطاقها الأكاوجى اتساعاً كبيراً وأصبحت تعرف باسم العواصم الإقليمية metropolitan areas كالقاهرة ونيويورك ولندن وطوكيو وموسكو ولكننا من جهة أخرى نجد أن المجتمعات

الريفية rural communities ، التي تضم عددا كبيرا جداً من القرى قد شهدت وما تزال تشهد تزايداً مستمراً في أعدادها السكانية في جهات كثيرة من العالم ، وأن المجتمعات التي تشهد مدنها زيادة أكثر من المعدل الطبيعي ، تشهد من ناحية ثانية تناقصاً في سكان قراها . وهذا التغير في حجم السكان في المجتمعات المحلية — في الريف أو الحضر — قد خلق مشاكل جديدة وأحياناً غاية في التعقيد فيما يتعلق بإنشاء المنافع العامة Public Utilities الصحية والترويحية ، وكذلك المدارس التي تعتبر غاية في الأهمية لتعليم النشء وتدريب الفتيان ، كما تبرز مشاكل أخرى خاصة بالأمن والتأمين ضد الحرائق والجرائم والحوادث وعدد آخر من الخدمات التي تعتبر ضرورية لخلق حياة إجتماعية مستقرة .

وهكذا خلق التزايد السريع في المجتمعات الحضرية حاجة متزايدة للمدارس وساحات اللعب للأطفال وأماكن قضاء أوقات الفراغ ، وطرق وشوارع معبدة ومأمونة للمواصلات سواء تحت الأرض أو في الهواء . الخ كما أن تضخم عدد السكان في الضواحي قد خلق بدوره حاجة ملحة إلى ضرورة تكامل أوجه نشاط المؤسسات الحكومية مادام سكان هذه الضواحي يتحملون عبئاً من الضرائب مماثل لما يتحمله سكان المدينة . ومن جهة أخرى فإن تناقص السكان أو ثبات أعدادهم في بعض المجتمعات الريفية لم يكن يعنى بالنسبة للحكومات — وخاصة في الوقت الحاضر — إهمال سكان هذه المناطق من حيث التعليم والصحة والأمن والترفيه ، وإذا ما توفرت الرغبة في تحقيق هذه الخدمات بالنسبة للمجتمعات الريفية بطريقة مرضية لا بد أن تظهر مشاكل أخرى . ولا بد من تنظيمات جديدة تناسب خطط الإصلاح المزمع تنفيذها . وهكذا أصبح كل مواطن — اليوم — يدرك أن تغير حجم السكان — في مجتمعه المحلي أو في دولته أو في الإقليم الذي يضم دولته — يؤثر عليه بصفة مباشرة وكذلك على أسرته ومن ثم كان لا بد لهذا

المواطن أن يبدي اهتماماً بتغيرات أحجام السكان ، ويزايد هذا الإهتمام بزيادة درجة الوعي والثقافة بين الأفراد ، ولذلك كان الوعي السكاني في المدن أكثر منه في الريف .

هذه المشاكل الإجتماعية التي تبرز نتيجة لزيادة حجم السكان في المجتمعات المحلية . نجد مثلها يبرز على نطاق أوسع بين ولايات الدولة الواحدة أو أقاليمها . أو بين الأمم على نطاق عالمي ففي الولايات المتحدة الأمريكية مثلاً يزايد السكان في الولايات بمعدلات متفاوتة . وقد خلق ذلك مشكله فيما يتعلق بالتمثيل النيابي في المجالس التشريعية . فهل يكون التمثيل على أساس عدد السكان أو على أساس الولايات أو الأقسام الإدارية فيها . وفي لبنان يقوم العرف السياسي على أن يكون رئيس الجمهورية « مارونيا » ورئيس الوزراء « مسلمياً » . وقد استند هذا العرف على أساس أن المارونيين عددهم ٥٥٪ من مجموع السكان والمسلمين عددهم ٤٥٪ من مجموع الكلي ، والآن يطالب المسلمون بإلغاء هذا العرف وغيره من القواعد المترتبة على أساس أن نسبة المسلمين زادت وتفق الآن نسبة الموارنة ، ويرد عليهم الآخرون بأن مظاهر النشاط الاقتصادي ما زالت مركزة في أيديهم وأن السلطة التشريعية لا بد أن تكون ممثلة للمصالح المختلفة في البلاد . الخ هذه الأمور وما إليها كان لا بد أن تجذب اهتمام العلماء بمسائل السكان وتزايدهم أو تناقصهم وتوزيعهم من حيث الفئات والأديان ، الخ . وفي المجال الدولي ظهرت على مسرح السياسة العالمية عدة مشاكل نعزى في المقام الأول إلى الاختلاف والتباين في معدلات نمو السكان في دول وأمم معينة ، الأمر الذي من شأنه في المدى الطويل — ما دامت القوة السياسية political power تعتمد على حجم السكان — حدوث تغيرات دولية عميقة المغزى ، وقد شهد القرن الماضي ونصف القرن الحالي تغيرات من هذا النوع ففي أول إحصاء أجرى في الولايات المتحدة

سنة ١٧٩٠ كان عدد السكان فيها يبلغ حوالي $\frac{1}{4}$ من سكان «أوروبا» ، بينما الآن يبلغ تعداد سكان الولايات المتحدة ربع سكان «أوروبا» ولعل هذا يعال العزلة التقليدية التي سارت عليها الولايات المتحدة فيما يختص بالسياسة العالمية طوال القرن التاسع عشر وحتى مطلع هذا القرن ، كما أن هذا التغير في حجم السكان ذاته يمكن أن يساهم في تعليل الموقف الحاضر في السياسة العالمية التي تقف الولايات المتحدة في احد جانبيها كـ عيمة للكتلة الغربية — أو ما يسمى أحياناً — بالعالم الحر . وفي مطلع القرن التاسع عشر كان سكان فرنسا يعادلون تقريباً سكان المناطق التي أصبحت فيما بعد ألمانيا الموحدة ، ولكن عند اندلاع نيران الحرب الأولى سنة ١٩١٤ كان سكان فرنسا حولي ٣٩,٨ مليون بينما كان سكان الامبراطورية الألمانية ٦٧,٨ مليون نسمة ^[١] ولاداعي لمواصلة عمل مثل هذه المقارنات هنا ، فكل ما نريد توضيحه هو أن هناك بعض التغيرات السكانية التي قد يترتب عليها تغيرات سياسية أو دولية وخاصة فيما يتعلق بمكانة الدولة السياسية . وستظل مثل هذه التغيرات الديموجرافية على أهميتها في المستقبل من حيث المساهمة في تحديد مركز الدولة أو الأمة في محيط السياسة العالمية . ولا يعني هذا بالمرّة أن عدد السكان في الدولة هو العامل الأوحد في تحديد مكانتها السياسية على المسرح الدولي فلا شك أن هناك عوامل أخرى عديدة تتضافر مع العامل الديموجرافي في تحديد هذه المكانة ^[٢] ولناخذ الصين كمثل يوضح وجهة النظر هذه . فالصين تمثل — من خمسة عشرة سنة — أكثر دولة في سكان العالم ، ولكن مكانة الصين من حيث قوتها الدولية يختلف الآن عنه منذ خمسة عشر عاماً .

ومن الجوانب الأخرى المهمة للتغير السكاني الذي جعل الاهتمام يتزايد

Frank W. Notestein : The Future Population of Europe and the Soviet union, p. 75, Geneva, 1941

أكثر وأكثر بدراسات السكان ذلك الجانب الخاص بتوزيعهم distribution of pulation . فالتغير في توزيع السكان في منطقة معينة ، أو مساحة بذاتها ، يعزى بصفة رئيسية إلى التغير في الأهمية النسبية لنشروب النشاط الاقتصادي فمثلا المنطقة التي تقع فيها الآن قناة السويس كان عدد السكان فيها قليل جداً بالقياس إلى جهات القطر الأخرى قبل شق القناة ، ولكن بعد حفر قناة السويس حدث تغير ديموجرافي كبير في المنطقة لدرجة أنه ظهرت مدن جديدة لم تكن لها وجود من قبل ، وهذا الكلام يصدق على الحلة الكبرى ، وكفر الدوار ، وحلوان .

وهناك جانب آخر يتصل بتغير توزيع السكان على الأرض من زاوية الموارد الطبيعية ، فالعلاقة بين أعداد السكان وموارد الغذاء هي التي تحدد إلى حد ما مقدار الرفاهية الاقتصادية للإنسان man's economic welfare فهذا الجانب من مشكلة السكان كان هو الآخر من العوامل التي نهت الأذهان إلى أهمية الدراسات السكانية ، ولقد أصبحت التغيرات السريعة في كثافات السكان في مختلف البقاع بالإضافة إلى التغير الهائل في مقدار ما يخص كل فرد من مصادر الثروة كنتيجة منطقية لتغير الاكتشافات ، أصبحت هذه التغيرات موضوعاً يدور حوله عدد من الأسئلة أبرزها ماهي العلاقة بين رفاهية الفرد وتوزيع السكان في مناطق العالم ومعايير الرفاهية الإنسانية ؟ وما هي علاقة هذا التوزيع بقضية السلام العالمي وخاصة إذا ما فاقَت الزيادة السكانية الزيادة في موارد الثروة الغذائية ؟

والتغير في توزيع السكان قد يكون له أيضاً أثر كبير على المواليد ، وينتج هذا الأثر عن الحقيقة السائدة في هذه الأيام والتي تقول ، إن توزيع السكان في المناطق الصناعية يرتبط أشد الارتباط باستعداد أفراد هذه المناطق بأن لا ينجبوا أطفالاً إلا بالقدر الذي يحفظ عدد السكان دون تناقص ، وإن كانت المدن الكبيرة وخاصة

في أمريكا وأوروبا لم تحافظ حتى على هذا المستوى فعدد الأطفال المولودين في مثل هذه المدن الكبيرة لا يكاد يكفي لحفظ عدد السكان على مستواه دون ما تناقص ، بينما نجد أن ريف هذه البلاد (الأوربية والأمريكية) ينبغي عدداً من الأطفال يكفي للمحافظة على نسبة عدد السكان بل ويؤدي بهم إلى التزايد السريع ، ويتساءل العلماء عما إذا كان هذا التناقص في عدد المواليد في المدن الكبرى ما هو إلا نتيجة ظاهرة التدين urbanization ، أم هو اتجاه موروثة في الحياة الحضرية للعالم المعاصر ، وإلى الآن لم يكشف عن أى العالمين هو الأعمق فاعلية في خلق هذه الظاهرة الديموجرافية ، ومن المؤكد أنه إذا كانت هذه الظاهرة — تناقص معدل المواليد في المدن — ترجع إلى العامل الأخير ، أعني أنها اتجاه موروثة في الحياة الحضرية للعالم المعاصر ، فإن معنى ذلك أن تشهد هذه المجتمعات الصناعية تناقصاً حاداً في عدد سكانها ، ولن تتمكن من تعويض تناقص مواليد المدن بمواليد الريف لأن أغلبية السكان في هذه المجتمعات تسكن المدن. وقد ناقش العلاقة طر مسون هذه المشكلة في كتابه : « مشكلات السكان » (١) . وحتى قبل انتشار الأفكار الخاصة بضبط النسل الاختياري في المدن ، توقع عدد من المفكرين ، أن المدن ، لكي تحافظ على عدد سكانها ، لا بد أن تعتمد بصورة رئيسية على الهجرات التي تفد إليها من الريف أو من الخارج — وخاصة في مدن أمريكا — كما أنه من العوامل التي ساعدت على احتفاظ المدن بكثافتها السكانية الانخفاض الملحوظ في معدل الوفيات . ولا يمكننا ونحن بصدد ذكر العوامل الاقتصادية والاجتماعية والسياسية المترتبة على التغير في توزيع السكان وكثافتهم بشكل معين ، لا يمكننا أن نغفل ذكر ماطرأ من تغير في وسائل الحرب وأساليب القتال منذ سنة ١٩٣٥ فإن تطوّر صناعة الطائرات وتقدمها الملحوظ

(١) Thompson, Population Problems P 5.

منذ ذلك التاريخ واستخدام الطائرات كحاملات للقنابل واكتشاف
القنبلة الذرية والهيدوجينية ، وأخيراً اختراع الصواريخ عابرة القارات
والمحيطات ، بل عابرة طبقات الهواء الجوي والفراغ المحيط بالكرة
الأرضية . . . هذا التطور الذى شهده عالمنا فى الربع قرن الأخير
كان له أثره فى التفكير السكاني وخاصة فى أمريكا وأوروبا فقد أصبح
من المرغوب فيه أن يتوزع كل من السكان والصناعات الحيوية فى جهات
مختلفة من أرض الدولة ، وهذا الاعتبار جديد فى توزيع السكان ، وإن كان
الاهتمام به لم يأخذ بعد صورة جدية . إلا أنه من الجلى أنه لم تسارع الحكومات
لوضع الخطط الكفيلة بمنع الحرب ، فانها - أى الحكومات - ستجد
نفسها مرغمة لأن تغطى هذا الاعتبار الاستراتيجى الأهمية الأولى فى تخطيطها
لتوزيع السكان وخاصة فى المراكز الصناعية والتجارية . ولا يمكن لمفكر -
والحال هذه - أن يتجاهل خطورة الوضع السكانى الحالى وخاصة فى البلاد
المتقدمة - من حيث تركز السكان والصناعة وأجهزة الإدارة الحيوية
للاقتصاد القومى فى عدد قليل من المدن الكبرى ، ويصف العلامة طومسون
مثل هذا الموقف بأنه مغامرة كبرى مادامت إمكانية وقوع الحرب متوفرة .
ولقد زاد الاهتمام بهذا الموضوع وتناولته الصحافة والأذاعة
والكتب السيارة بالإشارة . حتى أصبح رجل الشارع يهتم بهذا الموقف
العجيب الذى تفاعلت فيه ظاهرتا التقدم التكنولوجى والتغير الديموجرافى .
وهناك ناحية أخرى تتصل بتغير توزيع السكان ، وتضاعف من إهتمام
الناس بالمسائل الديموغرافية ، هذه الناحية هى المشروعات الاقتصادية
وخاصة فى البلاد الرأسمالية ، فحيثما يتوفر السكان وتشتد كشافتهم يكون
هنالك يد عاملة منخفضة الأجر ، وأسواق لتصريف البضائع ، ودورات
سريعة للنقود ، ومن ثم نجد أن رجال الأعمال يولون مسألة توزيع السكان

وكشافتهم بالغ الأهمية لاتصالها بدائرة نشاطهم .

وهناك اعتبار هام لدراسة التغير السكاني هو محاولة معرفة تأثير هذا التغير في أحوالنا الاجتماعية . فلا مفر — ونحن ندرس تكوين السكان ، Composition of the population — من أن ندرس معها كيف يؤثر هذا التكوين في حياتنا الاجتماعية من وجوه شتى ، ولا شك أن مثل هذه الدراسة ستجد لها صدق عميقاً وإهتماماً بالغاً في نفوسنا . ولعل أبرز الخصائص أو السمات الديموجرافية التي تكون محل إهتمامنا ، هي تلك المتعلقة بفئات السن age والجنس sex والتركيب السلاى race . ومهما يكن من أمر فإن هناك عدداً من السمات الاقتصادية والاجتماعية الأخرى الهامة التي لا يمكن إغفال دراستها إذا كنا نريد الإلمام بالفروق والاختلافات التي تميز بمجموعاتنا السكانية عن غيرها من المجموعات . فالاختلافات في سمات ديموجرافية بين المجموعات السكانية سواء في نسب الذكور والإناث، أو في فئات السن ، أو في نسب المنتمين إلى وحدات جنسية مختلفة في المجتمع الواحد ، هذه الاختلافات تسبب في خلق ظروف إجتماعية متباينة ، تتفاوت من مجتمع إلى آخر . كذلك نلاحظ أن هناك بعض الخصائص التي تختلف من جماعة لأخرى ، والتي يكون لها سمة خاصة أو دلالة معينة بحيث تؤثر في الرفاهية العامة للناس . ولعل أبرز هذه السمات هي ما يتعلق بالحالة الزوجية للأفراد وأحوالهم التعليمية ، وتوزيعهم من حيث الأعمال والمكانة الاقتصادية economic status ومعتقداتهم الدينية ، واستيطانهم في الريف أو الحضر ، وجنسيتهم ، ولغاتهم ولهجاتهم .

المبحث الثاني عوامل التغير السكاني

أهم العوامل التي تلعب دورها في التغير السكاني من الناحية الكمية (١) المواليد .

(٢) الوفيات .

(٣) الهجرة .

أولا : نسبة المواليد .

ويقصد بهذه النسبة عادة عدد المواليد في سنة معينة لكل ألف من السكان، وتستخرج هذه النسبة بقسمة عدد المواليد في سنة معينة على عدد السكان في نفس السنة مضروباً في ألف . وترتفع نسبة المواليد في مجتمعات بينما تنخفض في أخرى ، والجدول الآتي يوضح ذلك .

النسبة العامة للمواليد	الجهة
٤٥	الهند
٤٣	مصر
٤٠	البرازيل
٣٠	اليابان
٢٤	الولايات المتحدة الأمريكية
١٨	انجلترا
١٣	فرنسا

جدول يبين نسبة المواليد في بعض دول العالم

وكان يظن قديماً أن الأجناس تختلف في قدرتها على التناسل ، ولكن الأبحاث الحديثة أثبتت أن القدرة على التناسل واحدة عند كل الأفراد على اختلاف طبقاتهم وأجناسهم وبيئاتهم ، غير أن الاختلاف في نسبة المواليد ترجع إلى عوامل مختلفة قد تكون سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية أو ثقافية وغير ذلك .

ويمكن أن نلخص بعض العوامل التي تؤدي إلى خفض نسبة المواليد فيما يلي :

١ - نشر التعليم ، فالمتعلم أقدر من الجاهل على تحديد مركزه الاجتماعي ،

وانتجكم في هذا المركز إلى حد كبير بمختلف الوسائل ومنها تحديد أنسأله .

٢ — حياة المدينة ، حياة البساطة في الريف تؤدي إلى ارتفاع نسبة المواليد ، بينما حياة المدينة وتنوع أعمالها ، ومحاولات الأفراد للانتقال من طبقاتهم الدنيا إلى طبقات أعلى ، يؤدي إلى انخفاض نسبة المواليد ، أضف إلى ذلك تنوع وسائل الترفيه في المدينة عنها في الريف .

٣ — فتح مجال العمل للمرأة ، مما يؤدي بها إلى العمل على تحديد النسل حتى لا يشغلها الأولاد عن عملها خارج المنزل .

٤ — محاولة زيادة دخل الأفراد يقلل عادة من نسبة المواليد ، ويؤيد هذا ما وجد إحصائيا من أن نسبة المواليد بين الفقراء أعلى منها بكثير بين الأغنياء .

٥ — استعمال وسائل تحديد النسل ، إذا كانت عقيدة البلد وتقاليدها تسمح بذلك ، وكانت الظروف الاجتماعية والسياسية تحتم تحديد النسل للحد من زيادة عدد السكان المطردة .

ولعلنا نلاحظ أثر بعض هذه العوامل في انخفاض نسبة المواليد في بلاد أوربا وأمريكا وإستاليا ، أما دول إفريقيا وآسيا فنلاحظ ارتفاع نسبة المواليد بهما .

ثانيا : نسبة الوفيات :

وهي عبارة عن عدد الوفيات في سنة معينة في مجتمع ما لكل ألف من سكان هذا المجتمع . ونجد أن نسبة الوفيات ترتفع عادة بين الأطفال الرضع لأنهم الفئة الحساسة في المجتمع وتختلف نسب الوفيات في مختلف دول العالم ويتضح لنا ذلك من الجدول الآتي :

أفطار أفريقيا	أفطار آسيا	أمريكا الجنوبية	اليابان	أوروبا	الولايات المتحدة الأمريكية
٣٠ — ٢٥	٣٥ — ٣٠	١٧	١٥	١٥ — ١١	١٠

نسبة الوفيات في مختلف دول العالم

والمستوى الإقتصادي والإجتماعي أثر كبير على هذه النسبة . والبلاد التي ترتفع فيها هذه النسبة لا شك أنها بلاد ينخفض فيها مستوى المعيشة ، وتنتشر بين أفرادها عادة ، الأوبئة والأمراض . وتعرض للمجاعات وغير ذلك من العوامل التي تقضي على عدد من السكان وتساعد على انتشار الأمراض المختلفة بينهم وتؤدي إلى الفتك بعدد كبير منهم .

أثر حياة المدينة في نسبة الوفيات :

لا شك أن حياة المدينة يؤثر تأثيراً كبيراً في نسبة الوفيات

وذلك بسبب :

(١) ازدحام المدينة بالسكان .

(٢) سوء الحالة الصحية عادة في البيئات الصناعية .

(٣) انخفاض مستوى المعيشة بين طبقة العمال وهي الطبقة الغالب

بسبب قلة الأجور ، وانتشار العادات غير الإجتماعية بينهم .

وتحاول كل دولة جاهدة العمل على خفض نسبة الوفيات فيها بشتى

الوسائل ، فدليل رقي الأمة والعناية بالأفراد ، هو انخفاض نسبة الوفيات

وارتفاع مستوى المعيشة .

وتدل الإحصاءات المختلفة على التناقض الملموس في نسب الوفيات

خلال الخمس عشرة سنة الأخيرة يقدر بحوالى ٢٦ ٪ في مصر وبمتوسط

٤٠ ٪ في بعض البلاد الأخرى التي كانت تعتبر من ذات النسب العالية

في الوفيات كما يتضح لنا من الإحصائية التالية .

١ - مصر	١٩٣٣	١٩٥١	٢٦٠٩	١٩٣٥ - ١٩٣٩
٢ - المكسيك	١٥٠٤	١٩٥٣	٢٣٠٣	" "
٣ - شيلي	١٣٠٢	"	٢٣٠٣	" "
٤ - سيلان	١٠٠٩	"	٣٤٠٥	" "
٥ - الهند	١٥٠٠	"	٢٢٠٦	" "
٦ - اتحاد الملايو	١١٠٢	١٩٥٢	٢٢٠١	" "
٧ - مالطة	١٠٠٧	"	٢٠٠٣	" "
٨ - نيوزيلند	١٢٠٣	١٩٥٣	٢٠٠٠	" "

كما أن البلاد التي تقدمت صحياً قد انخفضت فيها نسبة وفيات الأطفال الرضع انخفاضاً ملموساً ، فقد بلغت نسبة وفيات الأطفال الرضع في مصر سنة ١٩١٧ - ٢٥١ في الألف ونقصت هذه النسبة إلى ١٦٠ في الألف سنة ١٩٣١ ثم إلى ١٥٠ في الألف سنة ١٩٤١ وبلغت سنة ١٩٥١ - ١٢٩ في الألف في حين أنها في البرازيل بلغت ١٦٠ في الألف وفي الهند ١٧٠ في الألف وفي اندونيسيا ٢٠٠ في الألف (١)

ثالثاً - الهجرة :

وهي العامل الثالث من عوامل التغير السكاني ، الذي يؤثر في تغير حجم المجتمع زيادة أو نقصاناً . ونظراً لأهمية هذا العامل فقد رأينا أن نخصص له الفصل التالي :

الفصل التاسع

هجرة السكان وتنقلاتهم

يعتبر الإنسان أوسع الكائنات الحية انتشاراً ، فالنوع البشرى على عمر التاريخ لم يثبت فى بيئة واحدة ولم يستقر فى مكان واحد ، ونراه إذا ما انتقل إلى بيئة ما ، فإنه يلجأ إلى الانسجام أحياناً مع مقتضيات هذه البيئة ، أو أنه يعمل على التغيير والتبديل فى هذه البيئة حتى تلائم حاجاته ومطالبه .

وهكذا استوطن الجنس البشرى كل أطراف المعمورة ، فهو شغوف منذ حياته الأولى ، بالتنقل والحركة وكثرة التجول . غير أن هذا الإنسان لا نراه ينتشر فى كل بقاع الأرض بدرجة واحدة ، بل إنه حينما يستطيع أن يوفر لنفسه الرزق الوفير ، والخير الكثير ، يتكاثر ويتكاثر عدده ، ومن هنا كان توزيع الإنسان على بقاع الأرض توزيعاً غير منتظم . وانتقالات السكان على نوعين :

١ - انتقالات داخل حدود الدولة الواحدة ويطلق عليها الهجرة الداخلية

٢ - انتقالات من دولة إلى أخرى وتعرف بالهجرة الخارجية ،

والهجرة سواء كانت داخلية أم خارجية فإن الباعث عليها هو رغبة الإنسان فى تحسين حالته .

(أولاً) الهجرة الداخلية :

وهى الهجرة التى يقوم بها أفراد الوطن الواحد إلى الجهات التى تنوفر فيها أسباب الكسب والرزق ، وقد يكون ذلك لفقر بيئاتهم المحلية أو لاكتظاظها بالسكان وما يتبع ذلك من انخفاض الأجور أو تفشى البطالة . وكانت أوضح مظاهر الهجرة الداخلية فى العصر الحديث انتقال أعداد كبيرة من أهل الريف إلى المدن ، وكان ذلك على أثر الانقلاب

الصناعى وما تطلبه من وفرة الأيدى العاملة فى بلاد كالولايات المتحدة الأمريكية كان سكان الريف حوالى ٨٧ ٪ فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ولكن حالما شهدت هذه البلاد بؤادر الثورة الصناعية نقصت نسبة سكان الريف الأمريكى إلى ٦٥ ٪ تقريباً فى أوائل القرن العشرين .

وفى إنجلترا كان سكان الريف عام ١٨٥٠ حوالى ٤٩ ٪ ثم تناقص بعد ذلك بسرعة لم يسبق لها مثيل فى أى بلد آخر إذ أصبحت هذه النسبة ٢٨ ٪ فى عام ١٨٩٠ ، ٢١ ٪ فى عام ١٩١٠ ثم ٢٠ ٪ فى عام ١٩٣٠ ولا يزال سكان الريف فى تناقصهم المستمر نتيجة الهجرة إلى الحضر .

وفى فرنسا كان سكان الريف يبلغون ٧٥ ٪ من المجموع الكلى للسكان فى أواخر القرن التاسع عشر فنقص هذا العدد إلى النصف تقريباً فى مطلع القرن العشرين .

وقد لوحظ هذه الظاهر بصورة عامة فى كل البلاد التى شملتها الثورة الصناعية مثل ألمانيا وإيطاليا وروسيا ^(١) .

أسباب الهجرة من الريف إلى المدن :

١ - انهيار النظام الاقطاعى وتحرر الفلاحين من رق الأرض .
فتعرفت لهم الحرية فى الانتقال والإقامة حيثما يريدون ، وكانت إنجلترا وألمانيا من أسبق الأمم التى شهدت انهيار النظام الاقطاعى ، وكان تحرر الفلاحين فى الدولتين من الأسباب التى ساهمت فى الهجرة من الريف إلى المدن .

٢ - أدى سوء توزيع الملكية الزراعية فى بلاد أخرى كفرنسا

وأسبانيا ودول وسط أوروبا إلى هجرة أهل الريف إلى المدن سعياً وراء رزق أوسع ، ومستوى مادي أعلى .

٣ — الثورة الصناعية وما كانت تتطلبه من أيدي عاملة كثيرة أدت إلى جذب سكان الريف وتركيزهم حول المناطق الصناعية ، وقد اشتدت الهجرة إلى المناطق الصناعية ، خصوصاً بعد صدور تشريعات عمالية أدت إلى تحسين حال عمال الصناعة والتجارة في المدن ، وقضت على المساوىء التي صاحبت العهود الأولى للثورة الصناعية في أوروبا .

٤ — قيام الحكومات بتنظيم المدن وتنسيق الخدمات فيها والقيام بأعمال الرعاية الاجتماعية . وغنى عن الذكر أن استئثار المدن بهذه الخدمات جعلها هدفاً للمرجات متتالية من الهجرة الداخلية وللكثير من الجماعات النازحة من الريف رغبة في التمتع بهذه الخدمات والمزايا .

٥ — اتخذ المدن كمراكز إدارية وتجارية واجتماعية وثقافية فامتازت بنشاطها العمراني ، ولذلك أصبحت مهبطاً لأصحاب الأعمال والمصالح ورجال التعليم والمهنيين على الشؤون العامة في المجتمع .

٦ — ازدخار المدن بحياة الترف ومظاهر التدين والتحضر ، ففيها دور السينما والمسرح ، وفيها المقاهي والأندية ودور التسلية والترفيه ، كما تتوفر فيها ضروب شتى من اللذات والمتع غير البريئة لمن يطلبها ، وفيها الحدائق والعمارات السكنية المريحة ووسائل المواصلات السريعة . . . الخ فلا عجب أن تصبح حياة المدينة مطلباً لكل إنسان يؤثر حياة الترف .

٧ — أن التشريعات العمالية بما تؤدي إليه من تحسين حال المتمتعين بأحكامها كانت مقصورة في أول الأمر على عمال الصناعة والتجارة ، دون العمال الزراعيين .

ولا شك أن هذا النزح من الهجرة يؤثر تأثيراً كبيراً في الحياة الاقتصادية

والاجتماعية ، فازدحام المدن بالسكان يثير كثيراً من المشكلات . كمشكلة السكن والصحة العامة والمواصلات . الخ . كما يؤدي تركز العمال في المدن إلى إيجاد بيئة صالحة لنشر الأفكار النورية ، هذا إلى وجرد فريق كبير منهم بدون عمل يصبح خطراً يهدد الأمن العام .

(ثانياً) الهجرة الخارجية :

وهي على ثلاثة أنواع :

١ — فصلية : وهي التي تحدث أثناء فصل معين من فصول السنة ، والعودة بعد انتهائها ، كهجرة العمال الزراعيين الإيطاليين إلى فرنسا في فترة الحصاد وجمع الكروم ، ورجوعهم إلى بلادهم بعد انتهاء مواسم الحصاد .

٢ — وقتية : وهي التي لا تحدث في فصل معين ولكن العامل ينتقل ويمكنه في الخارج سعياً وراء الرزق لمدة تطول أو تقصر ، بغية العودة . إلى بلاده ثانية ومن أمثلتها هجرة الفلانة في السودان .

ولا يعتبر هذان النوعان من الهجرة ذات أهمية كبرى في الناحية الديموجرافية السكانية وإنما الهجرة التي لها آثار إيجابية هي :

٣ — الهجرة الدائمة :

وفيها يقصد المهاجر إلى ترك وطنه الأصلي نهائياً والاستقرار في الدولة المهاجر إليها . والهجرات الدائمة قديمة قدم التاريخ بل هي سابقة للعصور التاريخية ، وأكثر شعوب الأرض اليوم يرجع أصلها إلى هجرات قديمة أو هجرات في العصور التاريخية الوسيطة والحديثة .

والهجرة الدائمة قد تكون فردية أو جماعية عضوية أو منظمة . فقد تكون الهجرات بمقتضى اتفاقات دولية ، كتبادل السكان بين تركيا

واليونان ، وإيطاليا وألمانيا عقب الحرب العالمية الأولى . وهناك ما يعرف بالهجرات الجماعية مثل تلك التي تمت خلال الحرب العالمية الثانية وبعدها في أوروبا الوسطى والشرقية واتخذت أحيانا شكل الاجلاء أو الطرد وخلقت في العالم مشكلة اللاجئين .

ومن الهجرات الدولية تدفق الأوربيين على أمريكا وأستراليا بعد اكتشاف الذهب فيهما . ويقدر عدد المهاجرين إلى أمريكا منذ بداية القرن التاسع عشر حتى الحرب العالمية الأولى بخمسين مليونا .

مصر (ثالثا) الهجرة القسرية :

وهي الهجرة التي يجبر عليها الأفراد قسرا ، ومن أوضح الأمثلة على هذا النوع من الهجرة تلك التي تعرض لها اليهود خلال فترات التاريخ فمثلا قام الملوك « فيروز ، و « قباب ، و « انوشروان ، في القرنين الخامس والسادس باضطهاد اليهود ، وفي سنة ٥٨١ طردوا نهائيا من فارس ، ما عدا فئة قليلة منهم اعتنقت الإسلام :

وقد اضطر الملك « فيليب ، إلى طرد اليهود من فرنسا بعد أن جمعوا ثروة الشعب الفرنسي في أيديهم ، وقد تم طردهم نهائيا من فرنسا خلال عام ١٣٩٤ على يد الملك شارل .

ومن الأمثلة على الهجرات القسرية أيضا نفى المجرمين من بريطانيا إلى أستراليا كما كانت فرنسا إلى أجل قريب تنفي مجرميها إلى « غينيا » ، وكذلك يدخل ضمن هذا النوع من الهجرة نفى الروسيين الأحرار إلى سيبيريا في العهد القيصري ، وكذلك نقل الزوج عنوة من أفريقيا إلى أمريكا خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر للاستفادة منهم في أعمال الزراعة والتعدين وخاصة في الولايات الجنوبية من الولايات المتحدة الأمريكية .

ويمكن أن يعتبر من الهجرات القسرية اضطراب الأفراد أو الجماعات إلى ترك موطنهم بسبب أحداث طبيعية قاهرة كالجفاف أو الطوفان أو تبدل المناخ .

وبين الهجرات القسرية والطوعية حالات تمت إلى النوعين معا . فهجرة الجزائريين إلى فرنسا مثلاً يحملهم عليها تعذر سبل الرزق وانخفاض مستوى المعيشة في بلادهم نتيجة لخطط الفرنسيين المستعمرين .

والسبب الأول لتبديل الموطن هو الرغبة في الإثراء أو على الأقل الحصول على دخل أكبر مما كان في الوطن الأصلي . إلا أن العامل الاقتصادي لا يعلل وحده جميع الهجرات التي شهدتها الإنسانية . فكثيراً ما يهاجر الأفراد أو الجماعات أو يطردون بسبب فقدان التلاؤم مع المحيط الاجتماعي سياسياً أو اتنولوجياً أو دينياً . فقد كانت العوامل الدينية هي التي اضطرت المسلمين الأوائل إلى ترك مكة إلى المدينة ، وإلى هجرة البروتستانت إلى أمريكا بعد حركة الإصلاح الديني ، وإلى فرار المسلمين من الأندلس . وكانت العوامل السياسية والمذهبية هي الدافع في ترك كثير من الروس البيض بلادهم بعد اعتنائها الشيوعية كما كانت هذه العوامل هي الدافع في ترك الديمقراطيين الإسبان بلادهم والتجأهم إلى فرنسا بعد انتصار فرانكو (١٩٣٨ — ١٩٣٩) وقد تمتد العوامل الاتنولوجية والدينية معاً فتسكرون دافعاً قوياً للهجرة كطرد العرب واليهود من أسبانيا بعد ضعف الحكم العربي فيها ، وكذلك طرد الأرمن من تركيا بعد الحرب الأولى ، وإجلاء الألمان عن منطقة السوديت في تشيكوسلوفاكيا بعد الحرب العالمية الثانية .

ومع ذلك فإن العامل الاقتصادي يظل أقوى العوامل في الهجرات وكثيراً ما دعت إليها حكومات البلاد المهاجر إليها وسهلت سبلها بمختلف وسائل الدعاية والتشجيع ، وخاصة في أعقاب الحروب .

والملاحظ أن الهجرة تكون في الغالب من البلاد الزراعية ذات الضغط الشديد بالسكان إلى بلاد أقل سكاناً وأغنى بالموارد الأولية ، كهجرة الهنود إلى جنوب إفريقيا ، وهجرة السوريين واللبنانيين إلى الأمريكيتين ، وكذا هجرة اليابانيين إلى منشوريا .

والبلاد الصناعية هي الأخرى وفي أحيان قليلة قد ترسل المهاجرين إلى بلاد أخف ازدهاماً بالسكان كما هو الحال في إنجلترا التي لم يتزايد عدد سكانها المقيمين على الجزر البريطانية منذ ربع قرن وذلك بسبب موجات الهجرة الدائمة الخارجة منها إلى استراليا وكندا ونيوزيلندا .

وأحيانا تفتقر أو تعاني البلاد الصناعية قلة في الأيدي العاملة ، فتشجع الهجرة إليها ، وهذه الظاهرة واضحة كل الوضوح في فرنسا التي تستقبل على الدوام أفواج المهاجرين من المغرب العربي ومن بولندا وبلجيكا وإيطاليا لتشغيلهم في المناجم أو في الأعمال الشاقة وخاصة تلك التي يحجم عنها الفرنسيون . وقد بلغ عدد الأجانب الذين وفدوا إلى فرنسا للإقامة فيها بصفة دائمة حوالى ثلاثة ملايين نسمة وكان ذلك في سنة ١٩٣٨ . ويورد العلامة P. George في كتابه :

« Introduction à l'étude géographique de la population du monde, p. 272.

يورد الإحصائية التالية عن عدد الأجانب المهاجرين إلى فرنسا في عام ١٩٣٨ :

الجنسية الاصلية	العدد
إيطاليون	٨٥٠,٠٠٠
إسبانيون	٦٥٠,٠٠٠
بولونيون	٥٠٠,٠٠٠
بلجيكيون	٢٠٠,٠٠٠
سويسريون	٨٠,٠٠٠
روسيون	٧٠,٠٠٠
ألمانيون	٧٠,٠٠٠
برتغاليون	٤٨,٠٠٠
تشيكوسلوفاكي	٤٠,٠٠٠
بريطانيون	٤٠,٠٠٠
أتراك	٣٥,٠٠٠
أرمن	٢٩,٠٨٠
الكمبودجيون	١٦,٠٠٠
هنغاريون	١٥,٠٠٠
زنوج إفريقيون	{ ٥٠,٠٠٠
مهاجرون	
متنوعون	
جزائريون	{ ٥٠٠,٠٠٠
مراكشيون	
تونسيون	
المجموع	٣,١٩٢,٠٠٠

وهكذا تصل نسبة الأجانب المتوطنين في فرنسا إلى ٨٪ من مجموع السكان تقريبا .

وهناك مثال آخر يورده نفس المؤلف في نفس المرجع ص ٢٧٤ عن بلد أيبس سكانه القدماء تقريبا ، وتسكن سكانه الحاليون نتيجة الهجرات المتكاثفة . هذا البلد هو الولايات المتحدة الأمريكية .

البلاد العربية والهجرة

شهد الوطن العربي الكبير ضروبا شتى من الهجرات الداخلية والخارجية على مدى التاريخ ، وبعيننا الآن أن نتعرف على الهجرات العربية الحديثة . ويلاحظ بصفة عامة أنه فيما يختص بالهجرة شهد العالم العربي ظاهرتين واضحتين كل الوضوح أولهما أن قطاعات من هذا العالم العربي قد استهدفت لهجرات وفدت إليها من الخارج بصورة منظمة ومقصودة أكثر منها عفوية أو وقتية ، وبصورة مرسومة هي أقرب للعدوان المستتر أو الاستعمار التدريجي منها مجرد سعى تلقائي وراء الرزق أو زيادة الكسب . وهذا النوع من الهجرة المنظمة استهدف بوجه خاص قطاعين من أهم قطاعات العالم العربي ، وهما فلسطين والجزائر ، هذا عدا هجرات خارجية طبيعية وفدت على الإقليم المصري منذ أواخر القرن التاسع عشر واستمرت إلى الربع الأول من القرن العشرين .

أما الظاهرة الديموجرافية الثانية الواضحة كل الوضوح فيما يختص بالهجرة في العالم العربي . فهي مهاجرة أعداد كبيرة من بلاد الشام وخاصة سورية ولبنان إلى خارج العالم العربي وبخاصة إلى الأمريكتين واستوطنهم هناك ، وقد عرف هؤلاء فيما بعد باسم المغتربين العرب Arab Emigrants .

وسنتكلم عن هاتين الظاهرتين بتفصيل أكثر في الفقرات التالية :

١ - تيار الهجرة الخارجية إلى فلسطين

استهدفت الحركة الصهيونية استيطان اليهود أرض فلسطين ، وقد بدأت الحركة خلال السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر .

وكان أول تحقيق عملي لفكرة الاستيطان اليهودي في سنة ١٨٣٧ على يد اليهودي « مرسى مونتفيور M. Montfioire » الذي أنشأ أول مستعمرة يهودية في أرض فلسطين التي كانت أبان ذلك الوقت تحت الحكم المصري واستطاع مونتفيور أن يحصل على ضمانات من الدولة العثمانية بالحماية والإميازات وذلك بعد زوال حكم صديقه محمد علي .

على أن الهجرة اليهودية بدأت تأخذ شكلها المنظم في أواخر القرن التاسع عشر بعد ظهور الصعبي النمساوي « تيودور هرتزل Hertznel » فحتى منتصف القرن التاسع عشر لم يزد عدد اليهود في فلسطين عن ١١,٨٠٠ نسمة ووصل في سنة ١٨٨٢ إلى ٢٤,٠٠٠ نسمة . إلا أنه لم تذكر كتابات اليهودي هرتزل تظهر في الوجد و خاصة كتابه « الدولة اليهودية Jewish State » حتى بدأت وفرد الهجرة تترى على أرض فلسطين وخاصة بعد أن رعاها بالمال والعتاد اليهودي الرأسمالي « آدمون دي روتشيلد » .

ويمكن تقسيم توافد اليهود على أرض فلسطين إلى عدة موجات ، الأولى تبدأ من سنة ١٨٨٢ وتنتهى سنة ١٩٠٣ ، وفي هذه المرحلة تأسست مستعمرات ثلاث ،

وبلغ عدد اليهود الذين وفدوا على فلسطين في هذه المرحلة حوالى ٢٥,٠٠٠ أغلبهم من روسيا القيصرية ودول أوروبا الشرقية .

والموجة الثانية من موجات الهجرة هي التي استمرت فيما بين سنتي ١٩٠٤ و ١٩١٣ حيث بلغ عدد المهاجرين ٤٠,٠٠٠ تقريباً ولم يأت عام ١٩١٤ حتى كان العدد الإجمالى لليهود في فلسطين حوالى ٨٥,٠٠٠ وفي هذه المرحلة

تأسست مدينة « تل أبيب » عام ١٩١٠ ولعل المميز للموحيد لهذه الموجة من الهجرة عن الهجرة التي سبقتها هي أنه بينما كان مهاجري الموجة الأولى في استيطانهم يتبعون نظام الملكية الفردية نجد أن مهاجري الموجة الثانية يتبعون نظام المستعمرات الجماعية التي تسير على النظام الاشتراكي حيث تنحصر الملكية في المجموع ويتوزع العمل على الأفراد؛ ولعل أقدم مستعمرة طبق فيها هذا النظام هي مستعمرة « دجانيا » التي أنشأت سنة ١٩٠٩ . في جنوب بحيرة طبرية . وهذا النظام الجماعي هو الذي طبق في الاتحاد السوفيتي فيما بعد قيام الثورة البلشفية .

وحينما قامت الحرب العالمية الأولى نفت السلطات التركية الخاكمة في فلسطين عدداً كبيراً من اليهود المشتبه فيهم ، فتناقص عدد اليهود من ٨٥,٠٠٠ إلى ٥٦,٧٠٠ . وفي نهاية الحرب صدر وعد بلفور في ٢ نوفمبر سنة ١٩١٧ .

والموجة الثالثة من موجات الهجرة اليهودية هي التي تقع فيما بين عامي ١٩١٩ و ١٩٢٣ . وفي هذه الموجة هاجر إلى فلسطين ما يقرب من ٣٥,٠٠٠ مهاجر أغلبهم من أوروبا الشرقية ، وتميز مهاجرو هذه الموجة باتباع نظام المزارع التعاونية Moshav ovidim حيث تولت كل أسرة مهاجرة استثمار مزرعة صغيرة دون الاستعانة بعمال مأجورين مع ربط مزارع المستعمرة كلها في إطار اقتصادي متكامل . وفي نهاية عام ١٩٢٢ كان عدد اليهود قد وصل إلى حوالي ٨٤,٠٠٠ .

وابتداء من سنة ١٩٢٣ شهدت فلسطين مرحلة جديدة في تاريخها فقد بدأت بريطانيا تمارس سلطاتها كدولة منتدبة على فلسطين وكان للدول مندوب بريطاني هو السير هربرت صمويل وهو من أصل يهودي ، وقد ساعد هذا المندوب في تنفيذ وعد بلفور بما يلائم مصلحة اليهود ، ومن ثم

أنشأت الوكالة اليهودية التي أصبحت هي الحاكمة الفعلية للبلاد في ظل الانتداب البريطاني ، فقويت موجات الهجرة وأنهالت المساعدات والقروض الأجنبية على يهود فلسطين، ومنحت إنجلترا لليهود أراضي شاسعة من أملاك الدولة ، وعلى العكس من ذلك سنت تشريعات غاية في القسوة طبقت على المزارعين العرب وحدهم بقصد جعلهم يتخلون عن أرضهم . في هذه الظروف وفد على فلسطين ٨١,٠٠٠ يهودي في الموجة الرابعة التي استمرت من سنة ١٩٢٤ إلى سنة ١٩٣١ وزادت مستعمراتهم حتى أصبحت حوالي ١١٠ مستعمرة . وحين ثار السكان العرب على هذه الأوضاع سنت بريطانيا تشريعاً يقضى بتحديد عدد المهاجرين بخمسة آلاف سنوياً عام ١٩٣٨؛ إلا أن الهجرة السرية لم تنقطع .

وكانت الموجة الخامسة من موجات الهجرة اليهودية في الفترة ما بين ١٩٣٢ و ١٩٣٩ وهي أشد الموجات خطراً ففي هذه الفترة اشتدت الحركة النازية في ألمانيا وهي الحركة المعادية لليهود على وجه الخصوص فأخذ يهودها يفرون إلى فلسطين وبلغ عددهم ٢٢٥,٠٠٠ مهاجر من ألمانيا ودول أوروبا الوسطى التي خضعت لها، وبذلك لم ينكسر ينصرم عام ١٩٣٩ حتى كان عدد اليهود في فلسطين قد بلغ ٤٤٢,٠٠٠ .

وقد بدأ يهود الشرق أو المعروفين « بالسفارديم » يفدون أيضاً إلى فلسطين وخاصة من اليمن وجنوب الجزيرة العربية والحبشة وأفريقيا الشمالية وتركيا وإيران .

وفي أثناء الحرب العالمية الثانية ضعف تيار الهجرة إلى حد ما ثم اشتد في أعقاب الحرب العالمية إشتداداً مروعاً وخاصة بعد حرب فلسطين وحوادثها المؤلمة سنة ١٩٤٨ تلك الحوادث التي أنهت بميلاد الدولة المعتدية « إسرائيل » على جزء كبير من أرض فلسطين . ولكن

هذه الهجرة كان لا بد أن تتف عند حد معين نظراً للضرورات الاقتصادية وضيق مساحة الأرض ولذلك فترت الهجرة ، ابتداء من سنة ١٩٥٢ ، ولكن اتجاهاً قوياً يسود الآن بين حكاه إسرائيل إلى جلب المهاجرين اليهود من شتى بقاع الأرض ووضع العرب أمام الأمر الواقع والتوسع على حسابهم ولا شك أن الحصار الإقتصادي الذي فرض على هذه الدولة كان له اثره الفعال في كبح جماح الهجرة اليهودية وريثاً يتم إستكمال حلقات الحصار الحديدية حول إسرائيل وخاصة في خليج العقبة وشل حركة ميناء إيلات .

والجدول التالي يوضح عدد المهاجرين اليهود إلى فلسطين في المدة ما بين ١٩٤٦ و ١٩٥٢ .

السنة	عدد المهاجرين اليهود
١٩٤٦	١٧,٧٦٠
١٩٤٧	٢١,٥٤٢
١٩٤٨	١١٨,٥٤٠
١٩٤٩	٢٣٩,١١١
١٩٥٠	١٧١,٩٠١
١٩٥٢	١٤,٩٢٠

راجع : الدكتور أحمد عبد القادر الجمال : من مشكلات الشرق الأوسط من مشكلة فلسطين .
والدكتور أحمد سويلم العمري : الشرق الأوسط ومشكلة فلسطين القاهرة ١٩٥٤ .

وتطور عدد اليهود الاجمالي في فلسطين على النحو التالي

السنة	العدد الإجمالي
١٩٤٥	٥٩٣,٠٠٠
١٩٤٧	٦٤١,٠٠٠
١٩٤٩	١,٠١٤,٠٠٠
١٩٥١	١,٠٤٥,٠٠٠
١٩٥٢	١,٤٣٠,٠٠٠

وفي نهاية سنة ١٩٥١ بلغ عدد السكان العرب في أرض فلسطين المحتلة ١٨٣,٠٠٠ منهم ١٢٠,٠٠٠ مسلم سن و ١٥,٠٠٠ مسلم درزي و ٣٨,٠٠٠ مسيحي . أما اللاجئين العرب الذين يعيشون على حدود الأرض المحتلة في قطاع غزة والضفة الغربية انهم الأردن وحدود لبنان وسورية حوالى مليون وربع مليون لاجئ . فيمكن اعتبارهم مهاجرين أيضا وإن كانت هجرتهم تعتبر هجرة قسرية تحت ضغط ظروف شاذة .

هذا واليهود لم يستطيعوا قبل سنة ١٩٤٨ أن يمتلكوا من أرض فلسطين أكثر من ٨ ٪ رغم المساعدات الهائلة التي كانت تنال على اليهود من شتى بقاع الأرض وخاصة من بريطانيا وأمريكا ويهود الدول الأخرى ولم تتعد ملكية اليهود في أى منطقة من مناطق فلسطين أكثر من ٣٥ ٪ من مجموع الأملاك كما يدل الجدول الآتى:

توزيع الأملاك الخاصة في فلسطين حتى عام ١٩٤٨

المناطق	أملاك العرب	أملاك اليهود
صفد	٦٨	١٨ %
عكا	٨٧	٣
طبريا	٥١	٣٨
بيسان	٤٤	٣٤
الناصرة	٥٢	٢٨
حيفا	٤٢	٣٥
جنين	٨٤	أقل من ١
نابلس	٧٦	—
طولكرم	٧٨	١٧
رام الله	٩٩	١
القدس	٨٤	٢
الخليل	٩٦	أقل من ١
يافا	٤٧	٣٩
الرملة	٧٧	١٤
غزة	٧٥	٤
بئر سبع	١٤	أقل من ١

وباستثناء منطقة بافا حيث تقع تل أبيب ظل اليهود أقلية في جميع مناطق

فلسطين حتى عام ١٩٤٨ .

نسبة العرب واليهود إلى مجموع السكان حتى سنة ١٩٤٨

المنطقة	عرب	يهود
صفد	٨٧٪	١٣٪
عكا	٩٦	٤
طبريا	٦٧	٣٣
بيسان	٧٠	٣٠
الناصرة	٧٤	١٦
حيفا	٥٣	٤٧
جنين	١٠٠	—
نابلس	١٠٠	—
طولكرم	٨٣	١٧
رام الله	١٠٠	—
القدس	٦٢	٣٨
الخليل	٩٩	أقل من ١
يافا	٢٩	٧١
الرملة	٧٨	٢٢
غزة	٩٨	٢
بئر مبيع	٩٩	أقل من ١

٢ - الهجرة إلى الجزائر

مقدمة :

كانت الجزائر هي أولى بلاد المغرب العربي التي ابتليت بالاستعمار الفرنسي ، فقد بدأت عمليات الغزو والاعتداء الفرنسي على أرض الجزائر منذ سنة ١٩٣٠ ثم احتلت تونس في سنة ١٨٨١ وأخيراً مراكش سنة ١٩١١ . وترتكز سياسة فرنسا الاستعمارية على المركزية المطلقة فيما يختص بشؤون المستعمرات ، وقد ارتبطت هذه السياسة بسياسة أخرى هي سياسة الفرنسية الجماعية وترتكز على محاولة ادماج الشعوب المستعمرة في الكيان الفرنسي ، وذلك عن طريق فرض ثقافة الفرنسيين ولغتهم ومفاهيم حياتهم ونظم مؤسساتهم السياسية والاجتماعية على شعوب المستعمرات عموماً حتى يستوعبوها ومن ثم يصبح كيانهم النفسى والثقافى فرنسياً كالفرنسيين تماماً .

ولا يهمننا هنا أن نناقش نظرية الفرنسية الجماعية ، فالذى يعنيننا هو النتائج الديموغرافية التي صاحبت التعصب لهذه السياسة ، ففي غضون سنوات قليلة من الاحتلال الفرنسي لشمال أفريقيا أخذت تيارات الهجرة تنساب إلى هذه البلاد بصفة عامة لصالحية جوها أكثر من غيرها من المستعمرات لمعيشة الأوربيين وقد استهدفت الجزائر بوجه خاص لتركيز مستمر ومتواصل لهجرة الأوربيين وبخاصة الفرنسيين والإيطاليين .

ففي مراكش وحدها بلغ عدد الأوربيين في سنة ١٩٥١ حوالى ٣٥٠,٠٠٠ منهم ٢٧١,٠٠٠ فرنسى من مجموع السكان البالغ عددهم حوالى ٩ مليون نسمة .

أما في تونس فيبلغ عدد الأوربيين حوالى ٣٠٠ ألف من مجموع السكان

البالغ عددهم حوالى ٤ مليون نسمة أى أن الأوربيين يمثلون ٧٪ من مجموع السكان ، ويتساوى فى تونس عدد الفرنسيين والاطاليين .

ومنذ سنة ١٩٣٠ بدأت وفرد الهجرة تتدفق على الجزائر منتهرة فرصة التسميات والمساعدات التى تقدمها سلطات الاحتلال الفرنسى .

والمهاجرون من الأوربيين الموجودين فى الجزائر الآن ليسوا كاهم من أصل فرنسى وإن كان قانون ٢٦ يوبيه سنة ١٨٨٩ قد منحهم الجنسية الفرنسية فمنهم من يرجع إلى أصل إسبانى أو إيطالى أو مالطى أو يردى .

ويبلغ عدد الأجانب أو الأوربيين غير المسلمين فى الجزائر حوالى ١,٧٥٠,٠٠٠ من مجموع السكان البالغ عددهم حوالى ٩,٣٠٠,٠٠٠ نسمة أى أن نسبة الأوربيين فى الجزائر تساوى ١٨ ٪ من مجموع السكان وهى نسبة مرتفعة عن مثيلتها فى تونس أو مراکش . ويدل تعداد سنة ١٩٥٣ على أن ١١ ٪ من الأوربيين فى الجزائر يرجع إلى أصل فرنسى و ٥ ٪ إلى أصل إسبانى و ١,٥ ٪ إلى أصل إيطالى و ١ ٪ من بلاد أخرى .

والمتتبع لتيار الهجرة الأوربية للجزائر يلاحظ أن هذا التيار بلغ أشده فى المدة ما بين سنة ١٨٧٠ وسنة ١٩٠٠ وكان أغلب المهاجرين فى هذه الفترة من اللاجئين وخاصة من مقاطعتى الإلزاس واللورين فى أعقاب الحرب السبعينية ، وكذلك أصحاب مزارع الكروم الذين تعرض محصولهم فى سنوات متعاقبة للبوار بسبب الآفات والجو . وقد وجد هؤلاء المهاجرين فى سلطات الاحتلال كل العون فقد وزعت عليهم أملاك الدولة وجزء كبير من الأوقاف الاسلامية فى الجزائر حتى أن تيار الهجرة لم تخف حدته إلا بعد نقاذ أملاك الدولة .

والجدول التالى يوضح تطور عدد المهاجرين الأوربيين فى الجزائر منذ سيطر عليها الفرنسيون .

السنة	عدد الأوربيين في الجزائر
١٨٣٦	١٥,٠٠٠
١٨٥١	١٣١,٠٠٠
١٨٧٢	٢٨٠,٠٠٠
١٩٠١	٦٣٤,٠٠٠
١٩٣١	٨٨١,٠٠٠
١٩٤٨	٩٦٠,٠٠٠
١٩٥٣	١,٠١٩,٠٠٠

وقد منحت السلطات الفرنسية أجود الأراضي للمستوطنين الأوربيين وخاصة في منطقة النل مستوية على أملاك الدولة وأملاك الأفراد وأراضي القبائل والأوقاف والمجاهدين من الثوار الذين يهبون بين حين وآخر في وجه الاستعمار الفرنسي ، وقد بلغ جملة ما استولت عليه سلطات الاحتلال من أملاك المجاهدين وحدهم منذ سنة ١٨٧١ حوالى ٥٠٠,٠٠٠ هكتار . كما أن سلطات الاحتلال لم تكتف بذلك بل أصدرت قانوناً في يولية سنة ١٨٧٣ هو قانون تحديد الأراضي المشاعة الذى كان من نتيجته الاستيلاء على حوالى نصف مليون هكتار وزعت على الفرنسيين . كما وزعت بعض الأراضي المسلوبة من أصحابها العرب على الفرنسيين مجازاً بواقع ٢٠٠ هكتار لكل عائلة فرنسية مستوطنة في الجزائر وبلغ مجموع هذه الحصص المجانية حتى سنة ١٩٣٦ حوالى ٤٠٠,٠٠٠ هكتار .

ومن هذا يتبين أن المهاجرين الأوربيين على قلتهم في الجزائر يتمتعون بالسيطرة الاقتصادية والإدارية فهم من ناحية يمتلكون حوالى ٣ مليون هكتار من مجموع الأرض الزراعية البالغة ١١ مليون هكتار

أى أن ملكيتهم تصل إلى حوالى ٢٨ ٪ من مجموع الأرض الزراعية بينما عددهم لا يتجاوز ١٨ ٪ من مجموع السكان . ومن ناحية أخرى فالأوروبيون هم المسيطرون على الإدارة وجميع نواحي السلطة ، وتبعاً لذلك ففي كثير من إدارات الدولة ومصالحها توضع جميع المشروعات العمرانية كإنشاء الطرق والسدود والقنوات لمصلحة الأوروبيين المستوطنين .

الهجرة الخارجية من الشام

قلنا إن البلاد العربية تتميز بظاهرتين ديموجرافيتين واضحتين فيما يختص بتحركات السكان أو هجرتهم . الظاهرة الأولى هي استهداف بعض البلدان العربية لتيارات من الهجرة وفدت إليها من الخارج بصورة تكاد تكون مقصودة ومنظمة وهذا ما رأيناه في فلسطين والجزائر . والظاهرة الثانية هي خروج هجرات من العالم العربي إلى خارج المنطقة متوجهة إلى الأمريكتين وبعض مناطق أفريقيا غير العربية .

ويرى بعض علماء السكان العرب أن هجرة اللبنانيين والسوريين والفلسطينيين إلى الخارج تمثل مشكلة ديموجرافية واجتماعية بالنسبة للأمة العربية ^(١) .

فمن الناحية الاقتصادية تعتبر الهجرة مفيدة لما تدره من مال ، فقد ورد في بعض المصادر أن مجموع الهبات التي أرسلها المهاجرون اللبنانيون وخدمهم إلى ذويهم في الوطن الأم بلغت حوالى ٤٠ مليون ليرة في عام ١٩٥٢ ^(٢) وإلى المهاجرين يعود الفضل في تعمير كثير من القرى اللبنانية ومدنها وموازنة العجز الدائم في ميزانه التجاري .

ولكن الناحية الغالبة في موضوع هجرة اللبنانيين والسوريين أنها تضعف من قوة الوطن العربي وتفقده جزءاً كبيراً من الصفوة الفتية من أبنائه ،

(١) الدكتور عزة النمى ص ٢٩٠ .

(٢) راجع د . البرت بدر محاضرات عن الاقتصاد اللبناني .

ويترتب على ذلك مشكلة اجتماعية أخرى هي قلة عدد الزيجات وكثرة العوانس
نما قد يؤدي إلى تيارات شاذة في المجتمع العربي . وفي عام ١٩٥٢ - ١٩٥٣
كان ٧٧٪ من المهاجرين اللبنانيين ذكورا وكان ٧٥٪ منهم تتراوح أعمارهم
بين ١٥ و ٤٤ سنة ، والجدول التالي يظهر هذه الحقيقة بوضوح .

فئات السن والجنس بين المهاجرين اللبنانيين في سنة ١٩٥٣

الأعمار	ذكور	أناث	المجموع
٦٠ سنة فما فوق	١٢٠	٥٨	١٧٨
٥٩ — ٤٥	٢٨٣	١٠٨	٣٩١
٤٤ — ٣٠	٥٨٢	١٨٤	٧٦٦
٢٩ — ١٥	١٢٥١	٤٣٤	١٦٨٥
لغاية ١٤	١٧٢	١٢٣	٢٩٥
المجموع	٢٤٠٨	٩٠٧	٣٣١٥

[عن النشرة الإحصائية اللبنانية ربع السنوية . الربع الأخير لعام ١٩٥٣]

ويلاحظ أن أجيال المهاجرين المولودة في الوطن العربي لا تزال تذكر
لغة الأجداد وتعزّز بالتراث العربي بل لقد ساهم بعض هؤلاء في الحركة
الفكرية والأدبية العربية وعلى سبيل المثال الشعراء خليل مطران دايليا
أبو ماضي وغيرهم . أما الجيل الثاني والثالث فأفرادهما يذوبان تدريجيا في
كيان المهجر الذي يعيشون فيه ويتمثلون البيئة الجديدة ومن ثم يفقدون
السمات العربية .

ومن التقارير التي كانت ترفعها فرنسا إلى عصبة الأمم بصفتها دولة
الانتداب على سورية ولبنان . يمكن تتبع تيار الهجرة بالإضافة إلى نشرات
وتقارير متفرقة أصدرتها الحكومة اللبنانية .

فقيما بين سنتي ١٨٦٠ و ١٨٩٠ كانت وفود المهاجرين من الشام تتجه إلى الإقليم المصري. وقد أسهم هؤلاء المهاجرون في النشاط التجاري والثقافي والصحفي ولا تزال آثارهم ماثلة في بعض الحقول إلى أيامنا هذه .

منذ عام ١٨٩٠ بدأ تيار الهجرة من الشام ينحسر عن الإقليم المصري ليتجه إلى أمريكا الشمالية بحافز الرغبة في تحسين مستوى المعيشة وجمع الثروة ، وبما ساعد على اشتداد تيار الهجرة إلى هذه البلاد أيضاً التحسن المستمر في وسائل الملاحة البحرية والتسهيلات التي كانت تقدمها شركات النقل . ويتميز المهاجرون في هذه الفترة بأنهم بدأوا حياتهم في الدنيا الجديدة منذ أول السلم ، ثم تدرجوا حتى أصبحوا من كبار التجار في المدن التي أقاموا فيها .

وفيما بين سنتي ١٩٠٠ و ١٩١٤ اشتد تيار الهجرة اشتداداً بالغاً وقدر عدد الراحلين سنوياً في هذه الفترة بحوالى ١٥,٠٠٠ كان أغلبهم من المسيحيين الفارين من الخدمة العسكرية التي فرضتها الدولة العثمانية على جميع رعاياها بصرف النظر عن دياناتهم .

في سنوات الحرب العالمية الأولى ضعفت الهجرة ولكن ما لبثت أن عادت واشتدت بعد انتهاء الحرب وإن كانت في هذه الفترة - فترة ما بعد الحرب - قد غيرت اتجاهها . ذلك أن حكومة الولايات المتحدة أصدرت في سنة ١٩٢١ قانوناً يقيد الهجرة وانتهجت كندا نفس النهج ، أما المكسيك فكانت ظروف الأمن الداخلية فيها غير مواتية بسبب المنازعات الدينية . ولذلك تحول تيار الهجرة وتدفق سيل المهاجرين نحو أمريكا الجنوبية ، كما ظهرت منطقة جديدة وجد فيها اللبنانيون والسوريون مجالاً لنشاطهم ، وهذه المنطقة الجديدة هي أفريقية وخاصة منذ سنة ١٩٣٥ .

وعلى العموم كان تيار الهجرة بعد الحرب الأولى ضعيفاً نسبياً عنه

قبل الحرب ثم ظل يضعف شيئاً فشيئاً من ١٣,٥٠٠ سنوياً في أعقاب الحرب إلى ٤٠٠٠ سنوياً سنة ١٩٣٨ .

والجدول الآتي يبين حركة الهجرة وما طرأ عليها من نشاط أو فتور فيما بين سنتي ١٩٢٤ و ١٩٣٨ ، وهذه الأرقام من واقع تقارير سلطات الانتداب الفرنسية على سورية ولبنان :

عدد المهاجرين من سورية ولبنان فيما بين سنتي ١٩٢٤ و ١٩٣٨

السنة	السوريين	اللبنانيين	المجموع
١٩٢٤	٧١٠٠	٦٤٠٠	١٣,٥٠٠
٢٥	٣٣٥٠	٧٦٣٠	١٠,٩٨٠
٢٦	٨٥٠٠	٧٥٠٠	١٦,٠٠٠
٢٧	٥٦٦٦	٣٧٢٥	٩٣٩١
٢٨	٨٢٩٠	٥٩٩٨	١٤٢٨٨
٢٩	٢٨٩٤	٥٠٤٧	٧٩٤١
٣٠	٣٤٦٣	٣٣٨٣	٧٣٤٦
٣١	١٠٣٩	١٣٨٧	٢٤٢٦
٣٢	٤٦٩	١١٧١	١٦٤٠
٣٣	٨٠٨	١٥١٦	٢٣٢٤
٣٤	٨١٠	١٦٩٩	٢٥٠٩
٣٥	١٧٤٢	١٩٩٢	٣٧٣٤
٣٦	٨٠٥	٢٢٧٧	٣٠٨٢
٣٧	٩٥٠	٣٣٤٥	٤٢٩٥
٣٨	٥٦٧	١٤٣٩	٢٠٠٦

هذا وقد بلغ متوسط العائدين إلى الوطن الأم — بسبب عدم القدرة على التكيف مع البيئة الجديدة — في المدة ما بين ١٩٢٨ و ١٩٣٨ حوالي ٢٠٠٠ شخص سنوياً (سوري ولبناني) .

وتذكر بعض المصادر أن نسب عدد المهاجرين السوريين واللبنانيين حسب البلاد التي قصدوها فيما بين سنتي ١٩٢٠ — ١٩٣٠ كانت كالآتي^(١) :

أمريكا الجنوبية	٥٠ ٪
أفريقيا وخاصة السنغال	٢٥ ٪
أمريكا الشمالية	١٠ ٪
بلاد مختلفة	١٥ ٪

وأجرى مصدر آخر تقديراً مماثلاً لنسب المهاجرين السوريين واللبنانيين حسب البلاد التي قصدوها فيما بين سنتي ١٩٢٦ — ١٩٣٨ فكانت تقديراته كالآتي^(٢) :

من سوريا	من لبنان	
٦٩,٢ ٪	٤٩ ٪	أمريكا الجنوبية
٧,٢	١٠	الشمالية
٤,٢	٨,٥	الوسطى
٦,٥	٢٦,٥	أفريقية
٧	٤,٥	أوروبا
٥,٨	٠,٥	آسيا
٠,١	١	أستراليا

ويعلق المصدر على هذا التقدير بقوله أن الكثرة الغالبة من المهاجرين

1. R. Thoumin: Géographie humaine de la Syrie Centrale P.335

(٢) الدكتور عزه النص : أحوال السكان في العالم العربي ص ٢٩٤

السوريين واللبنانيين قد قصدوا أمريكا الجنوبية في الفترة ما بين الحربين العالميتين وخاصة البرازيل والأرجنتين ، وتعتبر مدينة سان باولو في البرازيل أكبر مركز لهم . وفي أمريكا الشمالية تأتى الولايات المتحدة في الدرجة الأولى (وخاصة مدينتى بوسطن ونيويورك) ويليهما المكسيك ثم كندا . وفي أفريقيا كانت أهم المراكز التى قصدها المهاجرون هى السنغال وأفريقية الإنجليزية وغينيا الفرنسية وغينيا البرتغالية والسودان الفرنسى وأيرتريا . ومع أن هناك قيوداً فرضتها السلطات الاستعمارية الإنجليزية فى غرب أفريقيا على هجرة الآسيويين إلى هذه المناطق فإن أكبر بحرّة داخل هذه الإنفلمات هى المجموعة السورية اللبنانية ، وهى لا تمارس نشاطاً سياسياً أو ثقافياً وإنما تعتكف على شئون المال والتجارة والتبادل الاقتصادى فقط ويبرز دورهم كوسطاء وسماسرة ودلالين ، كما يشتغلون بتجارة المنسوجات والبقالة وتسليف النقود وتجارة التجزئة ويمتلكون منازل وأراضى زراعية .

أما أمريكا الوسطى فأهم المناطق التى استوطن فيها المهاجرون هى كوبا وجزر الأنتي .

أما أوروبا فكانت فرنسا هى أكثر البلاد التى قصدها المهاجرون ولعل ذلك كان مرجعه أن فرنسا كانت الدولة المنتدبة على سورية ولبنان فى ذلك الوقت وإن كان معظم المهاجرين إليها ترجع أصولهم إلى الأرمن الذين كانوا قد أقاموا فى سورية ولبنان بعد هجرتهم من تركيا .

ويلاحظ بصفة عامة أن الموارنة (طائفة من المسيحيين) كانوا أكثر إقبالا على الهجرة من المسلمين ، ولم يكن الدافع إلى هجرتهم البؤس أو العوز بقدر ما كان الدافع ثقافياً لاتصال هؤلاء بالغرب وثقافة الغرب عن طريق المدارس الأجنبية والإرساليات ودرايتهم بإمكانيات العمل والتجارة فى البلاد الخارجية ، وهذا ما يؤكدّه العلامة الفرنسى Demangeon

إذ يقرر أنه ولا يكفي أن يكون مستوى المعيشة منخفضاً لدى شعب ما ليحس ضرورة الهجرة بل يجب أن يتوفر لدى هذا الشعب الشعور بسوء حالته بالنسبة إلى غيره من الشعوب ،^(١)

ويمكن أن نرجز الأسباب التي ساعدت على هجرة السوريين واللبنانيين إلى الخارج فيما يلي :

١ — كثافة السكان مع ضيق الموارد الاقتصادية وخاصة في جبال لبنان وجبال العلويين .

٢ — اضطراب الأحوال السياسية في البلاد منذ أوائل القرن التاسع عشر والثورات المتعاقبة ضد الحكم العثماني ثم ضد الحكم الفرنسي بعد الحرب الأولى ، وما تبع ذلك من اضطراب في شؤون الأمن والشؤون الاقتصادية . إلى أن استقرت الأمور في تلك البلاد في وقتنا الحاضر .

٣ — التفاعل الثقافي بين حضارة الشرق والحضارة الغربية وسيادة التيارات التحررية ونبذ التواكل والقدرية والرغبة في المغامرة .

هذا ومن ناحية أخرى يلاحظ أن وجود أعداد كبيرة من المغتربين العرب في الخارج وخاصة في الأمريكتين يساعد مساعداً فعالة في الدعاية للقضايا العربية وتنوير الرأي العام العالمي بحقيقة ما تنطوي عليه هذه القضايا من حقائق بعيدا عن زيف أبواق الدعاية الصهيونية والاستعمارية المضللة . وقد عملت الجمهورية العربية المتحدة على الاستفادة من جهود هؤلاء المغتربين وولائهم لوطنهم فعمدت لهم مؤتمراً في أغسطس سنة ١٩٥٦ لتجديد وفائهم وإطلاعهم على مظاهر التقدم العمراني والحضاري الذي أصاب قطاعات الحياة الاجتماعية

(١) نقلاً عن كتابه .

في وطنهم الأم ، كما كان من أغراض هذا المؤتمر محاولة تنسيق الجهود العربية في المهجر وتعبئتها على أسس سليمة تكفل الاستفادة منها إلى أقصى حد ممكن في سبيل العروبة وقضاياها .

الإقليم المصرى والهجرة

كان موقع الإقليم المصرى الجغرافى سبباً فى وفود كثير من المهاجرين إليه ، كما كان للنشاط التجارى - فضلاً عن العامل الاستعمارى - أثر كبير فى ترغيب الإقامة فيه هذا إلى جانب ما اشتهر به سكان البلاد الأصليين من كرم الضيافة والافراط فى المسالمة ، وقد كثرت ورود هذه الأجناس بعد فتح قناة السويس بصفة خاصة .

وبين الجدول الآتى عدد المستوطنين فى الإقليم المصرى من الأجانب من الجنسيات المختلفة فى بعض السنين التى عملت فيها إحصائيات عامة .

الجنسية	العدد			
	فى سنة ١٨٨٢	فى سنة ١٨٩٧	فى سنة ١٩٠٧	فى سنة ١٩١٧
أتراك	—	—	٦٩٧٢٥	٣٠٧٩٧
يونانيون	٢٧٣٠١	٣٨٢٠٨	٦٢٩٧٣	٥٦٧٣١
إيطاليون	١٨٦٦٥	٢٤٤٥٤	٣٤٩٣٦	٤٠١٩٨
فرنسيون	١٥٧١٦	١٤١٣٧	١٤٥٩١	٢١٢٧٠
إنجليز	٦١١٨	١٩٥٦٣	٢٠٦٠٣	٢٤٤٥٤
أجناس مختلفة	١٣٠٨٦	١٦١٧٨	١٨٢٧١	٢٣٥٩٩

يلاحظ أن عدد المهاجرين يتزايد بخاصة فى السنين التى تنزل فيها أزمات بالبلاد التى يهاجرون منها ، أو فى السنين التى تبدو فيها علامات الرخاء فى مصر أو فرص استغلال رموس الأموال الأجنبية سانحة ، ثم إن تقدم أسباب المواصلات فى خلال القرن ١٩ يعتبر عاملاً هاماً فى اشتداد حركة الهجرة الخارجية .

كما يلاحظ أن توافد الأجانب على إقليم مصر كان شديداً حتى عام ١٩٢٧ ثم أخذ بالتناقص التدريجي كما تدل الإحصائية التالية .

الجنسية	١٩٢٧		١٩٣٧		١٩٤٧	
	النسبة	العدد	النسبة	العدد	النسبة	العدد
يونانيون	٣٤	٧٦٢٦٤	٣٧	٦٨٥٥٩	٣٩	٥٧٤٢٧
إيطاليون	٢٣	٥٢٤٦٢	٢٥	٤٧٧٠٦	١٩	٢٧٩٥٨
بريطانيون	١٥	٣٤١٦٩	١٧	٣١٥٢٣	١٩	٢٨٢٤٦
فرنسيون	١١	٢٤٣٣٢	١٠	١٨٨٢١	٧	٩٧١٧
أتراك	٤	٩٢٨٤	٢	٣٢٠١	٤	٥٣٧٥
آخرون	١٣	٢٩٠٨٩	٩	١٦٧٠٥	١٢	١٧١٩٢
الجملة		٢٢٥٦٠٠		١٨٦٥١٥		١٤٥٩١٥

وهذا بالطبع عدا الذين اكتسبوا الجنسية المصرية (سابقاً) . ويتجمع الأجانب خاصة في محافظتي القاهرة والاسكندرية وفي مدينتي بور سعيد والمنصورة ، وكانوا يتمتعون إلى وقت قريب بنفوذ مالى كبير .

ويلاحظ على الجدول السابق تناقص مستمر في عدد الأجانب الموجودين في إقليم مصر ولعل ذلك يرجع في المقام الأول إلى التطور السياسى والاجتماعى والاقتصادى ، فمن الناحية الأولى بدأت قبضة الاستعمار تحف شيئاً فشيئاً عن مصر إلى أن زالت نهائياً بعد الثورة ، ومن الناحية الثانية بدأ الوعى ينتشر بين جموع المصريين وافتشر التعليم وزادت نسبة المتعلمين وألغيت المحاكم المختلطة والامتيازات الأجنبية ، ومن الناحية الثالثة بدأ الوعى الاقتصادى بين المصريين يشتد وخاصة بعد إنشاء بنك مصر وشركاته

وكان ذلك في الواقع ارهاصاً بزوال الاحتكارات الأجنبية وتلاشى نفوذ الأجانب الاقتصادي بالتدريج .

ويلاحظ أيضاً على الجدول السابق أن الجالية اليونانية كانت ومازالت تمثل أكبر الجاليات الأجنبية في إقليم مصر هذا عدا عدد كبير منهم تنجس بالجنسية المصرية ويرجع ذلك إلى التقارب التاريخي والصداقة القديمة بين الشعبين المصري واليوناني وتوثق العلاقات بين حكومتى البلدين في النواحي الاقتصادية والثقافية والسياسية ، فلليونان مراقف مشرفة في السياسة العالمية بخصوص القضايا العربية من ذلك أنها إحدى الدول الأوروبية المعدودة التي لم تعترف إلى الآن بإسرائيل ، ووقفت بجانب العرب في مؤتمر لندن الذي عقد في أغسطس سنة ١٩٥٦ لبحث مشكلة تأمين قناة السويس ، كما أن المرشدين اليونانيين وقفوا إلى جانب المرشدين المصريين حين انسحب جميع المرشدين الأجانب في ١٥ سبتمبر سنة ١٩٥٦ بقصد تعطيل الملاحة .

وإذا أخذنا القطاع الزراعي لتبين مدى سيطرة الأجانب عليه كمصدر من مصادر الثروة القومية نجد أن ملكيتهم للأرض الزراعية تتجه إلى التناقص المستمر منذ سنة ١٩٢٧ . والاحصاءات الحديثة تدل على أن ملكية الأجانب للأرض الزراعية في الإقليم المصري لم تتعد في سنة ١٩٥٦ ١٤٢,٠٦٢ فداناً . والجدول التالي يوضح التناقص المستمر في ملكية الأجانب للأرض الزراعية سنة بعد أخرى .

السنة	المساحة بالفدان
١٩٥٢	١٦٤٦٣١
١٩٥٣	١٥٧٥٢٧
١٩٥٤	١٥٤٩٤٢
١٩٥٥	١٤٨٤١٩
١٩٥٦	١٤٢٠٦٢

وفي سنة ١٩٥٥ كان عدد الملاك الأجانب حوالى ٣٦٥٥ مالكا انخفضوا في سنة ١٩٥٦ إلى ٢٣٩٦ مالكا وهذا يوضح تحرر الاقتصاد القومى في قطاع الزراعة من قبضة الأجانب ، ويتناسب هذا التحرر تناسباً طردياً مع الأوضاع السياسية في البلاد .

أما عن هجرة سكان الإقليم المصرى للخارج فهي لا تعد شيئاً يذكر . فقد كانت نسبة المصريين المولودين في الخارج ١,٥ ٪ من سكانها الأصليين في عام ١٩٢٧ (وبخاصة في السودان) وهبطت هذه النسبة إلى ١ ٪ في عام ١٩٣٧ . ولذلك فن المأثور عن سكان الإقليم الجنوبى المصرى التمسك بأرض الوطن . وترجع عوامل إحجام المصريين عن الهجرة الخارجية إلى ما يأتى :

١ — درجة التكامل فى الوحدة العائلية وقوة التأثير الأبوى فيها .

٢ — اعتماد أغلب سكان الإنليم على الزراعة وارتباطهم بالأرض . وهذه المهنة تدعو دائماً إلى الإستقرار وقلما تشجع المشتغلين بها على أن يتركوا الأرض إلى جهات أخرى .

٣ — القناعة والرضى اللتان يعرف بهما الفلاح والعامل المصرى وهذه الصفات من شأنها أن تضعف روح المغامرة والطموح والسعى وراء المزيد من الرزق . يقول العلامة « ديمانجون Demangeon » - كما سبق أن أشرنا - « لا يكفي أن يكون مستوى المعيشة منخفضاً لدى شعب ما ليحس ضرورة الهجرة بل يجب أن يكون لديه شعور بسوء حالته بالنسبة إلى الشعوب الأخرى » .

٤ — ضعف الكثافة السكانية نسبياً فى الإقليم المصرى فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر وهما القرنان اللذان بلغت فيهما موجات الهجرة أقصاها فى مختلف بقاع العالم . فكانت حالة مصر السكانية دون الحالة فى دول غرب أوروبا التى هاجر أبناؤها إلى الأمريكتين تخفيفاً للازدحام السكانى .

نتائج الهجرة

أولاً : نتائج الهجرة الداخلية :

تركزت الهجرة الداخلية أثاراً عميقة في طبيعة الحياة الاجتماعية في المجتمع الواحد بشقية الحضرى والريفى على السواء ، وكان من أبرز هذه الآثار :

(أ) نقص في القوى البشرية العاملة في بعض قطاعات المجتمع الريفى بعد موجات الهجرة المتتالية من الريف إلى المدن ، وكان من نتيجة ذلك ارتفاع أجر العامل الزراعى في البلاد التى شهدت هذا النوع من الهجرة الداخلية على نطاق واسع مع اثبات النفس في المواليد .

(ب) لجأت بعض الهيئات الحكومية أو الأهلية أو الأفراد إلى جلب عمال زراعيين في أحيان كثيرة من خارج بلادهم ، وقد وضحت هذه الظاهرة الديموجرافية في أمريكا خلال القرن التاسع عشر في استقدام الزوج لزراعة القطن وخاصة في الولايات الجنوبية ، كما تبدو هذه الظاهرة على نطاق موسمى في فرنسا في موسم جمع الكروم وفي البرازيل في موسم جمع البن . ولا شك أن استقدام عمال أجانب قد يكون له نتائج ضارة في أحيان كثيرة وخاصة من الناحية الاقتصادية ، فأجور هؤلاء العمال تعتبر نوعاً من تسرب النقد أو الواردات غير المنظورة وخاصة إذا كان هؤلاء العمال يعودون إلى بلادهم ثانية ومعهم مدخراتهم ، كذلك يمثل استقدام العمال الأجانب مشكلة ثقافية وأخرى تكيفية مع البيئة الجديدة أو المؤقتة .

(ح) تركز العمال في الإنتاج الصناعى ، ومفهوم أن الصناعة هى فرع واحد من فروع الإنتاج العديدة . وقد أدى ذلك إلى إختلال التوازن بين مختلف فروع الإنتاج والخدمات وعدم التناسق بين قوى الدفع

الاجتماعى التى تعمل لتطوير المجتمع فى شتى نواحيه ، كما أدى التركيز فى الصناعة أيضاً إلى انخفاض الأجور انخفاضاً سريعاً ، وقد وضحت هذه الظاهرة فى أوروبا غداة الثورة الصناعية واستقبال المدن للهجرات من الريف على نطاق واسع وزيادة عدد العمال عن طلبهم مما أدى إلى انخفاض أجور العمال إلى ما يسمى بالأجر الحديدى Iron Wage أو أجر الكفاف ، وبما يدل على خطورة هذه الظاهرة - ظاهرة انخفاض الأجور نتيجة الهجرة الداخلية - أن حالة البؤس التى آلت إليها العمال كانت الشرارة الأولى فى ظهور تيارات الفكر الاشتراكى منذ أواخر القرن الثامن عشر وخلال القرن التاسع عشر كله ، وكانت مشكلة الأجر الحديدى وبؤس الطبقة العاملة من المسائل الرئيسية التى دارت حولها كتابات أشهر مفكرى هذا العصر من أمثال « سميث » و « ريكاردو » و « ماركس » و « انجلز » و « فردريك ليست » و « قوربير » .

(ج) ظهور كثير من المشاكل فى المدن وخاصة تلك التى زادت كثافتها السكانية ، فقد كان النمو المطرد مع توقف موجات الهجرة الداخلية وانخفاض معدل الوفيات نتيجة التقدم الصحى والطبى خليقاً بأن يولد عدداً من المشاكل الاجتماعية تجل عن الحصر ، ولم يستطع النشاط الحكومى أو النشاط الأهلى أن يقابل هذه المشاكل بما يلائمها من حلول سريعة وذلك لضيق مواردها المالية والفنية وعدم كفاية أجهزة التخطيط والقصور فى التشريعات العالمية الاجتماعية . وأبرز المشاكل التى ترتبت على النمو المفاجئ فى سكان المدن مشكلات الاسكان والمواصلات والصحة العامة والتعليم والأندية ودور الرعاية الاجتماعية والحدائق العامة ودور التسلية ومؤسسات الخدمة العامة ... الخ .

(هـ) انتشار كثير من التيارات الشاذة والانحرافات كنتيجة من نتائج

(١٢ السكان)

الضغط على المدينة كوحدة مورفولوجية محدودة النطاق . فارتفاع معدلات الجرائم بأنواعها المختلفة من سرقة ونشل وتسول وتعاطى للمخدرات يمكن أن يعزى إلى حد ما إلى الزيادة أو الازدحام السكاني متفاعلا مع عوامل اجتماعية أخرى ، كما أن الدعارة أو تجارة الرقيق الأبيض ولعب الميسر والأسراف في تعاطى الخمر والشذوذ الخلقى والجنسى . . . ما هو إلا تعبير عن مشاكل الوحدة المورفولوجية المحدودة التي تعرف بالمدينة وما يسودها من صراع ومنافسة وروح إنتهازية ساهمت في خلقها الكثافة السكانية الشديدة .

(و) لم يكن بريق الثورة الصناعية جازبا لاهتمام الأفراد وإنتباههم بحسب بل كان أيضاً جازبا لاهتمام الحكومات فأخذت بعض الحكومات تولى مزيد عنايتها المدن ومشاكلها وتوجه إليها كل الاهتمام ، خاصة وأن مشاكل الدول لم تكن تنتهى وكلما كانت الحكومة تعالج مشكلة من المشكلات كانت تظهر مشاكل أخرى عديدة وذلك لسبب واحد رئيسى، وهو أن علاج الحكومات لمشكلات المدن كان إلى وقت قريب جداً يقرم على الارتجال وعدم التخطيط وقلة الاهتمام بالأخذ بالأساليب العلمية الحديثة فى تناول المشكلات الاجتماعية وعلاجها علما وقد أدى هذا على استنزاف كثيرا من الجهود والأموال ولم يؤت الإصلاح أو محاولات الإصلاح ما كان يرجى لها من نجاح ومن جهة أخرى فقد سبب هذا فى كثير من المجتمعات إهمالا لشئون الريف وعدم العناية بأهله وأعمال مصالحهم ورغباتهم مما أدى إلى ضعف الانتاج الزراعى وتدهور الثروة الحيوانية ، كما أن عدم توفر أعمال الرعاية الاجتماعية والخدمات العامة ساعد على توسيع رقعة الفقر وإنتشار الجهل والمرض وما إليها من الأمراض الاجتماعية الباثولوجية فى البيئات الريفية .

(ز) من نتائج الهجرة الداخلية - أيضاً - وتخلخل السكان في الريف أن تخلف أهل الريف عن أهل الحضر وقامت هوة ثقافية بين قطاعي المجتمع الواحد ووجود مثل هذه الهوة الاجتماعية Social lag يعتبر من الأخطار التي تهدد وحدة المجتمع أو المركب الجمعي الكبير ، ولذلك كان من أهم الواجبات القومية تدارك مثل هذه الحالة باصلاح أحوال الريف والنهوض بمستوى سكانه .

ثانياً : نتائج الهجرة الخارجية :

للهجرة الخارجية نتائج متعددة ومختلفة بتعدد واختلاف ظروف الأفراد المهاجرين والبيئات والمجتمعات المهاجر منها والمهاجر إليها .

(١) فالنسبة المهاجر نفسه ، يمكننا أن نلاحظ بصفة عامة أن الهجرة قد تؤدي بصفة مباشرة ، وغير مباشرة إلى زيادة كفاياته الفنية والانتاجية ذلك لأن المفروض في المهاجر أنه يعمل على تحسين حالته بالنسبة لما كان عليه قبل مهاجرته ، وبذلك فهو يختار نتيجة تجربته الاجتماعية السابقة من الوسائل والسبل التي تمكنه من أن ينتج أكثر مما كان ينتج في موطنه الأصلي ، غير أنه لا شك أنه يواجه مشكلات اجتماعية من طبيعة اقتصادية وثقافية تستلزم تكيفه تكيفاً يلائم طبيعة الحياة الجديدة التي يقبل عليها ، خاصة إذا كانت بيئته الاجتماعية والثقافية الأصلية تختلف في نماذجها وأنماط الحضارية والثقافية عن البيئة التي هاجر إليها ، ومن هنا تنشأ عدة مشكلات اجتماعية تؤدي إلى قفكك في النظام العائلي ، أو في الجنوح إلى السلوك غير السوي أو إلى التفكك في التنظيم الاجتماعي بوجه عام . وقد عني بتتبع هذه الآثار الناجمة عن عدم استطاعة تكيف المهاجر ببيئة الاجتماعية الجديدة عدد كبير من علماء الاجتماع المعاصرين ، نخص منهم

بالذكر مابيل اليوت M. Elliot^(١) ولويس ويرث L. Wirth^(٢) كما عالج كثير من العلماء موضوع تكيف المهاجرين للبيئات الاجتماعية المنتقلين إليها ، واختص بهذا اللون من الدراسة علماء الايكولوجيا^(٣) ، وفي مقدمتهم وليم توماس (W. Thomas)^(٤) ، وفلوريان زنانيكى F. Znaniecki ، وأديناريتش A. Rich^(٥) وبارولين يونج P. Young فقد تتبع الأولان الجماعات البولندية الريفية التي هاجرت إلى أمريكا ، وبينما المشكلات الفردية والجماعات التي تعرضت لها في سبيل تكيفها بالثقافة الأمريكية ، كما عالج الثالث المشكلات الجارية الناتجة عن هجرات متتالية على الولايات المتحدة ، أما الرابعة فقد درست مشكلات فرقة دينية روسية هاجرت إلى لوس أنجلز الأمريكية ، وحاولت أن تحتفظ ميزاتها الثقافية الروحية في خضم صراعها من التراث الأمريكي المادى^(٦) .

وكذلك عن كل من ممفرد Mumford^(٧) وكاربنتر N. Carpenter^(٨) يبحث ما يتعرض له المهاجر من بيئة ريفية إلى مدينة حضرية على نحو ما يظهر في مؤلفيهما عن الأنماط الثقافية للبيئات المدنية .

(1) Mabel A. Elliott, and Francis E. Merrill, Social Disorganization.

(2) Louis Wirth, Culture Conflict and Delinquency, Social Forces, June 1937.

M. A. Elliott, opt. cit., Migration and Family Disorganization. ch. XXVIII. Migration 577 ff.

Migration and Suicide pp. 592 - 593.

(3) E. W. Burgess, "Accommodation" Encyclopaedia of the Social Sciences, vol II.

(4) Thomas, William, and Znaniecki, Florian, The Polish Peasant in Europe and America, N. Y. 1927.

(5) Rich, Adena M. : Current Immigration Problems, Social Service Review March 1947

(6) Young, Pauline V., The Pilgrims of Russian Town 1935.

(7) Lewis Mumford The Culture of Cities, 1938.

(8) Niles Carpenter, The sociology of city Life N. Y. 1931.

وإلى جانب هذه الدراسات المتخصصة في الآثار الثقافية للهجرات الخارجية ، نجد كثيراً من الدراسات العامة المتصلة بمشكلات الهجرة الاجتماعية وخاصة ما اتصل منها بمشكلة اللاجئين The Refugees على نحو ما قام به موريس دافى Maurice R. Davie عن اللاجئين في أمريكا^(١) ، ومشكلة اكتساب الجنسية Naturalization ، بالنسبة للمهاجرين ، وشروطها وقواعدها بالنسبة لمختلف البلاد والدول التي تستقبل مهاجرين بصفة رسمية أو بصفة عفوية ، ومن ذلك أيضاً الدراسات المتصلة ببيان آثار الهجرة من الناحية الاقتصادية ومن الناحية الدينية وخاصة على التنظيم الاقتصادي أو الهيكل الديني العام .

ولا يسمح المجال يسرد تفصيلي لهذه الجوانب المتعددة من الآثار الاجتماعية والثقافية للهجرات الخارجية الدائمة ، ولكن يكفي أن نشير بصفة عامة ، إلى أن الظروف التي تحيط بالأفراد والجماعات المهاجرة إلى بيئات اجتماعية غريبة عليها ، ظروف غاية في التعقيد وأبعد ما تكون عن البساطة .

وذلك نتيجة لازمة لاصطدام النماذج الثقافية التي ألفها المهاجرون في وطنهم الأصلي ، بالنماذج الثقافية الموجودة في المجتمع الجديد ، وتظهر آثار الهجرة بصورة واضحة في حالة ما إذا كان المهاجرون ينتسبون إلى سلالة من السلالات التي تعد نفسها أرقى من سلالة ذلك المجتمع أو كانوا قد بلغوا من المستوى الحضاري والثقافي ما لم يبلغه أفراد ذلك المجتمع المهاجرين إليه فإذا كان المهاجرون من ذوى المسكنة الاجتماعية العالية أو النفوذ المستمد من السلطان السياسي أو الغزو الحربي ، فإنهم قد يسيطرون على السكان الأصليين

(1) Maurice R. Davie, Refugees in America : N. Y. 1947.

(2) Harry Jerome, Migrations and Business cycles National Bureau of Economic Research N. Y. 1926.

على نحو ما لمسانده من آثار الهجرة الأجنبية في قطاعات كثيرة من الوطن العربي الكبير ، مما تزال آثارها واضحة في شمال أفريقيا العربية وخاصة الجزائر ، إذ أن الاستعمار الغربي قد مكن للمهاجرين الفرنسيين من أن يصبحوا أصحاب السلطة في البلاد وذلك عن طريق تمييز هؤلاء المهاجرين بحكم قانون الأحوال الشخصية الفرنسي وهذا هو الشأن بالنسبة لجميع المستعمرات الموجودة في القارة الأفريقية .

ويمكننا القول بصفة عامة أن المستعمرين الذين يزعمون نحو السيطرة يحاولون إقامة مجتمع غريب ، لا يُتاح للأهالي الأصليين الاندماج فيه رغم مقاومة هؤلاء له على نحو ما هو موجود الآن في جنوب أفريقيا وقد يسمح للأهالي الأصليين بالاندماج والزواج مع المهاجرين ، رغم اختلاف سلالاتهم ، على نحو ما هو ملوس في نيوزيلندا وأمريكا اللاتينية وأوكلاهوما^(١) ، وذلك بفضل العملية الاجتماعية المعروفة باسم انصهار السلالات Amalgamation^(٢) وفي الحالات التي يتفوق فيها المهاجرون تفوقاً ساحقاً عن السكان الأصليين ، فإنهم قد يعملون على التخلص منهم وإبادتهم كما حدث من المهاجرين البيض ضد السكان الأصليين في تسامانيا وفي بعض أجزاء ميلانيزيا وبعض الولايات الأمريكية على أننا إذا طرحنا جانباً تلك الآثار المترتبة على الهجرة التي توازرها القوة الغاشمة . ونظرنا إلى الهجرات الرتيبة التي لا يساندها هدف استعماري أو استغلالي نلاحظ أن الهجرة من الناحية القومية ، ومن وجهة النظر المحايدة ليست من المسائل التي يمكن الجزم بنفعها أو ضررها إطلاقاً ، إذا يجب أن ينظر إليها في كل أمة ، وفي كل عصر على حدة .

فثلاً كانت مهاجرة الإيرلنديين في النصف الثاني من القرن ١٩ ضارة

Pitt - Rivers, The clash of Culture and the Contact of Races

عن كتاب المجتمع . ما كيفر . ترجمة الدكتور على عيسى ص ٣٤٨ - ٢٠٨ .

(٢) انظر ما ورد بهذا الصدد في كتابنا العلاقات الاجتماعية .

بالنسبة لتلك البلاد ، إذ حرمتها من معظم رجالها الفنيين بسبب سوء نظام الملكية ، واضطراب حياة البلاد السياسية ، فعم الفقر البلاد وقتذاك . أما في إيطاليا فكان الأمر على عكس ذلك ؛ لأن مهاجرة السكان منها كان بمثابة صمام أمن خفف من ضغط السكان على المواد الغذائية ، وهذا يحول دون حدوث ما قد ينشأ عن ذلك من الاضطرابات الاجتماعية ، ويخفف من وطأة المناقشة بين العمال فيها ، بينما تتحسن حالة من هاجر من أهلها ، لأنهم يظفرون في البلد الذي ينزلون فيه بمركز أفضل وأجر أعلى .

هذا إلى أن المهاجر يظل محتفظاً بعلاقته بوطنه الأصلي ، فيرسل بالنقود من وقت لآخر إلى من تركهم وراءه من أهله وأقاربه ، كما أنه غالباً ما يعود إلى وطنه الأصلي حاملاً معه ثروته التي جمعها من تلك البلاد ، وحتى إذا لم يرجع ثانية إلى وطنه فإنه يظل زمناً طويلاً مروجاً لما تصدره بلده من المنتجات ، كما أنه قد يتهياً عن طريق المهاجرة إذاعة لغة وأفكار وآداب البلد المهاجر منها إلى البلد المهاجر إليها ، وتصبح الهجرة في هذه الحالة عاملاً هاماً من عوامل الدعوة والنفوذ في البلاد الأجنبية .

ومن ناحية البلاد المهاجر إليها ، قد تستفيد هذه البلاد من نزول الأجانب بأرضها عندما تكون بلاداً بكرأ تحتاج إلى الأيدي العاملة اللازمة لاستغلال مواردها الطبيعية ، فمن المحقق مثلاً أن الولايات المتحدة لم تكن لنستطيع أن تستغل مواردها العظيمة وتصبح في مقدمة المجتمعات الصناعية إذا لم تكن أوروبا على اختلاف أجناسها قد أمدتها بالملايين من العمال وخاصة الفنيين .

وحتى في بعض البلاد العريقة في المدنية ، نجد أنه في بعض الظروف ، ومن بعض النواحي أن مهاجرة الأجانب قد تكون مصدر خير لها ، إذا يحملون إليها علومهم وأفكارهم وعاداتهم وتقاليدهم ، ومن أجل

هذا استقدم زراع من آسيا الصغرى لتعليم المصريين زراعة القطن ، وشجع كثير من العمال الأجانب على الإقامة في الأقاليم المصرية لإدخال بعض الصناعات الحديثة .

غير أن استيطان أجناس متباينة قد يصبح في أحوال كثيرة مصدر أضرار . فقد يترتب على كثرة عدد المهاجرين الأجانب تحول في الصفات الأصلية لأهالى ذلك البلد ، واضمحلال أو ضياع مميزاتهم الثقافية ، وفي هذا إضعاف لقوته المعنوية أو الحيوية . وبخاصة إذا كان المهاجر إليه من جنس أحط من سكانه الأصليين .

والمواقع أن المجتمعات أو بالأحرى الحكومات ، تمر بدورين إزاء استيطان السلالات الأجنبية المهاجرة إلى بلادها .

الدور الأول : هو إباحة ، بل تشجيع المهاجرين الأجانب كلما كانت الأحوال الاقتصادية تدعو إلى ذلك ، أو تسمح بذلك دون إضرار بالمصالح القومية ، ولا تزال بعض دول أمريكا اللاتينية والارجنتين والبرازيل تمثل إلا حد كبير هذا الدور ؛ لاحتياجها إلى الأيدي العاملة في استغلال ثرواتها الطبيعية .

أما الدور الثانى : فتوضع قيود على المهاجرة ، لتحضى الصفات الأصلية للأهالى ، أو لتحول دون امتزاج جنسها بسلالات تعتقد أنها أقل منها ، كما كان الشأن فى الولايات المتحدة من اتخاذ وسائل خاصة ضد المهاجرين الصينيين وضد الجنس الأصفر بوجه عام ، أو لتحول دون تسرب العناصر غير المرغوب فيها إلى داخل البلاد ، أو خشية منافسة الأيدي العاملة الأجنبية التى تفد إلى بلادهم ، وما يترتب على ذلك من هبوط الأجور ، ولهذا تتقف نقابات العمال فى المجتمعات الرأسمالية ضد دخول العمال الأجانب لحماية العمل الوطنى .

وإن شئنا أن نضرب أمثلة تطبيقية بالهجرة إلى الولايات المتحدة الأمريكية، يمكننا أن نستعين بما جاء بكتاب «المجتمع، لما كيفر وينج»^(١) خاصا بالدراسات التي قام بها بعض العلماء الأمريكيين أمثال ميدرال C. Myrdal^(٢) ، وامبري E. R. Embree^(٣) ، وجونسون C. S. Johnson^(٤) ، وكثير غيرهم عن مشكلة امتزاج السلالات الملونة واختلاط الأجناس، وعن تمثل الثقافات بين المهاجرين، فن المعروف أن أمريكا قد استهدفت لمواجاة متتالية من المهاجرين الذين وردوا إليها من معظم بلاد العالم تقريبا، وقد حمل هؤلاء المهاجرون عاداتهم الاجتماعية، ونماذج مجتمعاتهم الثقافية، وأحكامهم التقديرية، وقد نشأ ولا شك نتيجة للهجرات الجماعية مشكلات تتصل بالتكيف الاجتماعي للحياة في المهجر الجديد وخاصة بين الفئات الاجتماعية المتباينة في صفاتها النوعية والسلالية.

وتدل الدراسات العلمية التي عالجتها هذا الموضوع على أن الانجليز والاسكتلنديين، قد أظهروا استعدادا أكثر من الفرنسيين للتكيف بالبيئة الاجتماعية الأمريكية، وبوجه عام لم يجد المهاجرون القدماء الذين هاجروا إلى أمريكا من دول جنوبي أوربا قبل عام ١٨٨٠ صعوبات كثيرة للتكيف مع البيئة الاجتماعية الجديدة؛ إذا قورنوا بالمهاجرين المهاجرين إليها من تلك الدول بعد تلك السنة وقد أدى ذلك إلى ظهور ظاهرة اجتماعية جديدة بالتسجيل ألا وهي أن هؤلاء المهاجرين قد اضطروا إلى تكوين «مستعمرات» تشبه الجماعات المحلية التي تمثل مراكز ثقافية مغلقة إلى حد ما، حيث

(1) Maclver, Robert and H. Page, Charles Community 1949.

ترجمه إلى اللغة العربية الدكتور علي عيسى .

(2) Myrdal, An American Dilemma N. Y. 1944.

(3) E. R. Embree, Brown American N. Y. 1943.

(4) C. S. Johnson, Patterns of Negro Segregation, N.Y. 1943.

راجع : The Segregation Issue of Survey Graphic January 1947

يتمسكون في نطاقها بأنماطهم السلوكية التي حملوها معهم من موطنهم الأصلية وأصبحت من المظاهر الديموجرافية الواضحة أن معظم المدن الأمريكية الكبيرة وكثيرا من المناطق الريفية تضم هذه الجماعات المحلية التي تتميز بطابعها البشري أو الثقافي ، ومن أمثلة ذلك تلك المستعمرات التي تتألف من الكنديين الفرنسيين الذين يعيشون في أحياء منعزلة في مدن ولاية نيويورك ، وكذلك الشأن بالنسبة للبولنديين الذين هاجروا إلى أمريكا والذين قد يبلغون ما ينوف على أربع ملايين ، منهم ١ مليون في شيكاغو ، وما يقرب من ٣٠٠ ألف في يترويت ، وحوالي ٢٠٠ ألف في نيويورك ، هذه الجماعات تعيش في تماسك ووحدة مع بعضها وفي عزلة ثقافية عن العناصر الأمريكية فظلوا محتفظين إلى حد كبير بذاتهم الثقافية أكثر مما استطاعت بقية العناصر باستثناء المهاجرين الصينيين .

ولاشك أن هناك اختلافات في مدى استعداد العناصر المهاجرة لتمثل النماذج الثقافية في البيئات الاجتماعية التي تعيش أو تستقر فيها ، ولسنا هنا في مجال الاسباب عن عملية التمثيل الثقافي للمهاجرين المعروفة باسم Cultural Assimilation ، Acculturation ، فقد يخرجن هذا عن نطاق دراستنا الديموجرافية إلى الدراسات الانتوجرافية ، والانثولوجية والانثروبولوجية ، وإنما يكفي أن نشير إلى بعض الاتجاهات العامة التي تمثل المراحل الاطرادية المتتابة التي يمكن أن تمر بها العناصر وموقف السلطات الحاكمة إزاءها ففيما يتعلق بالهجرة إلى الولايات المتحدة مثلا كانت الحاجة الاجتماعية والاقتصادية والعمرانية ماسة إلى استجلاب وترغيب الملايين من المهاجرين وخاصة عندما كانت حدودها آخذة في الامتداد عبر القارة الأمريكية وعندما كانت هناك حاجة ملحة إلى قوة بشرية لاستغلال الموارد الأولية واستغلال أراضيها الشاسعة ، وكان اختلاف اللغة أو الدين أو السلالة أو الثقافة وغيرها من العوامل الاجتماعية المعوقة

للوحدة الاثنولوجية القومية ، لم يكن لها أهمية نسبية في الحد من عدد العناصر المهاجرة طالما كانت هذه العناصر ضرورية للتنمية الاقتصادية والصناعية والعمراية . ثم ما لبثت أن أملت هذه الضرورة ذاتها وضع حدود وقيود على الهجرة ويكفي أن نقابل بين المزايا الكثيرة التي تمتع بها المهاجرون ، وبين الأضرار التي ألقت بالمهاجرين الجدد بسبب تعيين معالم الحدود السياسية للولايات المتحدة وقيام مجتمع مستقر نسبيا فيما يلي عام ١٨٨٠ وأكثر من هذا يمكننا أن نشير إلى موقف التخوف من المهاجرين الأوروبيين عقب الحرب العالمية الثانية من حيث اعتبارهم عنصراً مهدداً للانعاش الاقتصادي الأمريكي (١) .

وقد أثمرت الولايات المتحدة من القيود التي توقف تيار الهجرة إليها حتى ذهبت في الأيام الأخيرة إلى تحديد نسبة مئوية من عدد الأجانب الذين يسمح لهم في نطاقها بالإقامة فيها ، وهذه النسبة تختلف من جنسية إلى أخرى فجعلت أعلى النسب للجنس النوردي من الانجليز الألمان ، وحاولت أن تقلل نسبة هجرة السلافيين واللاتينيين وأضعفت تيار مهاجرة العرب والساميين . وإذا أردنا أن نتتبع الآثار الثقافية لهجرة بعض العناصر الغربية الأجنبية إلى البلاد العربية ، فإننا نجد أن هذا الأثر يختلف باختلاف كل ركن من أركان العالم العربي ، ففي بعض القطاعات العربية لم يكن لتلك العناصر الغربية آثار بعيدة المدى في الأوضاع السياسية والاجتماعية والثقافية كما كان شأن الجمهورية العربية المتحدة بإقليميهما الشمال والجنوبي ، وفي بعض القطاعات تركت هذه الهجرة آثاراً إيجابية أثرت في الأوضاع السياسية والثقافية لتلك البيئات على نحو ما نلسمه في تونس والجزائر ، ومهما يكن من شأن هذا الأثر ، فإننا نلاحظ بوجه عام أن هذا الأثر يقوى ويشد كلما كانت الدولة في حالة تبعية سياسية ، ويبدو هذا واضحاً

(١) M.R. Davide, The Refugee Immigrant in the U. S. N. Y. 1946.

في مقارنتنا للوضع الحال بالجمهورية العربية المتحدة بالنسبة لوضعها السابق قبل ثورة التحرير التي استكملت مقومات الاستقلال لذلك القطاع من العالم العربي .

ففيما يتعلق بالقطاع المصري نلاحظ أن استيطان الأجناس الأجنبية فيه قد أدى أول الأمر إلى نوع من الاختلاط والتضارب في الثقافات ، فإذا نحن استبعدنا ما كان عليه التعليم الأزهرى والأولى ، وجدنا أن هناك صراعا بين التعليم الابتدائى والثانوى العام ، وبين التعليم الغربى ، بل إن التعليم الغربى كان منقسما على نفسه ، فكان هناك تنافس بين الثقافة الفرنسية في أقاليم مصر مثلا والثقافة الإنجلو أمريكية . وكانت تتمثل الثقافة الفرنسية في خريجي المدارس والمعاهد السوبيرية والفرنسية المنتشرة في الأقاليم ، وفي أعضاء البعثات الذين أرسلوا إلى فرنسا .

كما كانت تتمثل الثقافة الإنجلو أمريكية في خريجي الجامعة الأمريكية بالقاهرة وكلية أسيوط . وغيرها من المدارس والكليات للبنين والبنات ، وبين كليات جامعة القاهرة كان ما يتجه إلى إحدى هاتين الثقافتين دون الأخرى ، فالطب والهندسة كانت تميل إلى الثقافة الإنجليزية ، في حين أن الحقوق كانت تميل إلى الثقافة الفرنسية .

ومما هو جدير بالذكر أن مناهج الجاليات الأجنبية كانت تختلف إلى حد ما عن مناهج التعليم بالمدارس المصرية العامة ، وكانت إلى عهد قريب تعنى أولا وقبل كل شيء بثقافة البلاد التي تنتمى إليها ، وكان لهذا أثره ولاشك على الطلبة المصريين العرب الذين يقدر لهم الالتحاق بهذه المدارس ، وكانوا يمثلون إلى حد كبير طبقة منفصلة عن مثيلاتها من طبقات الشعب الذين ربوا تربية وطنية قومية ، ولكن بالرغم من ذلك لا يمكننا الجزم بأن أثر هذه الثقافات قد تعدى حدود القومية ، أو أثر على ^{البرية} النهضة الوطنية . وربما يرجع ذلك إلى أصالة ^{النهضة} النهضة الوطنية في العنصر المصرى العربى ، وقد تنبه أولو الأمر

إلى أن اختلاف الثقافات قد يؤدي إلى اختلاف الميول والنزعات ، وتباين التعاطف الوجداني ، فقد لوحظ أن بعض المصريين كانوا يميلون إلى الثقافة الفرنسية والأدب الفرنسي ، ويتشبهون في حياتهم وعاداتهم بالسائد عند الفرنسيين ، ومنهم من يظاهر الثقافة الإنجليز أمريكية ، والأدب الأنجليزى . هذا في حين أن الغالبية العظمى من الشعب لا تستسيغ إلا ما هو شرقي عربي ، بالرغم من تأثر الذوق العام إلى حد ما بالعناصر الأجنبية ، سيما في الموسيقى وفي الملابس ، وفي فن العمارة والهندسة .

كذلك قد تؤثر الثقافات الغربية في مرافقنا إزاء بعض المشكلات القومية المحلية ، ومن تلك المشكلات العائلية .. والنفور من الطلاق وتحديدده ، والمرأة وإباحة الفرص المتكافئة لها للعمل ، والتعليم المختلط بين البنين والبنات . وحقوق المرأة السياسية ، فقد سائر الإقليم المصرى في كثير من هذه الموضوعات المجتمعات الغربية ، على أن ذلك ليس من شأنه أن يفقد المجتمع المصرى شخصاته الذاتية ، إذ أن هذه المسيرة لا تعدو أن تكون خضوعا ومجاراة لسنة التطور ، مع الاستفادة بفرص اختلاط الثقافات ، واحتكاك الحضارات .

والواقع أن ما نلحسه الآن في عهد الانتقال ليس إلا صراعا بين الرجعية المنتكسة والمتمسكة بأهداب القديم دون فهم أو مرونة كافية لتقبل النيارات الاجتماعية الجديدة ، وبين الطليعة التقدمية التي تحاول أن تصل الماضي بالحاضر ، وأن تجعل من الثقافات المتضاربة والمتعارضة وحدة متفاعلة منصهرة مع الأنماط الثقافية الأصلية .

وقد أدى الاعتداء الثلاثى العاشم على القطاع المصرى من دول إنجلترا وفرنسا وإسرائيل في نوفمبر سنة ١٩٥٦ إلى تمصير وتعريب التعليم الأجنبي في إقليم مصر ، وإشراف وزارة التربية والتعليم على جميع المدارس الأجنبية ، ونجحت بعض مؤسسات التعليم القومية الحرة في سد الفراغ الذى كان يعاني

منه قطاع التعليم العام ونهيات السياسة التعليمية الديمقراطية التي تقضى على الفوارق الثقافية النوعية .

وبذلك تجنبت البلاد رواسب الثقافات الاستعمارية المعرضة والتعصبية والمتحيزة لأنماطها الأصلية المستوردة .

ومن ناحية أخرى يمكننا أن تتبع أثر هجرة القبائل العربية من الناحية الثقافية في نشر اللغة العربية فنزوح السلالات العربية ، من مواطنها الأصلية في الجزيرة العربية إلى أجزاء الوطن العربي الكبير في إفريقية ، واختلاط تلك العناصر العربية بسكان تلك البلاد الأصليين ، كان له أثر واضح في نقل الملامح العربية والسمات البدوية إلى السكان ، ويبدو ذلك بوضوح في السودان حيث تأثرت قبيلة البجة بمن جاورها من عرب الكواهلة عن طريق النسب والمصاهرة ، وكذلك تأثرت العناصر الزنوجية بالدماء العربية سواء كان ذلك في السودان أو شرق إفريقية . وبالمثل حدث مثل ذلك للبربر في شمال إفريقية عندما اختلطت بهم القبائل العربية .

كذلك نقل هؤلاء المهاجرون العرب إلى تلك الأقطار الممتدة ، سواء كان ذلك في القديم أو في الحديث كثيرا مما حملوه من عاداتهم وتقاليدهم ومستويات ثقافتهم وأدوات حضارتهم ، وتم كل ذلك عن طريق الاختلاط والتصاهر والجوار . ولم يمض وقت طويل حتى امتزجت تلك السلالات العربية بسكان البلاد النازحة إليها ، ولسكن الامتزاج كان أفصح في أماكن الاستقرار في القرى والمدن وفي السهول الخصبة ، ولقد انطبع العرب أيضا بعد استقرارهم في تلك الديار بعادات أهلها وتقاليدهم في المأكل والمشرب وأدوات العمل ، وطرق الحياة المختلفة . بيد أن العرب الضارين في الصحراء ظلوا على بداوتهم - إلى حد كبير - يحتفظون بأنسابهم الأولى وتسيطر عليهم تقاليد الصحراء ، ويحكمهم قانون القبيلة ، وحرقتهم الرئيسة الرعى ، وإن كانوا يزاولون الزراعة أحيانا .

وعمل هؤلاء البدو المهاجرون على نشر اللغة العربية أينما حلوا ، وإن كان ذلك يتوقف إلى كبير على عددهم ، ومقدار مكثهم في المواطن الجديدة ومدى استجابة تلك المواطن لما يحمله العرب من عناصر اللغة كما كانت تلك العناصر القوية عوامل فعالة في نشر الدين الإسلامي ، ومساعدة الجيوش العربية الزاحفة مع الفتح الإسلامي .

وكانت أهم القبائل أثرا في حياة الأمة العربية ، وألمع ظهورا في تاريخها تلك القبائل التي أتت مع الفتح الإسلامي للبلاد المختلفة ، وما كان لها من عظيم الأثر في نشر لغة العرب في تلك البلاد المفتوحة وصبغها بالصبغة العربية . وكانت أهم الهجرات العربية هي هجرة قبائل البدو عقب وفاة الرسول (ﷺ) . ففي مدى عشرات من السنين حملت قبائل البادية في غزوات الفتح لهجاتها إلى سائر أرجاء الوطن العربي . فلم تسكد تمضي مائة عام على وفاته حتى امتدت الدولة إلى سفوح البرانس في المغرب ، وإلى أواسط آسيا . وهذا النفوذ للغة العربية في مناطق كانت تتوطنها لغات أخرى ، لم يكن لير عليها دون تأثير أو تغيير . ولقد احتفظت كثير من القبائل البدوية في البلدان التي استولت عليها بطريقة حياتها الخاصة ، وحافظت بذلك على سلامة لهجتها وخلوصها ، ولهذا كان لا يزال يمكننا في أوائل العصر العباسي أن نجد المرء من جنوب البرتغال في الغرب إلى خراسان في الشرق قبائل عربية ، وأن يسمع من فيها عربية بدوية خالصة لا تشوبها عجمة . وأستطيع أن أذكر في إيجاز العوامل التي ساعدت على انتشار العربية ، في البلاد الإسلامية ، فيما يأتي : -

- (١) محافظة كثير من القبائل العربية في مواطنها الجديدة على أسلوب حياتها الخاصة ، لحافظت بذلك على سلامة لغتها .
- (٢) بعث عهد الفتح روحا من القوة في صميم العربية ، وعمل على توحيد لهجات البدويين أنفسهم .

(٣) السياسة الاجتماعية التي وضعها الخليفة عمر بن الخطاب ، عمات على توحيد اللغة ، وإنشاء لسان مشترك بين قبائل البدو ، كما حفظت العربية من الاضمحلال والانحلال ، فلما يحفظ عمر العرب من التلاشي في الجماهير المغلوبة ، والتي تفوقهم عددا ، حرم عليهم أن يمتسكوا الضياع في الأقاليم الجديدة كما جعلهم بمعزل عن المدن الكبيرة في البلاد المفتوحة ، ماعدا سورية التي كانت قد استعربت إلى حد كبير قبل الإسلام بواسطة القبائل العربية التي هاجرت إليها ، فأسكنهم في معسكرات من الخيام كانت نواة للمدن التي نشأت فيما بعد ، كالبصرة ، والكوفة والفسطاط .

(٤) استعراب وإسلام الطوائف التي دخلت من العبيد والخدم والتجار والصناع . . . إلخ ، والجماعات التي وقعت في الأسر أثناء الفتح دخلت معسكرات الفاتحين ويوتهم ، هؤلاء وأولئك وجدوا أنفسهم فجأة متغلغلين في جولة عربية ، فاضطروا إلى استعمال لسان السادة ولهجتهم . هذا ولم تكن هناك لغة واحدة من التي لقيها العرب في عهد الفتح ، محتفظة بنظام تصريفها ، كل ذلك أدى إلى ضرورة التفاهم مع العرب باستعمال لغتهم ، ومن هنا بدأ كثير من اللحن يدخل في العربية ، ولكن بالتدريج نشأت لغة مولدة فيها بعض الخلط ، وبذا أخذت اللهجات في الظهور ، والاختلاف باختلاف الأقطار المفتوحة .

(٥) وفي الثلث الأخير من القرن الهجري الأول قد أخذ نحو العربية المولدة حدا لم تتوقف فيه الأخطار اللغوية عن الظهور حتى في الدوائر الأولى في المجتمع العربي . لذلك قامت حركة ضد فساد اللغة ، ونشأ مبدأ تنقية اللغة العربية الذي حمل راية المحافظة على خلوص اللغة .

(٦) وبرهن الأمويون على أنهم حماة المبادئ العربية ، بالتزامهم أصول اللغة في سائر شئونهم ، وخاصة عبد الملك ابن مروان ، الذي كان يحذر أبناءه من اللحن ، ولم يستعمل هو صيغا ملحونة حتى في المزاح .

وكذلك الخليفة عمر بن عبد العزيز .

(٧) ظهور طبقة الموالي وطموحهم إلى محاكاة الطبقة صاحبة السيادة فيما تفعل ، فاحتضنوا أيضا مبدأ تنقية اللغة .

(٨) صارت لغة القرآن في شعور كل مسلم - أيا كانت لغته الأصلية - جزءا لا ينفصل من حقيقة الإسلام .

(٩) ولقد تم تعريب سورية عن طريق العربية التي هاجرت إليها قبل الفتح الإسلامي . أما في مصر فقد رجحت لغة العربية في القرن الثالث ، على حين تراجعت القبطية إلى سهول الريف حتى تلاشت في القرن السادس الهجري تماما^(١) . أما ليبيا فقد تم تعريبها على يد قبائل بني سليم ، وبني هلال في أواسط القرن الخامس الهجري .

ولم يقتصر أثر الهجرة العربية على مجموعة الوحدات التي تمثل اليوم أركان العالم العربي الذي يمتد من الخليج العربي إلى المحيط الأطلسي ، وإنما تعدى هذا الأثر إلى التغلغل الثقافي والاتو جرافي في شعوب أفريقيا التي تمثلها الآن القوميات المتبلورة في نيجيريا وغانا والكمرون وساحل العاج فإذا استعرضنا التطور التاريخي للأمبراطوريات التي نشأت في غربي أفريقيا وجدنا أن هناك رابطة قوية بين اتجاه الحضارة في تلك الجماعات وبين حضارة ومدنية العرب ، ويوضح ذلك المتتبع لانتشار العقيدة الإسلامية في أربع دول : أمبراطورية غانة ، وأمبراطورية غينيا ، وأمبراطورية سنغاي ، ومملكة بورنو من القرن العاشر إلى القرن التاسع عشر ولا زالت العقيدة الإسلامية وموجودة في تلك البقاع بل أن نسبة عدد المسلمين إلى الوثنيين في بعض الجهات تمثل الغالبية العظمى من السكان على نحو ما توضحه الإحصائية التالية رقم (١) .

(١) العربية ، دراسات في اللغة واللهجات والأساليب . تأليف يوهان فوك «Johann Fück» ونقله إلى العربية الدكتور عبد الحليم النجار . القاهرة سنة ١٩٥١ . (ص ٢٢) .
(١٣ المكان)

إحصائية رقم (١)

توضح عدد السكان وعدد المسلمين وعدد الوثنيين ونسبة المسلمين إلى عدد السكان .

الإقليم	مجموع السكان	عدد المسلمين	عدد الوثنيين	المسلمين %
موريتانيا	٠,٥١٨,٠٠٠	٠,٥٠٠,٠٠٠	٠,٠١٨,٠٠٠	% ٩٩
السودان الفرنسي	٤,٤٦٩,٩٠٠	٣,٢٠٠,٠٠٠	١,٢٦٩,٩٠٠	% ٧٥
تشاد	٣,٥٠٠,٠٠٠	١,٤٠٠,٠٠٠	١,١٠٠,٠٠٠	% ٦٥
منطقة النيجر العسكرية	٢,٠٢٩,٠٠٠	١,٨٠٠,٠٠٠	٠,٢٢٩,٠٠٠	% ٨٥
السنغال	٢,١٠٨,٢٠٠	٠,٧٥٠,٠٠٠	١,٣٥٨,١٩٥	% ٨٠

L' Islam Dans L'A. O. F., Paris, 1952

ومن الطبيعي أن يتبع إنتشار الإسلام ، إنتشار اللغة العربية أو بعض مفرداتها ، وتظهرنا الإحصائيتان رقم (٢) ، (٣) على مدى تغلغل اللغة العربية قبل الاستعمار وبعده في تلك الجهات هذا فضلا عن الأثر الاثنولوجي الذي توضحه الإحصائية رقم (٤) في تركيب سكان بعض المناطق الأفريقية .

إحصائية رقم (٢)

توضح نسبة الألفاظ العربية المستعملة في أوجه الحياة المختلفة قبل الاستعمار مباشرة .

الرقم النسبي لمجموع ألفاظ اللغة .	الدين	القضاء	التعليم	النشر	المعاملات
١٠٠	١٠٠	١٠٠	١٠٠	١٠٠	١٠٠
عدد ألفاظ اللغة العربية نسيا .	٩٠	٨٥	٧٤	٦٩	٦٥

L' Islam noir, Paris, 1924.

إحصائية رقم (٣)

توضح نسبة الألفاظ العربية المستعملة في أوجه الحياة والألفاظ الأوربية بعد الاستعمار .

المعاملات	النشر	التعليم	القضاء	الدين	
١٠٠	١٠٠	١٠٠	١٠٠	١٠٠	الرقم النسبي لمجموع ألفاظ اللغة .
٦٢	٥٠	٥٠	٢٠	٨٠	عدد الألفاظ العربية نسبيا .
١٠	٥٠	٥٠	٨٠	١٥	عدد الألفاظ الأوربية نسبيا .

L'Islam Noir, Paris, 1924.

إحصائية رقم (٤)

توضح عدد السكان الأصليين وعدد السكان العرب وعدد المستوطنين الأوربيين .

الإقليم	مجموع السكان	السكان الأصليون	السكان العرب	السكان الأوربيون
موريتانيا	٠,٥١٨,٠٠٠	٠,٤٣٠,٠٠٠	٠,٠٨٠,٠٠٠	٠,٠٠٨,٩٠٠
السودان الفرنسي	٤,٤٦٩,٩٠٠	٤,٠٠٠,٠٠٠	٠,٤٥٠,٠٠٠	٠,٠١٩,٠٠٠
تشاد	٢,٥٠٠,٠٠٠	٢,٠٠٠,٥٠٠	٠,٤٣٠,٠٠٠	٠,٠٦٩,٥٠٠
منطقة النيجر العسكرية	٢,٠٢٩,٠٠٠	١,٥٠٠,١٠٠	٠,٤٩٠,٠٠٠	٠,٠٤٠,٠٠٠
السنغال	٢,١٠٨,٢٠٠	٢,١٠٨,٢٠٠	٠,١٠٠,٠٠٠	٠,٠٠٨,٠٠٠
المجموع	١١,٦٢٥,١٠٠	٩,٥٣٨,٨٠٠	١,٥٥٠,٠٠٠	٠,١٤٤,٥٠٠

L. Islam Dans L. A. O. F. Paris, 1922.

ومن نافذة القول أن نقرر أن أثر الهجرة العربية إلى تلك المجتمعات قد قصر على انتشار الديانة الإسلامية واللغة العربية وإقامة جماعات اثنولوجية مستعربة ، وإنما امتد هذا الأثر إلى فن العمارة ، فإن مدن تمبكتو ودكار وآبسن تظهر وكأنها مدن عربية في آثارها وقصورها وأسواقها ودور العلم بها والمظاهر الاتنوجرافية التي تنعكس في أدوات الصيد ووسائل النقل أدوات ووسائل عربية منها السهم والقوس للصيد والسيوف والدرع في الحرب والجمال للانتقال ، وبقية المظاهر الثقافية المادية الأخرى ، مما لا يجعل مجالا للشك في أن الهجرة العربية تعتبر أهم العوامل الديموجرافية أترأ في النواحي الثقافية لتلك المنطقة ، ومن ثم فإنه يحق للدارسين العرب النظر إليها في ضوء هذه الحقائق الاثنولوجية والديموجرافية والحضارية^(١) .

ونظراً لأننا نعلق أهمية خاصة لآثار الهجرة العربية إلى القارة الأفريقية ، باعتبار أن هذه المسألة تبرز ناحية هامة من النواحي التي تقرب إلى الأذهان الوحدة الاثنولوجية الأمة العربية ، فقد آثرنا أن نخصص الفصل التالي لعلاج هذه الظاهرة الديموجرافية الهامة .

(١) لاستيفاء هذا الموضوع الجوى ننصح بالاستزادة من المراجع الآتية :
الدكتور حسن إبراهيم حسن : انتشار الإسلام والعروبة فيما يلي الصحراء الكبرى وشرق القارة الأفريقية وغربها القاهرة ١٩٥٧ .

هزة النصر : محاضرات في جغرافية المغرب العربي ، معهد الدراسات العربية .
Couilly, L'Islam dans L' A. O. F., Paris 1952.
Gurther, I, Inside Africa, 1956.
Marty, P., Etudes sur L'Islam et les Tribus du Soudan.

الفصل العاشر

الهجرة والوحدة الأثنولوجية في العالم العربي

ينتظم العالم العربي في صورته الراهنة ، مجموعة سكانية متجانسة ، تشغل مساحة شاسعة تقرب من مساحة الولايات المتحدة الأمريكية ، غير أنها موزعة على وحدات سياسية متعددة لعل في مقدمتها :

- ١ - الجمهورية العربية المتحدة بأقليمها الشمالى (سوريا) والجنوبى (مصر)
ويبلغ تعداد سكانها حوالى ثمان وعشرين مليوناً
- ٢ - الجمهورية السودانية ويبلغ عدد سكانها ثمانية ملايين وسبعمائة وسبعين ألفاً
- ٣ - الجمهورية العراقية » » خمسة ملايين ومائة ألف
- ٤ - المملكة اليمنية المتوكلية » » أربعة ملايين ونصف
- ٥ - الليبية المتحدة » » مليون ومائة وخمسون ألفاً
- ٦ - الأردنية الهاشمية » » مليون وثلاثمائة وثلاثون ألفاً
- ٧ - العربية السعودية » » سبعة ملايين
- ٨ - الجمهورية التونسية » » أربعة ملايين
- ٩ - المملكة المغربية » » عشرة ملايين
- ١٠ - الجمهورية اللبنانية » » مليون وثلاثمائة وعشرون ألفاً
- ١١ - محميات عدن » » ثلاثمائة وسبعين ألفاً
- ١٢ - حضرموت » » مائة وعشرون ألفاً
- ١٣ - سلطنة عمان » » خمسمائة وخمسون ألفاً
- ١٤ - أماره قطر » » عشرون ألفاً

هذه الاحصائيات تقديرية ، ولمعرفة الأعداد بالضبط يمكن الرجوع إلى المجموعة التى أصدرتها الأمم المتحدة عام ١٩٥٤ .

- ١٥ - إمارة البحرين مائة وعشرون ألفاً
١٦ - الكويت مائة وخمسون ألفاً
١٧ - الجزائر تسعة ملايين ومائة وأربعون ألفاً
١٨ - فلسطين المحتلة
١٩ - مستعمرة عدن مائة ألف

٢٠ - أمارات ساحل الصلح البحرى والمناطق المحايدة على الخليج العربى
ويبلغ عدد سكانه بضعة آلاف

ولعل نعت الشعوب السالفة الذكر ، بصفة العروبة ، مما يوحى بالوحدة
الاثنولوجية بين سكان هذه الأقطار السياسية ، والواقع أن هذه الوحدة
قد تحققت بفضل ما يربط بين سكان هذه الدول من اتصال دائم واختلاط
مستمر عن طريق الهجرات المتتالية للقبائل العربية ، الأمر الذى أدى إلى
انصهار السكان الأصليين والعرب المستوطنين انصهاراً انتهى إلى ما يشبه
الوحدة الجنسية لهذه الشعوب ، فإذا أضفنا إلى ذلك عامل الجوار والامتداد
الطبيعى الجغرافى ، وعامل وحدة اللغة وهى العربية التى كتب لها الغلبة على
اللغات المحلية والإقليمية الجزئية ، بالرغم من احتضانها لأقليات كردية
وأرمنية وبربرية ^(١) ، وتمائلها فى العامل الايكولوجى الاكويومى العمرانى
من حيث استجابتها لظروف المحيط البيئى ، والارتفاع بالموارد الطبيعى ،

(١) لمعرفة الأقليات السلافية فى البلاد العربية يرجع إلى كتاب

Social Forces in the Middle East, The Minorities in the
Political Process.

على أن الأقليات الجنسية أو القومية والدينية فى مجموعها لا تعدو ١٢ ٪ من مجموع السكان
السكنى ، وكثير منها دخيل طارئ ، وهى أقليات هامشية فى توزيعها حيث تظلل المنطقة متجانسة
من الناحية الواقعية ، واستغلال الطائفية كان دائماً مقروناً بالأساليب الاستعمارية لتفتت الحركات
القومية والوحدة العربية .

راجع كتاب الجغرافيا السياسية . للدكاترة . دولت صادق ومحمد غلاب والدناصورى ص ١٨ :

كتاب فيشر Fisher, W.B., The Middel East, London, 1950.

فضلا عن اشتراكها في التاريخ الحضارى والأساسى الثقافى ، الأمر الذى تستند إليه أصالة حضارة كل من مصر القديمة والحضارة السومرية وتجانس مظاهرها سواء فى أشكال الحياة البدوية أو الحياة الزراعية وذلك بالإضافة إلى كونها مهد الرسالات الدينية والعقائد المنزلة المعروفة باسم الديانات السماوية التى تقوم على التوحيد والمحبة والإخاء ، وتنطوى على المبادئ الأساسية للتنظيم والتكامل والتكافل الاجتماعى للشعب العربى ، بل وترتكز أصلا على نبذ التفاوت العنصرى ، والتأخى بصرف النظر عن التباين اللوى أو اللغوى أو المذهبى ، فبادئ الحياء الإيجابى والتعايش السلمى والتكافل الطبقي والتكامل التعاونى تعتبر مبادئ أصلية فى التراث الثقافى للشعب العربى . هذا بالإضافة إلى الدور الكفاحى فى سبيل التحرر من النير الاستعمارى والظلم السياسى الذى حاق بأجزاء الوطن العربى .

وإلى جانب كل ما تقدم ، فإن الملاحظ أن مستويات هذا الشعب قد امتازت فى جملتها بالظاهرة المعروفة عند العلماء الانثروبولوجيين بظاهرة التمرکز الحضارى Ethnocentrism ، أو التمسك بمقدسات وعادات وتقاليد الجماعة والالتفاف حول مقومات حضارتها ، ولذلك فإن هذا المجتمع قد زود بقدرة عجيبة على صهر التيارات الحضارية الراحفة إليه تمثلها بدرجات متفاوتة ، دون أن تتأثر مقوماته الحضارية الأصلية بالعناصر الغريبة الدخيلة عليه ، ولهذا فإنه فى كل مراحل الانتفاضات التقدمية لا يلجأ إلى المبادئ المستوردة ، وإنما يستعين على تطوير مقوماته بما يلائم أوضاعه ، ويحفظ ذاتيته الحضارية نامية متجددة . وقد حرصت بعض قطاعاته على الخضوع لهذه الخاصية خضوعاً أورثها الجمود وربما هذا هو السر فى أننا نجد تفاوتاً فى القطاعات من الناحية الاجتماعية والثقافية فى كل أرجاء الوطن العربى .

ومع ذلك فقد ظل الطابع الجشطاطى العام Configuration لسكان

هذه المنطقة عربيا في ثقافته ولغته وذوقه وفنه ومثله ، وذلك نتيجة تغذيته المستمرة من منبعه الأصلي ، شبه الجزيرة العربية ، عن طريق موجات من الهجرة المتتابعة في العصور التاريخية المتلاحقة .

ويذكر علماء الجغرافيا في تفسير وتعليل الهجرات البشرية التي أثرت في سكان العالم العربي عدة عوامل من بينها عامل المناخ الذي امتاز بإحداث تذبذبات مناخية في بعض العهود التاريخية ، نتج عنها تعرض بعض هذه الأقاليم لفترات جفاف ، ساءت أثناءها الظروف الاقتصادية والسياسية وتبع ذلك حركات هجرة بشرية من مناطق الجفاف والفقر إلى الأقاليم المعروفة بخصوبتها في فجر التاريخ ، كمنطقة الهلال الخصيب ، ووادي النيل ، ومعنى ذلك أن عامل الطرد من قلب الصحراء المجردة ، قد قابله عامل الجذب الذي كان يغري سكان البادية بالهجرة إلى المناطق الخصبة الغنية ، وكانت هذه الهجرات تستقبلها تلك الأقاليم أحيانا بالسلم وأحيانا تفرض نفسها على السكان الأصليين بالعنف تحت وطأة الظروف المعيشية المصاحبة لها . وآية ذلك أن المناطق المجردة من الجزيرة العربية ظلت تطرد الموجات البشرية إلى أطراف الجزيرة فتكثف السكان في الأطراف الممتدة حولها كالشام واليمن وعمان ومنها هاجروا إلى السهول الخصبة في العراق وسوريا ووادي النيل والجالا وأرتيريا .

هنا ونحن لا نستطيع أن نغفل العوامل الاجتماعية التي ساعدت أو أسهمت في الهجرات العربية إلى مناطق وقطاعات العالم العربي ، وفي مقدمة تلك العوامل الاجتماعية :

- (أ) انتشار تجارة الرقيق في القبائل العربية حتى صدر الإسلام .
- (ب) اشتغال كثير من القبائل العربية في التجارة ونقل البضائع من شواطئ أطراف شبه الجزيرة العربية إلى الهند وسيلان والبلاد المجاورة لها ، أو نقل بضائع تلك البلاد إلى أفريقيا والشام ومصر ، ومن ثم إلى بعض

الموتى في شمال أفريقيا أو جنوب أوروبا ، وقد ساعد على ذلك جراحة
العربي البدوي وميله إلى الرحلة وتحمله مشاق السفر وتعوده البحث عن
موطن الرزق ، وألفته للظعن والترحال والبعد عن الموطن الأصلي .

(ح) القحط والفقر والعوز الذي يحيط بقبيلة من القبائل العربية ،
يدفعها إلى الهجرة كوسيلة فذة لاحتفاظها بمركزها الاجتماعي بين
ظهران جيرانها .

(د) الحروب الداخلية بين القبائل ، وغلبة قبيلة على قبيلة أخرى
قد تدفعها إلى الهجرة حفظاً لكرامتها أو ذوداً عن العار الذي يصيبها .

(هـ) هذا بالإضافة إلى كثرة السكان في مناطق لا تفي مواردها الطبيعية
بحاجة سكانها الذين كانوا يعتمدون اعتماداً يكاد يكون كلياً على هذه الموارد .

(و) هناك أيضاً عوامل سياسية خارج نطاق الجزيرة العربية تشجع
على موجات الهجرة ، منها ضعف مركز الأقاليم المجاورة لها من حيث
الوضع السياسي أو الدفاعي .

كذلك لا بد وأن ندخل في الحسبان أثر العامل الديني وعامل الغزو
والفتح الذي دفع العرب إلى الهجرة إلى البلاد المفتوحة والاستقرار فيها
بل والعمل على تكبيرين حكومات عربية تحكم تلك البلاد ، وتشجيع الخلفاء
للقبائل على الهجرة الجماعية إلى تلك البقاع وإقامة حكومات عربية مستقلة
في أجزاء كثيرة من الوطن العربي ، بعيدة عن مركز الخلافة الإسلامية
إلى غير ذلك من الاعتبارات التي يضيق بها هذا المجال .

ومن الممكن أن تحدد جغرافياً طرق أو منافذ هجرة القبائل العربية
إلى أجزاء الوطن العربي في العصور التاريخية المتعاقبة ، وخاصة إذا وضعنا
موضع الاعتبار موقع شبه الجزيرة العربية في جنوب غرب آسيا ،
وملامستها القارة الإفريقية عن طريق سيناء وقرنها من الساحل الشرقي
حيث مضيق باب المندب الذي لا يزيد اتساعه عن ١٦ ميلاً فكانت موجات

الهجرة تتخذ طريقاً شمالياً شرقياً إلى أرض الجزيرة في العراق أو شمالياً غربياً إلى أرض الشام ، ويكفى أن نشير إلى الهجرات التاريخية القديمة التي تتمثل في هجرة الكنعانيين ، والنبطيين ، والقبائل الإسماعيلية ، وهجرات القبائل الجنوبية الذي اضطروا إلى التحرك شمالاً نتيجة لتهدم سد مأرب وكانت هناك منافذ للهجرة العربية عن طريق سيناء متخذة مجموعة الطرق الشمالية التي تصل بين بلاد الشام وإقليم مصر ، أو تلك الطرق الوسطى التي كانت تربط بين بلاد النبط القديمة وشمال بلاد العرب أو تلك الطرق التي كانت تمر بها قوافل الحج إلى مكة والآتية من مصر وشمال أفريقية والتي تقطع المنطقة الجبلية إلى خليج العقبة وهناك أيضاً مجموعة طرق في شرق أفريقيا ، سلكتها السلالات العربية وتدفقت منها إلى إفريقية عابرة طريق باب المندب ، وبعض هذه الهجرات اتجهت إلى الجنوب حيث استقر في بلاد الصومال والجالا وهاجر بعضها شمالاً إلى سهول أرتريا (الحبشة) واستقر في الإقليم الواقع بين النيل والبحر الأحمر وكثير من العناصر العربية اتجهت نحو النيل ودخلت إلى بلاد النوبة والإقليم المصري عن هذا الطريق كما أن بعضها اتجهت إلى مصر بطريق مباشر سالكاً الصحراء الشرقية من الجنوب إلى الشمال ويذهب بعض علماء الانثروبوجيا ^(١) إلى أن قدماء المصريين يشبهون قبائل البجة المتصلة بالقبائل العربية القديمة ، ويعلمون ذلك بالامتزاج التاريخي بين الشعبين ، وخاصة أن الفراعنة كانوا يستعينون بالبجة في شؤونهم الحربية ، حتى يذهب البعض إلى القول بأن تلك القبائل قد عاونت بني الأول على إخضاع ثورة القبائل الفلسطينية كما عاونت المصريين في طرد الهكسوس .

راجع مقال الدكتور سليمان حزين عن سكان مصر ودراسة تاريخهم الجندى . المجلة التاريخية المصرية مايو - أكتوبر سنة ١٩٣٨ .

(1) Seligman, The Hamitic Problem in The Anglo-Egyptian Sudan in. J. R. A. I.

(2) Brinton, Cradle of The Semites.

وكذلك كانت بلاد اليمن مصدرا لهجرات عديدة أثرت تأثيرا كبيرا في التكوين الاثنولوجي لبلاد أعلى النيل الأزرق والعبطرية وبلاد أرتريا وسواحل السودان الشرقية ، وكانت هذه الهجرات أكثر من هجرات الشمال وذلك للوفرة العددية لسكان اليمن في تلك العصور القديمة ، ولتكلف اليمنيين بالملاحة والانتقال وعبور البحر إلى الضفة المقابلة في أفريقيا .

وكثيراً ما كانت تسلك القبائل العربية طريق الهجرة إلى الاقليم المصري من الشمال الشرقى عبر برزخ السويس ، ثم تتجه جنوباً إلى السودان ، وكان لهذا أثره البالغ في تدعيم الروابط بين شمال وادى النيل وجنوبه من الناحية الاثنولوجية ، سواء في ذلك ماحدث في العصر الفرعوني القديم أو في العصر الرومانى أو في العهد الإسلامى . ويبدو أن هذا الطريق كان هو الممر ائريثسى أيضاً لقبائل العرب الذين هاجروا إلى شمال إفريقيا في عصور تاريخية متعاقبة .

وأخيراً فإن هناك الطريق^(١) أو المنافذ الليبية للهجرة العربية ، وهى التى تصل السودان الشمالى الغربى بصحراء ليبيا غرب النيل ، وبعض هذه الطرق يصل بين الاقليم المصرى وإقليم برقة ، وبعضها منافذ تصل بين تونس وطرابلس وإقليم فزان الليبى وبعضها يسلك الطريق الصحراوى بين منطقة تبستى وودآى وهذا الطريق هو الذى اتبعته بعض القبائل الليبية مثل البدايات والجرعان فى هجرتها إلى السودان .

ومهما يكن من أمر هذه المنافذ والمسالك التى تشير إلى وسائل انتقال السكان فى البيئة التى يشغلها الآن الشعب العربى ، فإنها تعكس ، الشخصية الاقليمية للوحدة العربية « ، Genius Loci » ، التى يعنى بها علماء الجغرافيا البشرية فى دراستهم الديموجرافية ، ونحن نعتقنا بوجه خاص أن تؤكد

للتوسع فى الصلات والهجرات التاريخية للعرب يمكن الرجوع إلى :
مبروك ماف : تاريخ العرب ، عصر ما قبل الإسلام .

الجانب الأيكولوجي الأكيوميني العمراني باعتبار أن العالم العربي يمثل منطقة اتصال وامتزاج بين كتل السلالات البشرية الرئيسية ، الأمر الذي أدى إلى اعتباره في نظر كثير من علماء الأنثروبولوجيا المصفاة والبوتقة التي تنصهر فيها التنوعات الأنثولوجية في مركب متجانس يمثل التكامل اللازم للوحدة المورفولوجية والوحدة الوظيفية من الناحية الديموجرافية ، إذ تتكامل في نطاق العالم العربي الوحدات المتباينة من النواحي الاجتماعية والاقتصادية والثروات الطبيعية ، فتزيد في غنى الشخصية القومية التي تنعكس في وحدة التكوين الأنثولوجي للسكان ، ونحن نقصد بذلك التقارب في العادات والأخلاق والميول والصفات والتآلف في الظروف المادية والأوضاع السياسية والاجتماعية ، والمشاركة الوجدانية ، والثقافية الروحية والشعور القومي المتغلغل في الجماهير العربية فضلا عن الوحدة اللغوية .

وقد يدعونا المجال لأن نشر إلى بعض الآراء التي تلقى ضوءا على هذه المسألة من الناحية التاريخية الأنثروبولوجية فهناك مثلا نظرية بلسكريف^(١) الذي ذهب إلى أن الموطن الأصلي للساميين ومنهم العرب هو القارة الإفريقية ، مدعما ذلك بوجود تشابه في الملامح ، وفي الخصائص السلالية ، فضلا عن الصلات اللغوية بين الأحباش والبربر والعرب مستندا إلى رأي برنتون^(٢) الذي زعم أن جبال الأطلس هي الموطن للساميين واستخلص فريق آخر من وجود تلك الصلات اللغوية والعلاقات الأنثولوجية التي تلاحظ على سكان تلك المنطقة أن الموطن الأول للساميين هو أفريقيا الشرقية وإن اختلف هذا الفريق في الطريق التي سلكها الساميون في عبورهم إلى آسيا ، فالبعض^(٣) ذهب إلى أن سينا كانت هي المنفذ الفذ والبعض الآخر قرر أن باب المندب كانت

(1) James Breasted : The Origins of Civilisation (Reprinted from the Scientific Monthly Nov. 1919

(2) Brinton, Cradle of civilisations

(3) Maspero ; Dawn of Civilization 1896. p. 357.

الطريق المؤدية إلى اليمن السعيدة ومنها إلى شبه الجزيرة العربية ، وحدد آخرون إرتقاء الحضارة الفرعونية وإزدهارها بأول هجرة جماعية من القبائل التي قذفتها شبه الجزيرة العربية وهي الهجرة التي أنشأت أيضاً الحضارة الآشورية والبابلية .

واسنأ هنا بصدد مناقشة هذه النظريات التخمينية التي تعالج نشأة الوحدة الإثنولوجية وإنما الشيء الذي تلتقي عنده كل هذه الآراء أن هناك ثمة « أصول مشتركة » أثارت إنباه هؤلاء الباحثين فحاولوا تفسيرها في ضوء دلالات وقرائن إثنوجرافية وهذه القرائن قديمة قدم التسجيل التاريخي بدليل أن تاريخ هيرودوت قد وردت فيه كلمة « أرابيا ، Arabia » في منتصف القرن الخامس قبل الميلاد ، وأصبح هذا الاسم معروفاً بين كتاب اليونان ولم يكونوا يقصدون به بلاد العرب بحدودها الجغرافية الحالية بل كانوا يقصدون بذلك شبه الجزيرة العربية وشبه جزيرة سيناء وصحراء مصر الشرقية ، وأحياناً جزءاً من شرقي الدلتا (٢) .

ويذكر الدكتور أحمد غنري أن بدو الجزيرة العربية قد دخلوا إلى الإقليم المصري عن طريق الصحراء الشرقية ووصلوا إلى النيل عن الدرب الموصل بين القصير والنيل ، وقد بقيت لهذا الدرب في جميع عصور التاريخ المصري القديم مكانة خاصة وكانوا يسمونه طريق الآلهة ، إشارة إلى مجيء بعض أسلافهم ومعهم آلهتهم عن هذا الطريق . ويضيف إلى ذلك قائلاً أنه ما من شك في أن صلة مصر بالشعوب السامية (ومنها العربية) - في عصر ما قبل التاريخ تركت أثرها في اللغة المصرية القديمة ، سواء في مفرداتها أو أجروميتها هذا وقد حاول كثير من العلماء إبراز أوجه التشابه العديدة التي تربط

محمود كامل : العرب ، تاريخهم بين الوحدة والفرقة ص ٧ - ٨ . معتمداً على محاضرات عن قضية فلسطين لأحمد الشقيري ، والطبعة الثانية من كتاب محمد مبروك نافع تاريخ العرب ، مصر ما قبل الإسلام .

(٢) الدكتور أحمد غنري : اليمن ، ماضيها وحاضرها . ص ١٦ .

بين اللغة المصرية القديمة واللغة السامية ولغة البربر في شمال أفريقيا^(١) ،
 وذهب البعض إلى أن سكان الإقليم المصري قد امتزجت بهم ثلاث جماعات
 بشرية العنصر الجنوبي ذو الرأس الصغيرة والقسمات الرقيقة الذي يقرب من
 الجنس الصومالي وسكان جنوب شبه الجزيرة العربية ، والعنصر السامي الليبي
 في الشمال وعنصر البحر الأبيض المتوسط الذي امتزجت فيه العناصر
 الإغريقية والأرمنية والسامية . ويذهب العلامة سيرجي إلى أن أهل جنوب
 وغرب أوروبا في العصرين الحجري القديم والحديث ينتمون إلى سلالة
 جنس البحر المتوسط كالمصريين الأولين ، وأن جبل طارق كان
 منفذ الهجرة بين القارتين الأوروبية والإفريقية كما كان برزخ السويس ممراً
 للهجرة بين القارة الآسيوية والأفريقية . وآية ذلك أن هذه المنطقة كان
 يجمعها وحدة اثنولوجية ، وكان الليبيون يسكنون شمال أفريقيا متوغلين
 على الضفة الغربية للنيل من البحر الأبيض المتوسط إلى أسوان
 وعلى الضفتين الشرقية والغربية للنيل عند السودان ، وكانت تمتد بلاد
 النوبة التي كان قدماء المصريين يطلقون عليها « كوش » ، وكان النوبيون
 ينتمون إلى العنصر الليبي ، وعلى الضفة الشرقية للنيل في الجنوب كان يسكن
 الموازي وهم البشاريون الحاليون ، وفي جبال وسهول الصحراء العربية كان
 يسكن اليونتو Luntiu وهم بدو ساميون أو بتعبير حديث « أعراب » ،
 أو عرب وكل الدراسات الاثنوجرافية لهذه المنطقة تدل دلالة واضحة
 على وجود صلات وتفاعلات اثنولوجية وثقافية من آسيا وشبه الجزيرة
 العربية ووادي النيل وشمال أفريقيا على نحو ما تعنى به المؤلفات المتخصصة

(١) الدكتور أحمد غري : تاريخ المشرق القديم طبع ضمن دراسات في العالم العربي ص ٨٣ .
 لاستجلاء هذه الناحية يمكن الرجوع إلى المراجع الآتية :

H.R. Hall ; The Ancient History of the Near East London 1913.
 Elliot Smith, " The Ancient Egyptians.
 J. De Morgan, Recherches sur l'Origine de L'Egypte Paris 1896.
 A. Moret and Davy, From Tribe to Empire London 1926.

في دراسة نشأة وتاريخ الحضارات لتلك المنطقة ، وملخصها أن الآثار الأركيولوجية تدل على أن سكان وادي النيل وجنوب غربي آسيا وشمال أفريقيا وجنوب البحر الأبيض المتوسط قد امتزجوا منذ أقدم العصور امتزاجاً ، يكون منهم وحدة اثولوجية أصيلة .

ولمكي نوضح بصفة عامة أثر العامل الديموجرافي في تحقيق هذه الوحدة الاثولوجية ، يجدر بنا أن نشير إلى أهم موجات الهجرة العربية إلى بعض أجزاء الوطن العربي مستعينين في ذلك ببعض المصادر العربية القديمة ، ومقالات وكتب بعض علماء الديموجرافيا العرب أمثال الدكتور محمد عوض محمد في الجزء الخاص بالهجرة المصرية إلى الجمهورية السودانية والدكتورين سليمان حزين وعباس عمار فيما يتصل بالهجرة إلى الجمهورية العربية .

أولاً الهجرة العربية إلى الإقليم المصري .

اتصلت مصر منذ فجر التاريخ بالجزيرة العربية ، وهاجر بدو الجزيرة العربية إلى مصر في العصور التاريخية المتتابعة في شكل موجات هجرة متعاقبة وكانت هذه الهجرة تتخذ أحياناً مظهراً سلمياً وأحياناً أخرى تتخذ مظهر القهر والغزو . وسنشير باختصار إلى نماذج لكل من هذه الهجرات التي ذكرتها أمهات الكتب العربية^(١) والمراجع الأجنبية^(٢) .

من المراجع العربية القديمة في هذا الباب

كتاب المعارف لابن قتيبة

صفة جزيرة العرب للمهداني جزء أول . طبع لندن سنة ١٨٨٣ م .

الجزء الثاني من كتاب العبر لابن خلدون . طبع بولاق .

صبح الأعني للقلقشندي . المطبعة الأميرية سنة ١٩١٢ م . الجزء الثالث .

اليان والاعراب عما نزل بأرض مصر من الأعراب القهريزي طبع دار المعارف سنة ١٩١٦ م .

Marpero, Dawn of Civilization, 1896.

Champollion, Egypte sous Les Pharaons V. II.

طبع الجزء المتعلق بالجمهورية العربية المتعددة في الكتاب السنوي الصادر عام ١٩٠٨ .

١ — الهجرات السلبية :

وتلك التي كان يؤخذ فيها رأى الوالى ولا تتم إلا بموافقته وبديل على ذلك صورة من مقابر بنى حسن تمثل عدداً من البدو يقدمون لفرعون مصر القرايين ليسمح لهم بالسكنى فى وادى النيل . ومثال ذلك :

(١) هجرات الكنعانيين وسكناهم فى شرق الدلتا (وقد ورد ذكرهم فى التوراة) .

(ب) تلك القبائل التي سمح لها بأن تهاجر من (أيدوميا) لترعى قطعانها وتعيش فى أرض مصر فى عهد منفتاح .

(ح) هجرة الاسماعيليين ، وهذه الهجرة ورد ذكرها فى القرآن الكريم ، وهم ينسبون إلى جدهم إبراهيم بن آزر . وقد ولد إبراهيم فى بلدة أرام بمملكة بابل ، ولما اهتدى إلى عبادة إله واحد بنائب فكره اضطهده ملك بابل (نمرود بن كنعان) ولكنه صبر على دينه الجديد ثم فر به وسار حتى حط رحاله فى فلسطين . ولما عم القحط وضائق سبل العيش رحل إبراهيم إلى مصر وهبط أرضها . وامتزج إبراهيم بأهل مصر وكان ومن معه طويل الاناة دمث الخلق دؤوباً على العمل فكثرت أمواله ونمت أنعامه وارتفع ذكره ولكن القوم حسدوه ونقموا عليه نعمته ، وسوالت لهم نفوسهم أن يؤذوه ، فأزعم الرحيل إلى فلسطين مرة أخرى ومعه زوجته وخادمتها هاجر الذى أهداها إليها حاكم مصر ، وأخذوا معهم أنعامهم واحتلوا ما يملكون من مال وكان ضمن من رحلوا معه لوط ابن أخيه ، ولكن (لوط) نزل إلى محلة سدوم بعد أن ضاق به المقام مع عمه إبراهيم . (و) هجرة يعقوب بن اسحق هو وأبناؤه إلى مصر بعد أن اشترى عزيزها يوسف بن يعقوب ، وبعد أن صار يوسف وزيراً لخزانة مصر ، على أثر قحط عم بلاد كنعان وأرض العراق . وعاش يعقوب وأبناؤه ومن

جاء معهم من قبائل البدو في مصر واختلطوا بأهلها وصاهروهم^(١) .

(هـ) هجرة النبطيين : وقد أتوا إلى مصر مع الاسماعيليين . والنبط قبائل يرجح الكتاب أن موجاتها الأولى خرجت من بلاد الحجاز ، وأنهم أسسوا دولة مركزها (سالع) في وادي مرسى وعمل النبطيون في التجارة حتى سيطروا على الطريق بين بلاد العرب وبلاد البحر الأبيض وأبغمت مناطق نفوذهم حتى قضى عليهم الرومان سنة ١٠٦ م . وامتد نفوذهم إلى جهات كثيرة فتدل الإبحاث الحديثة القليلة على وصولهم إلى وادي طيلات الذي كان الطريق الطبيعي بين برزخ السويس ووادي النيل .

٢ — هجرات الغزو :

وشهد أقليم مصر هجرات أخرى في شكل غزوات متتابعة ، أيام ضعف حكامها تشدد حيناً وتضعف حيناً آخر لكنها فيما يؤكد المؤرخون كانت مستمرة . فكانت القبائل العربية كثيرة الاغارة على مقاطعات مصر الشرقية وعلى الدلتا بوجه خاص .

ومن الصعب أن نعين بالضبط بدء هذه الغزوات ، إذ لم يدون منها إلا الغزوات الكبيرة كغزوة الهكسوس مثلاً ، ولكن الوثائق والكتابات المصرية تدل على أن تلك الغزوات سابقة لعصر الأسرات ، بل أن بعض الكتاب يرجعون هذه الغزوات إلى الأيام التي كانت تحكم فيها مصر بالآلهة كما تشير الميثولوجية المصرية حتى لقد كان على الآلهة أن يقوا أنفسهم من هؤلاء الغزاة^(٢) .

هذا إلى أن غزو العرب لأقليم مصر أيام التوسع الإسلامي ، لا يختلف

(١) كتاب المعارف لابن قتيبة وقصة يوسف جاءت في القرآن الكريم بصورة مقتضية .

(2) Maspero Dawn of Civilization 1896 . P . 357

(١٤ السكان)

عن العزوات السابقة غير أنه كان أكثر تنظيماً، كما أنه قد يكون للدافع الديني شيء من الأثر إلى جانب الدافع الإقتصادي الذي لا يمكن إنكاره .

٣ - هجرات البدو من القرون السابقة لبدء المسيحية حتى التوسع الإسلامي :

كانت حدود المناوذ الشمالية والصحراء السورية المهدي الذي تخرج منه القبائل الرعوية العربية وتلك حقيقة متفق عليها فيما يختص بالموجات التي حدثت في العصور التاريخية القديمة . ولكن الموجات المتأخرة جاءت من مناطق أخرى في شبه الجزيرة العربية تكاد تجمع الكتابات العربية على أن مرجع تلك الهجرات وانتشارها شمالاً في بلاد الحجاز ثم إنتقالها إلى المناطق الخصيبة في العراق والشام ووادي النيل ترجع تلك الهجرات إلى سيل العرم الذي هدم سد مارب كما أن الأحوال المناخية في هذه المنطقة الصحراوية من آسيا كانت تميل إلى الجفاف الميلاد حتى ظهور الإسلام وكان ذلك عاملاً هاماً في هجرة القبائل في ذلك الحين ، وخاصة من اليمن . وعلى ذلك فإن تلك الهجرات إنما جاء أغلبها من اليمن .

وأهم تلك القبائل اليمنية هي (قضاة الحميرية) ، ومن بطونها التي نزلت سيناء وامتدت إلى الفرما من حدود مصر : قنوخ ، سليم ، بلي^(١) . وكذلك من القبائل الكهلانية (طي* ، بنو مره) والبطون المهمة من (طي*) وأخوتهم هي : جذام ، لحم ، وكانت منازل جذام حول إيلة ، ومن بقاياها الآن بنو عقبة الذين ينسب إليهم عرب الحويطات حول خليج

(١) مكة جزيرة العرب . للمهداني . جزء أول طبع ليدن سنة ١٨٨٣ م . وكذلك الجزء الثاني من كتاب ديوان العبر لابن خلدون طبع بولاق . ص ٢٤٧ : ٢٤٨

العقبة . كما ظل شعب العائذ من جذام يتولى لعدة قرون الطريق من مصر إلى خليج العقبة . ويضاف إلى من تقدم من كهلان : (آل ربيعة ، سنابس ، النعالية ، بنو صخر) وكلها بطون انتشرت في سيناء حتى مجيء الإسلام) . وذكر بعض مؤرخي العرب أن النجدة التي أرسلها عمر بن الخطاب لمساعدة عمرو بن العاص قد قابلت جمعاً هائلاً يقرب من ثلاثة آلاف نسمة ، سألوهم ، فإذا هم عرب غسان ولخم وعاملة .

في الإسلام

وكان من الطبيعي أن يشجع فتح العرب لمصر نزوح كثير من قبائل إليها ، كما نزحت قبائل سيناء إلى الدلتا . وكان حضور الوالى إلى مصر مشجعاً للقبائل التي إليها الوالى ينتمى بأن تهاجر إلى مصر ، ويدل على ذلك تحليل القبائل المختلفة التي هبطت مصر في عهد الولاة المتتابعين . كذلك كان للحوادث التي أدت إلى سقوط بعض الدول الإسلامية أثر في فرار بعض القبائل المهزومة إلى الولايات النائية ومنها إقليم مصر ، وفعلها هاجر إليها كثير من الأمويين فراراً من العباسيين . وظلت القبائل العربية تترى على مصر خلال الخلافات المتباعدة .

في عهد الخلفاء الراشدين : كانت أبرز القبائل هجرة إلى مصر من : جزام ، لحم ، بلي ، وكثير من القبائل ^(١) القرشية .

في عهد الأمويين والعباسيين : كانت معظم القبائل من أمية وبنو العباس ، ومنها قيس عيلان ، سنة ٧٢٧ م في ولاية هشام بن عبد الملك الذي نقل منهم

(١) صبح الأعشى للقلقشندي . المطبعة الأميرية سنة ١٩١٤ م جزء ثالث ص ٣١٩ : ٣٢٣

نحو ثلاثة آلاف^(١) ثم كثر عددهم بعد ذلك ،
وكذلك هجرة (أولاد الكنز من ربيعة) أيام المتوكل على الله
سنة ٧٥٤ م في عدد كبير .

في أيام الفاطميين : أحضر الحكام بعض القبائل من سوريا وأنزلوها
بمصر كي يأمنوا شرهم ويستفيدوا منهم ، ومن ذلك دعوة الخليفة العزيز
أبو منصور لبطون قيس من (بن سليم ، بن هلال) إلى سكنى مصر ،
كذلك فعل الوزير أبو محمد اليازورى سنة ٤٤٢ هـ مع (سنابس) في القرن
الحادى عشر الميلادى وهؤلاء كانوا ينزلون حول غزة ، أتى بهم إلى مصر
وأنزلهم مديرية البحيرة ، بل أتت قبائل أخرى من طيء حتى زاد نفوذهم
في مصر زيادة كبيرة في أواخر الفاطميين .

في أيام الأيوبيين : أحضر صلاح الدين إلى مصر قبائل كثيرة من طيء
(تلمبة) ، وكذلك أنخأذاً من (جرم) .

هذا ويمكننا أن نذكر بعض مواطن الإستقرار Settlements للقبائل
العربية في الأقليم الجنوبى في ضوء ما يذكره المقريزى في كتابه البيان والتبيين
عما نزل بأرض مصر من الأعراب ، فقد ذكر أن العرب الذين نزلوا مصر
قد أبادهم الدهر ، وجهلت أحوال أكثر أعقابهم ومعنى هذا أن
العرب الذين نزلوا بإقليم مصر ، قد امتزجوا بمن فيها من السكان
وتسربت دماء العرب إليهم ، وإختلطوا بعناصرهم ، وخاصة وأن مصر
— منذ بداية التاريخ — تتلقى أسراباً من الهجرات العربية إليها ، ومع ذلك
فقد ذكر المقريزى كثيراً من القبائل العربية التى لها منازل خاصة نذكر منها
على سبيل المثال لا الحصر :

(٢) البيان والإعراب عما نزل بأرض مصر من الأعراب . للمقريزى . طبع دار المعارف
سنة ١٩١٦ م ص ٤٨ .

قبائل سنهس في البحيرة الذين قاموا بثورة ضد الممالك أيام عز الدين أيبك التركاني ، فشتهم الممالك وتفرقوا في مديرية الغربية ونزل بعضهم إلى البرلس .

وقبيلة جذام ، وتنقسم إلى أنخاذ كثيرة منها بنو كحيل وبنو سعد وقد اختلطوا بسكان مصر وأستفر بعضهم ما بين ميت غمر وزفتى وفاقوس ، والبعض الآخر في ضواحي الاسكندرية .

وقبيلة بني هلال وهم بطن من بني عامر وكانوا أهل بلاد الصعيد ، ومنهم بنو قرّة في أخميم وبنو رفاعة وبنو عقبة وبنو جميلة في إسنا .
وقبيلة بلي من الشام وتمثل ثلث قبيلة قضاة ولها بطون منها بنو حماد بمنفلوط وبنو حيار بفرشوط .

وقبيلة جهينه وهي من قبائل اليمن ، ولها بطون كثيرة وهي أكثر عرب الصعيد ونزلت في أخميم ، وقبيلة قريش التي ينسب إليها الجعافرة والزبانية وهم بالصعيد الأعلى ، وكذلك بنو صالح وبنو شاكر وبنو إدريس وكانت تسكن من بحرى منفلوط إلى سمالوط — وفي أسبوط طائفة تنسب إلى أولاد إسماعيل بن جعفر الصادق بأولاد الأشراف ، وبنو طلحة في طما ، وبنو عروة بن الزبير في البهنسا .

وقبيلة الأنصار من عشائر الأزد ومنهم بنو محمد وبنو عكرمة وديارهم بحرى منفلوط وعوف ، وتنتهى في نسبها إلى قيس عيلان ومنها أنخاذ في الفيوم وفي البحيرة ، وفي برقة بل وفي بلاد المغرب .

هذا وكثيراً ما نجد في الأقليم الجنوبي بعض القبائل والعشائر العربية التي مازالت محتفظة بأنماطها الثقافية الأولية التي جاءت بها من موطنها

الأصلية، مثل قبائل المعازة بصحراء مصر الشرقية ، وقبائل أولاد علي بمديرية البحيرة وامتداد حدود مصر الغربية وقبائل الحراشي بالفيوم وقبائل الحيوط بالمطرية ...

ومن الحقائق التاريخية التي يجدر تسجيلها أن كثيراً من أفراد قبائل طلحة وجعفر وجنيانة ولحم وخدام وشيبان وطى ومخزوم ، الذين سبق لهم أن استقروا بالديار المصرية قد نزحوا خارج حدودها حينما تغير حكام مصر وأصبحوا من المماليك ، لأنهم لم يقبلوا تسيدهم عليهم وعادوا إما إلى مواطنهم الأصلية أو هاجروا إلى بقاع أخرى من الوطن العربي الكبير ، وكذلك من الملاحظ عامة أن تلك القبائل المهاجرة أو العائدة قد تدرجت في تكيفها للبيئة الاجتماعية وخاصة في استقرارها وتعلمها الزراعة .

وخلاصة ما تقدم أننا إذا حللنا التكوين المورفولوجي والديموجرافي لسكان الأقليم المصري تبين لنا أنه قد انطوى على عناصر عربية مختلفة تعاقبت على فترات تاريخية متتالية ، وأن كل موجة عربية كانت تختلط وتظهر على درجات متفاوتة من المرونة والمطاوعة في تكيفها بالبيئة الاجتماعية المنتقلة إليها .

وقد أثار هذه الظاهرة الديموجرافية الأثنولوجية انتباه كثير من الباحثين الأجانب فأجرى بعضهم أبحاثاً تتصل بدراسة الأصل السلالي للأقليم المصري ، وبهنا أن نسجل في هذا المقام دراسات شانتير Chantre وكريج Oraig واليوت سميث E - Smith ، والتي يمكن أن يستخلص منها أن الطابع العربي الأصل لا يزال غالباً بين سكان مديريات الدقهلية والشرقية والقليوبية ، وربما كانت النتائج التي توصلوا إليها مستندة إلى مقارنات بالقبائل العربية الشمالية لأن هناك دراسات أثنولوجية مقابلة تفيد بأن

البقايل العربية اليمنية الجنوبية كانت تمثل رافداً هاماً من روافد الهجرات العربية إلى القارة الأفريقية .

وعلى أى حال ، فإنه مما يجدر تسجيله أن من خصائص الشعب المصرى أنه كان يمتص دائماً الخصائص العنصرية الدخيلة عليه حتى يتمثلها ويفنيها في شخصيته الذاتية ومن هنا استمد أصالته الحضارية التي عرفت من الناحية التاريخية ، بالحضارة الفرعونية ، ولعل ذلك مادعا كثيراً من الكتاب والمؤرخين إلى القول بأن مصر فوعونية وأن حضارتها أفريقية . ولكن يبدو لنا أن مثل هؤلاء الباحثين قد أغفلوا الصلات والعلاقات الثقافية والتكوينات الإثنولوجية التي كانت نتيجة لازمة للهجرات التاريخية ، ومن ثم أسدلوا ستارا من النسيان على جانب هام من جوانب التماسك والتضامن والتكامل الديموجرافى للشعب العربى ، ويقضى موقف الإنصاف العلمى ألا تغفل هذا الواقع التاريخى .

والواقع الذى لا مرأى فيه أن مصر - كما سبق - كانت على صلة مستمرة بسكان الجزيرة العربية في فترات التاريخ قديمها وحديثها . بل لقد تدفقت هجرات العرب إلى مصر منذ عهد الأسرات . وليس هذا فى مصر فقط ، فلقد هاجر العرب تبعاً لعوامل مختلفة إلى الحبشة والصومال وأرتريا والسودان . بل إن الميثولوجيا اليمنية تشير إلى أنه إفريقيس بن أبرهة ، رابع النباغة الذين ينتمون إلى قحطان حمير بن سبأ ، غزا أرض المغرب ، وبنى بها مدينة إفريقية وسماها باسمه ، وأبعد المغار المغار فى تلك البلاد إلى أقاصى العمران ^(١) .

كما أن سكان مصر فى عصور ما قبل التاريخ ، إنما كانوا ينتمون إلى سلالات البحر الأبيض ، وإلى نفس هذا الجنس كانت تنتمى السلالات التى سكنت

(١) مهد العرب . الدكتور عبد الوهاب عزام . دار المعارف سنة ١٩١٦ (ص ١٠٠)

الجزيرة العربية ، منذ استوطن الإنسان تلك البقاع .

فإذا سلمنا بدوام الإتصال بين ساكنى مصر ، وسكان الجزيرة العربية وإذا صدقنا بتدفق الهجرات العربية إلى وادى النيل ، فى جميع فترات التاريخ ، لمكان من المنطق أن نسلم بصلة الجنس التى تربط بين المصريين والعرب . ولعلنى أنفق فى هذا الرأى مع ما ذهب إليه ، كارل بروكلمان ، فى كتابه ، أصول قواعد اللغات السامية . جزء أول ، من أن المصريين هم الفرع السامى الأول الذى انفصل عن شجرة الإنساب العربية السامية قبل كل القبائل الأخرى ، واستوطن فى مصر على ضفاف النيل ! وأستبدل بروكلمان على ذلك بأدلة كثيرة وتبعه فى ذلك كثير من المستشرقين ^(١) .

هـ - وإذا كان هناك من المؤرخين والكتاب من يحاولون أن ينسبوا المصريين إلى سلالات حبشية وعناصر نوبية وليبية من جهة ، ومهاجرين من الساميين والأرمن من جهة أخرى . أو يقولون إن سكان مصر فى عصور ما قبل التاريخ كانوا من الجنس الذى يسمونه - خطأ - بالجنس الحامى الإفريقى الأصل ، وأن هذا الجنس الحامى الذى سكن مصر فى عصور ما قبل التاريخ يمثل أقدم حضارة فى وادى النيل .

فلسكى أرد على هؤلاء وأولئك أقول :

(أ) إن الليبيين والأرمينيين والساميين إنما ينتمون جميعاً إلى سلالات البحر الأبيض الذى ينتمى إليه المصريون . (ب) كما أرجح أن السلالات الحبشية والنوبية تنتمى إلى ما يطلقون عليه - خطأ - الجنس الحامى . (ج) هذا إلى أن الحاميين أنفسهم يرجعون فى أصولهم الجنسية إلى عناصر البحر الأبيض أساساً ، بل هناك من الكتاب من يذهب إلى أن تلك العناصر

(١) رأى أدلى به آل سيادة : الدكتور عبد الحليم الجار . أستاذ اللغة العربية المساعد بجامعة القاهرة .

الأفريقية الحامية كانت في وقت ما منتشرة في الجزيرة العربية ، ثم جاءت موجات قرقازية شمالية ودفعتها أمامها وضيق دائرة إنتشارها ، وتمثلت كثيراً من صفاتها ، ويستدل هذا النفر من الكتاب على ذلك بوجود الصفات الإفريقية لاسيما في الشعر ولون البشرة وبميزات الوجه الواضحة في سكان المناطق الجنوبية من الجزيرة العربية ، وضوحاً بصعب معه في بعض الأحيان التفريق بينهم وبين عناصر من المجموعة الإفريقية مثل قبائل الهندو وبنى عامر مثلاً^(١) . (و) وإذا جاز لنا أن نصدق أن السلالات الحامية لم تصمد أمام الهجرات القوقازية والسامية النازحة من الشمال ، وأنها أنزاحت أمام تلك الموجات إلى جنوب الجزيرة العربية ، ومن ثم إلى إفريقية ، فمن الجائز أيضاً أن تلك السلالات لم تصمد كذلك أمام السلالات السامية التي نزحت إلى مصر وشمال إفريقية .

٦ - وإذا كان من الصواب أن نقول إن كل مجموعة من الناس تنتمي إلى العنصر الذي أثر فيها أكثر من غيره من العناصر ، فمن الأصوب أن نقول إن تلك الموجات العربية النازحة إلى مصر هي أكثر العناصر تأثيراً في سكان وادي النيل ، خاصة وأنه منذ نهاية عصر الأسرات وفد إلى مصر أقوام ساميون من سورية أو من جزيرة العرب ، واختلط هؤلاء المهاجرون بالسكان الأصليين شيئاً فشيئاً حتى امتزجوا جميعاً .

٧ - ولا جدال في أن هؤلاء العرب المهاجرين إلى مصر قد امتزجوا بالسكان الأصليين ، وأنجبوا سلالة هجينة قادت موكب الحضارة المصرية في عهد الأسرات الأولى .

٨ - هذا إلى نظرية «نقاء الدماء» في جنس من الأجناس قد أصبحت نظرية بالية وغير واقعية ؛ فلا بد للشعوب من عمليات تهجين وامتزاج

(2) Bertran Thomas : Arabia, Felix, London 1932. P. 352.

مستمرة فاختلاط الدماء بين الشعوب كاختلاط الأفكار والثقافات من العوامل التي تجدد حيويتها .

٩ — وخلاصة مايعينى أنه إذا كانت مصر قد استطاعت أن تهضم الغزاة من الفرس واليونان والرومان وأن تحتفظ بحضارتها وكيانها ، فإن الفاتحين العرب قد استطاعوا أن يمتزجوا بالمصريين ، وأن تجرى دماؤهم في عروق المصريين بالنسب والمصاهرة ، وأن ينقلوا إليها تراثهم وحضارتهم وأصبح العرب في مصر وقد تحولوا على مر الزمن إلى مصريين ، كأنهم نبتوا في مصر منذ آلاف السنين ، بل منذ درج هذا الوجود المصرى في خلقه الأول ، كما أنهم قد طبعوا البلاد بلغتهم ودينهم وثقافتهم ، ومن جهة أخرى استطاعت البيئة المصرية أن تطيع هؤلاء البدو بطابعها ، فتحول البدو زراعا يفلحون الأرض ، ويذرون الحب ، وغدا ساكن الخيمة ساكن بيوت مستقرة ، كما سرت العادات والتقاليد والمأثورات المصرية إلى عادات العرب وتقاليدهم وما جلبوا من مأثورات الصحراء .

١٠ — هذا من حيث الاستقرار في المدن ، وفي القرى ، وعلى ضفاف النيل . أما العرب الضاربون في الصحارى والقفار ، فلا يزالون على عهدهم بالصحراء ، فيتمسكون بعاداتهم ، وتقاليدهم ، وطرق معيشتهم الخاصة ، ويحتفظون بأنسابهم . وحرقتهم الرئيسية الرعى والانتجاع ، طلباً للكلاء ، ومواطن الرزق .

١١ — وأعود فأؤكد أن روافة الهجرة العربية إلى إقليم مصر ، قد استقت منابعها الأولى من عنصرين أساسيين هما :

(أ) القبائل العربية الضاربة في سوريا وبادية الشام .

(ب) قبائل العرب الجنوبيين في اليمن .

ويدل على ذلك تحليلنا للعناصر العربية الموجودة في الإقليم الجنوبي .

سوريا العربية :

أول موجة عربية توطنت في الشام وألفت أساسه السلالي الثابت وبعد الطبقة الأولى من إنسان سوريا الحجري ، جاءت من الجنوب أى من الجزيرة العربية وهى الموجة الكنعانية التى توزعت في الشام حوالى سنة (٢٨٠٠ ق . م) . ثم كانت صحراء العرب لعوامل جغرافية نمد عناصر الشام العربية في فترات متناوبة ، مدى ما بين كل فترة وأخرى عشرون تقريبا ، بنجذات عربية تجدد فاعليتها وتحفظ لها سيادتها الجنسية . وهكذا قدم الشام موجات الآراميين (١٥٠٠ ق . م) والآنباط (٥٠٠ ق . م) والغساسنة (في القرن الثاني الميلادى) ثم العرب المسلمون (في القرن السابع الميلادى) . وهذه الموجات هى أساس التجانس السلالي في سوريا .

بيد أن ذلك الأساس العنصرى لم يسلم بسبب قدمه ، وبسبب وضع الشام الجغرافى من الاختلاط المتكرر بغيره من الشعوب التى تعرضت لها هذه البقعة ، ومن هذه الشعوب الحيثيون ، والآشوريون ، والفرس واليونان ، والتر ، والأكراد ، والآرمن ، والجراكسة . وبالرغم من أن هذه الموجات كانت مكنسحة ، وجعت الشام مرات عديدة إلا أن تأثيرها السلالي لم يكن جوهريا ، بل كان الأساس الجنس العربى هو الذى يظهر ويسيطر في النتيجة ، لا بملاحه وصفاته الجنسية دوما ، ولكن بالأسس الثقافية التى تعتمد عليها في دعم وحدته ، أى باللغة والتقاليد والدين .

وهكذا ذابت بعض هذه العناصر الغربية كالترك والتر والفرس في المجموع العربى . أما العناصر الأخرى فكانت تقارب العناصر العربية في قوتها ، وهى أقوى من أن تنصر فيها ، وكان الصراع بينهما يأخذ شكل

إزاحة وحصر ، كالعناصر التي تغمر أطراف سوريا الشمالية منها والساحلية ولكن عدم ذوبان هذه العناصر لم يمنعها من أن تندمج في الثقافة العربية بكليتها .

وأهم من يمثل القبائل العربية من البدو في سوريا : الموالي ، والعقيدات والرولة الذين يعتبرهم بعض الجغرافيين ممثلي الجنس العربي ، أو على الأقل أنقى السلالات العربية العدنانية . ومن بدو سوريا بجانب من تقدم بعض القبائل التي تمثل العرب القحطانيين ، وذلك مثل قبائل طيء .

العناصر العربية في السودان :

تنقسم القبائل العربية في السودان إلى قسمين (١) الجعليين (عدنانيين) وهؤلاء يرجعون إلى العرب الشماليين في شبه الجزيرة العربية (ب) الجهينيين وهم يمثلون عرب الجنوب .

١ - الجعليين :

وهم أكثر عرب السودان عدداً ، وتدخل فيهم جماعات تعيش على النيل شمال الخرطوم إلى دنقلة مثل : الجوابرة ، البديرية (في النوبة) ، والشايقية ، والبطاحين . وكذلك الجوامعة والبديرية في كردفان . ثم الجعليون الذين يعيشون بين العظيرة وخفاق سبلوقة ومركزهم بلدة شندى . ويدعى الجعليون أنهم يتنسبون إلى إبراهيم عليه السلام .

وما يجدر ذكره أن الباب الذي كان مدخلا للقبائل العربية الجعلية هو الباب الشمالي في وسط السودان ، الذي يفضى إلى مجرى النيل ، وهو بلا شك من أقدم الطرق .

وقد دخلت الثقافة العربية في السودان كشأنها في إقليم مصر تماماً ،

بفضل هجرات بعض المجموعات الجعلية العربية المتدفقة في كثرة وغزارة ،
وأشهر هذه المجموعات الجعلية العربية .

القبائل النهرية :

تسكن في منطقة تمتد من خائق سبلوقة إلى العطبرة . والميرقاب الذين ينتشرون
إلى شمال العطبرة حول بربر والرباطاب : من بربر إلى أبي حمد .
والمناصير : من أبي حمد إلى آخر التلال الرابع ، والشايقية : من الشلال
الرابع إلى أقليم الدبة . والجوابرة (بنى جابر) : في داخل بلاد النوبة
بين الدناقلة والمحس (١) .

الجوامعة : في أواسط كردفان شمال وشرق الأبيض . ، العذيات : إلى
الجنوب من الأبيض . ، والبطاطين : في النصف الشمالي من البطانة :

قبائل جهينة :

تدعى جهينة النسب إلى حمير ، وحمير إحدى القبيلتين السكيرتين التي
إنقسمت إليهما قحطان . وكانت القبائل القحطانية ذات مكان ملحوظ
في الفتوح الإسلامية الأولى ، وكانت بعض الجيوش التي أرسلت إلى إفريقيا
يشتمل أكثرها على عرب من الذوحة الخينية ، ولذلك كان لهم من الفضل
في نشر العروبة والإسلام في إفريقيا ما لا يقل عما لغيرهم من القبائل
العربية . وقبل الإسلام بقرون عديدة كان لليمنيين إنتشار في القارة
الإفريقية ، وكان لهم ما علم أكثر مما كان لغيرهم من العرب . وهذا كان له
أثر عندما غزت الجيوش العربية القارة الإفريقية (٢) .

وسلكت القبائل الجهينة في دخول السودان من الشرق عبر البحر
الأحمر ، ومن الشمال عن طريق أقليم مصر ، كما أن كثيرا من الجهنيين قد

(١) السودان النماي سكانه وقبائله . دكتور محمد عوض محمد . القاهرة ١٩٥١ . ص ١١٦

(٢) السودان النماي (ص ٢٠٩) .

دخلوا السودان من الشمال الغربى ، من طريق الأربعين أو أى طريق آخر من الصحراء الليبية^(١) .

وتشمل المجموعة الجبهنية العربية قبائل رفاعة والقواسمة .

واللحيون والحويون : والعوامرة والحوالدة : وهى قبائل رعوية صغيرة فى الجزيرة ويمارسون بعض الزراعة . والشكرية . وموطنهم جميعاً فى أقاليم النيل الأزرق والبطانة ، أى النصف الشرقى من السودان . وبني جرار والزيادة والبهزة والشنابلة والمعاليا . وهذه المجموعة تعيش فى كردفان والمسلمية والبقارة والحاميد والماهرية والكبايش والمغاربة (الذين جاءوا من المغرب) . وهؤلاء منتشرون فى كردفان ودارفور ، وهذه القبائل ليست متساوية فى الأهمية سواء من حيث العدد أو الثروة أو النفوذ .

وهناك أيضاً عرب الهواوير : الذين دخلوا السودان مهاجرين من الأقليم المصرى ملتزمين الجانب الغربى للنيل على دفعات فى أزمنة مختلفة . وينتمى الهواوير من جهة النسب إلى (الهوارة) ويقول القلقشندى إن مواطنهم الأولى كانت تمتد فى مديرية البحيرة من الإسكندرية إلى مسافة بعيدة نحو الغرب والجنوب . وظلت هذه حالهم إلى القرن الرابع عشر ، ثم أرغتهم قبائل أعراب البحيرة على الخروج عن أوطانهم فزلوا أخيم فى جرجا وما حولها ، ثم قوى بأسهم ، وانتشروا فى الوجه القبلى . وامتد نفوذهم إلى مديرية قنا ، ويبدو أنهم قد عانوا بعض ألوان الاضطهاد على يد الحكومة فى عهد الماليك وفى أوائل حكم محمد على مما اضطر كثيراً منهم إلى النزوح جنوباً إلى السودان ، فاشتغل بعضهم بالتجارة فى شمال دارفور .

برقة العربية :

تنقسم القبائل العربية فى برقة إلى قسمين رئيسيين : ١ — القبائل السعدية .

(١) تاريخ العرب فى السودان . للاكناكل . جزء أول (ص ١٣٩ ، ١٢٦) .

٢- قبائل المرابطين . وتعتبر القبائل السعدية أعلى مقاما في السلم الإجتماعي ، وهم الذين يملكون الأرض والماء ، أما المرابطون فيشتغلون في الأرض ويفيدون منها ، إذا سمح لهم بذلك باستثناء بعض الحالات التي يملك فيها المرابطون .

وترجع القبائل العربية السعدية إلى بنى سليم الذين قدموا بركة في القرن الخامس للهجرة (الحادى عشر الميلادى) . بينما يعتبر المرابطون بقية القبائل العربية اليمنية التي جاءت مع الفتح العربى الإسلامى والتي إختلطت بالبربر وعربتهم . وثمة من يعتبر المرابطين أصلا بقية قبائل البربرية التي تعربت وأسلمت ، وإن كان رأى الأول أولى بالصواب .

١ - القبائل السعدية :

يبلغ عددها تسع قبائل على أساس منازلها من الشرق إلى الغرب وهى :
(١) العبيدات . (ب) عابلة . (ح) الحسا . (و) البراءصة . (و) الدرسة .
(ز) عرفه . (ح) العوافير . (ط) المعاربة .

والقبائل الأربع الأولى تجمعها نسبة واحدة هى (جبارنه) بينما تسمى القبائل الخمس الباقية (حربى) .

٢ - المرابطون :

ويقسمون إلى نوعين : (الأول) يشمل المرابطين الذين يعتبرون في وضع إجتماعى منحط . (والثانى) المرابطون بالبركة ، وهؤلاء يدعون نسبا شريفا ، وهم لا يشعرون أنهم أقل من السعديين أصالة في العروبة .

والقبائل العربية في بركة عامة لا تختلف في البناء الإجتماعى عن القبيلة العربية حيث كانت ، فهى مكونة من عشائر وبطون وأخاذ . وللقبيلة وطن أرض

تنتقل في حدودها وتمتلكها ، وفي نطاق هذا الوطن تكون أوطان أصغر خاصة بالعشائر والبطون والأغاذ . وأفراد القبيلة متضامنون فيما عليهم من واجبات ومالهم من حقوق . والواجب الأول الذي يشترك فيه الجميع هو الأخذ بالنار أو دفع الدية للمعذور . ورياسة القبيلة لشيخها .

منازل القبائل الرئيسية :

١ — العبيدات : (٣٠,٤٥٠ منهم ٨,٦٠٠ من المرابطين ، وهى أكبر قبيلة فى برقة ، ويمتد وطنها من حدود مصر إلى أواسط التتوء الكبير الذى يدخل البحر المتوسط ، وجزءاً كبيراً من الجبل الأخضر .

٢ — عابلة : وهى قبيلة صغيرة محدودة التنقل ، وهم يقعون بين العبيدات شرقاً ، والبراعة غرباً ، والحسا شمالاً ، وكثيراً ما يزورون أقاربهم فى مصر (الفيوم) .

٣ — الحسا : (٣,٥١٠ منهم ٥٧٠ من المرابطين) ويقطنون الجزء المتوسط من التتوء المذكور على الساحل حول سوسة .

٤ — البراعة : (٢١,٠٠٠ منهم ٤,٨٤٠ من المرابطين) والمتعارف بينهم أنهم مراكشيو الأصل . ويقطنون منطقة متوسطة فى الجبل الأخضر ويقعون بين الدرسه شمالاً والحسا وعابلة فايد شرقاً والعبيد غرباً والصحراء الواسعة جنوباً .

٥ — الدرس : (١٨,٨٥٠ منهم ٣,٣٤٠ من المرابطين) ويحتلون منطقة من الساحل طولها نحو ١٢٥ كيلو متراً من طليثة إلى الشرق . وهم يحوطون بالحسا والبراعة ، والعبيد وعرفة .

٦ — العبيد : (٦,٨٥٠ منهم ٦٠٠ من المرابطين ، ويقطنون جبل العبير

وهو قسم من الأمتداد الغربى للجبل الأخضر .

٧ — عرفة : (٩,٣٠٠ منهم ٧٠٠ من المرابطين) وهم ، يقطنون الساحل المعتمد من ظلمية إلى طوقره .

٨ — العواقر : (٢٧,٥٠٠ منهم ٦,٣٤٠ من المرابطين) وهم تانى قبائل برقة عدداً ويقطنون المنطقة الممتدة من طوكره إلى دريانه فى الجبل الأخضر ، ويشمل وطنهم جزءاً من برقة البيضاء .

٩ — المغاربة : (١٣,٠٠٠ منهم ١,٠٠٠ من المرابطين ، وهؤلاء متوزعون بين برقة وطرابلس ، وأكبر مراكزهم أجدابية .

هذا ويعيش البدو فى مضاربهم كما يعيش العرب فى بقية الأصقاع العربية ، ولكن الكثيرين منهم ، وخاصة أرباب الثراء لهم بيوت حجرية فى القرى والمدن التى يعيشون . وسكان المدن فى برقة ، أى سكان بنغازى ودرنة والمرج وسلمون ، وأجدابية والآبار وما إليها لا يختلفون باستثناء الأوربيين عن أهل البلاد ؛ فالكثير من سكانها بدو لا يزال اتصالهم بقبايلهم قائماً . وقد يجد المرء فى سوسه وغيرها جماعة من أصل كرى ، ولكنهم قد هضمتم العروبة ، وهم من قبل عرب مسلمون ، فصاروا جزء من أهل البلاد نفسها ، لا يختلفون إلا بأنهم لا قبائل لهم ينتسبون إليها .

الرابطه بين سكان إقليم مصر وليبيا :

١ — يعتبر شمال إفريقية من المناطق التى اكتملت فيها الصفات الجسمانية للجنس البشرى ، وقد تم لسكان البحر الأبيض فى تلك المنطقة خصائص طبيعية وصفات جثمانية مميزة مثل طول الرأس ، وما اهتموا إليه فى نواحي التقدم الحضارى . وينظر الباحثون إلى تلك المنطقة على

أنها وحدة جنسية عند ما يعرضون لنظور السكان من العصر الحجري القديم إلى العصر الحجري الحديث . وفي نهاية العصر الحجري الحديث بدأت الصحراء الليبية كما نعرف اليوم في الظهور وأخذ الجفاف التام يشكل أجزائها ، كما أخذ الإنسان يختفي تماماً من بقاع كثيرة منها ، واضطر السكان إلى الإلتجاء إلى وادى النيل أو الإقامة في الواحات . وقد تم جلاء الإنسان عن الصحراء لعدم تحمله الإقامة فيها حوالى سنة ٣٠٠٠ ق . م واتجهت هجرة السكان نحو الجبل الأخضر في برقة شمالاً ، ونحو السودان جنوباً في شرق ، ونحو أقليم مصر شرقاً .

٢ - وهذه الوحدة في الأصل بين المصريين والليبيين تتضح في الرسوم المصرية التي ترجع إلى زمن الامبراطورية وما قبلها ، فبينما نجد أن المصور المصرى كان يظهر الفروق بين المصرى والسورى أو السودانى مثلاً ، نجده يستعمل نفس الرسم والصورة لليبي ، والفرق بين سكان مصر وسكان ليبيا هو أن المجموعة الأولى كونت حياة حضارية استقرارية في وادى النيل ، أما الثانية ، فقد حافظت على حياة الرعى والتنظيم القبلى ، والآثار المصرية ترينا هذه الجماعات وقد ظهر الوشم على أجسامها ، واكتسى رجالها بقمش يغطى أواسط الجسم على نحو ما كان عليه المصريون قبل عهد الأسر المصرية . وكانت القبائل القاطنة في ليبيا شوكة في جانب مصر ، شأنها في ذلك شأن قبائل سيناء ، مما اضطر سكان مصر إلى وضع حاميات قوية في وادى النطرون وغيره من منافذ برقة إلى أقليم مصر لرد هجمات تلك القبائل وأحياناً لغزو أراضيها .

ففي سنة ١٩٧٠ ق . م قام سيزوستريس الأول بحملة كبيرة على برقة ولكن وفاة والده اضطرته إلى العودة . وفي القرن الثالث عشر ق . م حققت برقة وحدة سياسية مؤقتة على يد ديدى ، فأرسل في عام ١٢٢٧ ق . م بعثة حربية إلى مصر بقيادة ابنه وصلت إلى الدلتا الغربية ولكن منفتح رده بعد خسارة فادحة . وفي عام ١١٩٣ ق . م جددت برقة البعث العسكرى ولكن رعمسيس الثالث صد المهاجمين ، ثم زالت وحدة برقة السياسية وعادت إليها حياتها القبلية .

٣ - وفي منتصف القرن السابع ق . م وقعت برقة تحت سيطرة اليونان . ولما خضعت مصر لحكم الاسكندر الأكبر (٣٣١ ق . م) خضعت له برقة أيضاً وجاء وفد منها يقابل الإسكندر في مرسى مطروح . لما كان مقيماً هناك في طريقه إلى واحة سيوة . ثم أصبحت برقة جزءاً من امبراطورية البطالسة ، وأصابها ما أصاب مصر من اضطراب الأمور وخلاف على العرش . وأصبحت برقة تابعة للإسكندر في كل شيء وفقدت إنتاجها الخاص .

٤ - وفي عهد الرومان خضعت برقة وأقليم مصر لهم ، ولما ظهرت المسيحية في الإقليم المصرى ، انتشرت أيضاً في برقة ؛ بل إن مرقس مؤسس البطريركية المرقسية المصرية كان قبرني الأصل . وظلت قبرينى التى أسسها اليونان فى برقة تابعة ولو إسمياً لبطريك الإسكندرية .

٥ - كانت برقة وطرابلس تابعتين لمصر على أساس التنظيم الذى وضعه إمبراطور بيزنطة (٥٨٢ - ٦٠٢ م) . ولما فتح العرب أقليم مصر ، توجهوا لفتح برقة وطرابلس ، وتم فتح برقة سنة ٢٢ هـ (٦٤٣ م) ومنها اتجه

عمرو بن العاص إلى طرابلس . وبعث فرقة بقيادة عقبة بن نافع لفتح
فزان ، وأخرى لفتح ودان ، وهكذا قيل أن انتهى سنة ٢٣هـ (٦٤٤ م)
كانت كل المنطقة المتحدة من حدود مصر إلى زويلة السودان وودان
وطرابلس قد خضعت كلها للعرب .

وفي الفترة التي مرت بين فتح العرب لمصر وقيام الدولة الفاطمية كانت
ليبيا على الراجح يصيبها ما يصيب مصر . وسنة ٩٧٢ م مرة المعز لدين الله
برقة في طريقه إلى مصر . وفي أثناء حكم الفاطميين كانت برقة تابعة لمصر
بطبيعة الحال .

٦ - غير أن عدد العرب الذين استوطنوا برقة منذ أيام الفتح إلى أوائل القرن
الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) لم يكن كافيا لصنعها كلها بالصبغة
العربية نهائياً ، فظل الغالب على سكانها ، خاصة في الداخل ، العنصر البربري ،
وإن كانت آثار الروم قد زالت عنها تماماً تقريباً .

ولكن الذي أتم لبرقة عروبته هو مجيء قبائل بني سليم وبني هلال
في أواسط القرن الخامس الهجري . عند ما أفلقوا بال الدولة في مصر ،
فشجعهم الخليفة المستنصر على أن يتجهوا غرباً ، وينزعوا تونس من يد
المعز بن باديس ، فسارت جموعهم ، وانتهى المطاف ببني هلال أن استقروا
في طرابلس وتونس ، أما بنو سليم فعادوا إلى برقة واستوطنوها وحافظوا
على ما عندهم من عادات وتقاليد عربية ، وامتزج ما تبقى من البربر بهم ،
حتى صارت برقة عربية ، بحيث لا يبرها في عروبته قطر عربي آخر
بإستثناء الجزيرة العربية نفسها . وقبائل برقة المنحدرة من بني سليم
والتي تعرف بقبائل السعديين ، هي التي تعمر تلك البقاع إلى اليوم .

والواقع أن بني سليم وبني هلال هاجروا أصلاً من نجد - ويعتبر
بني سليم الفرع الأصلي - وقد هاجروا إلى صعيد مصر نتيجة لاضطهاد

حركة القرامطة لهم في بلاد الغرب لاتصالهم بتلك الحرب .

وقد استقروا بصعيد مصر ولكنهم كانوا مصدر قلق لاختلاف طريقته في الحياة عن البلاد التي استقروا فيها ، ولذلك حاول حكام القطاع المصرى التخلص منهم ، ففي أثناء حكم الخليفة الفاطمى المستنصر قد شجعهم وزيره أن يعيدوا غزو طرابلس ونونس من البربر الذين كانوا قد استقلوا بها . فاتجه بنو هلال للغرب نحو طرابلس وتونس حيث يدعى كثير من سكان الأقاليم الآن نسبتهم إليهم . أما بنو سليم فقد استقر معظمهم في إقليم برقة .

وتنشر قبائل منحدره عن بنى سليم في الوقت الحاضر من مصر إلى تونس . وبالنسبة للقبائل المستقرة في برقة فإنها تنقسم إلى فرعين رئيسيين : الجبارة وحرابي :

(أولاً) قبائل الجبارة هي : عواقر - ومغاربة - وعابد - وعرقه .

(ثانياً) قبائل الحرابي هي : عبيدات وحاسه - فايد - والبراعصة

والدراسه .

وبما يجدر ذكره أن أولاد على الذين تربطهم بالحرابي صلة قرابة عاشوا في شرق برقة مدة طويلة ولكنهم اضطروا للهجرة إلى مصر تحت ضغط قبائل حرابي الذين تحالفوا ضدهم مع حكام طرابلس ، وهم يحتلون الآن حافة البحر المتوسط من السلوم إلى الإسكندرية .

وفرع آخر من العواقر هو الشرايع الذين هاجروا إلى مصر وأصبحوا فلاحين موزعين على بعض العائلات .

وعندما دخل أولاد على مصر وجدوا قبيلة الهنادى ، تملك جزءاً من أراضيهم الحالية فطردوهم منها ، وهؤلاء الهنادى يسكنون الآن مديرية الشرقية وهم ينتمون إلى بنى سلام إحدى فروع قبائل السعادى . - والهنادى

أخذوا أملاك بني عونة التي اندمجت في فلاحى صعيد مصر .

وفرع ثالث من بني سلام هو الهاجة الذين طردوا من البحيرة وهم يستقرون الآن في مديرتى الشرقية والغربية بالأقليم المصرى .

ومن جماعة الجبازنة كانت قبيلة الغواير وتسكن جزء من السهل الذى تحتله الآن الحاسة والبراعصة وعابد ، وقد طردوا من بلادهم في أوائل القرن ١٩ في نفس الوقت الذى طرد فيه الجوازى تحت ضغط تحالف العواقر والمغاربة والبراعصة يساعدهم حكام طرابلس وهم يسكنون الآن مديريات الفيوم وبن سويف والمنيا .

والجوازى كانت نسكن البلد التى يشغلها الآن العواقر وهم يسكنون الآن قرية من المنيا والفيوم .

وقد قام هناك نضال كبير إثر توزيع قبائل برقة واستمر هذا النضال حتى سنة ١٨٣٢ بين المغاربة والعواقر يناصرهم الجبازنة وعابد وعرفه ضد القبائل التى كانت تحتل برقة التى تعرف باسم عرب الغرب .

وفي سنة ١٨٥٨ احتلت قبائل حراى والجبازنة التى تعتبر الآن صاحبة النفوذ فى كل أنحاء برقة جزءاً من قلب الإقليم .

وكانت بقية برقة كلها يسكنها عرب الغرب ، والجزء الشرقى من السهل يقطنه أولاد على .

وكانت الحرب التى تمكن بها أولاد على من طرد غرماتهم ، كانت حرباً وحشية وقاسية ، وكان من نتيجتها أن أولاد بنى سليم - الذين سبق أن فتحوا برقة والمغرب - بدأوا فى الرجوع إلى الشرق بعد أن امتزجوا بالدماء البربرية حوالى أواخر القرن ١٧ وطردوا القبائل التى كانت تقطن صحراء مصر الغربية ، ودفعوا بهم المدلتا حيث امتزجوا بالفلاحين وكان كل واحد يدفع الآخر . فقد طرد الهنادى بنى عونة ، وأولاد على طردوا

الهنادى . وهؤلاء قد طردهم العبيدات وبعض القبائل الحراية الأخرى .
وبالإضافة إلى هجرة قبائل بأكلها من برقة إلى مصر طرد كثير من
الفروع نتيجة للمشاحنات داخل القبيلة .
وبدو برقة يعرفون أقاربهم في مصر ، وحينما تنخفض أسعار الماشية
يتركون ماشيتهم في حيازة أقاربهم في الأقليم المصرى من الجمهورية
العربية المتحدة .

ويقال أن هناك ٣٢ ألف حراى فى مصر عدا البراعصة يسكنون
معظمهم فى الفيوم ، بينما المقيمون فى مصر من قبائل أولاد على ومواليهم
يقدرون بحوالى ٤٠ ألف .

ومن ثم فنحن نستطيع أن نحدد — فى ضوء ماتقدم — معالم الوحدة
الاثنولوجية بين قبائل برقة وعرب الجمهورية العربية المتحدة .

الفصل الحادى عشر

سكان الجمهورية العربية المتحدة دراسة تحليلية تطبيقية

المبحث الأول

مقدمة تمهيدية :

يجدر بنا أن نسجل بعض الملاحظات العامة التى تقصد إلى توضيح طبيعة الصلات الديموجرافية بين الكثافة السكانية على الأرض العربية وبين سكان الجمهورية العربية المتحدة باعتبارها جزءاً هاماً من قطاعاتها الحيوية ، كما يطيب لنا أن نشير إلى بعض النقاط التفصيلية التى تلقى بعض الضوء على النواحي التحليلية التطبيقية لسكان الجمهورية العربية المتحدة ولكى نحقق هذه الأمور ، نبدأ بدراسة تحليلية للجدول التالية :

أولاً : جدول رقم (١)

يوضح هذا الجدول الكثافة السكانية لمختلف قطاعات الأمة العربية .

جدول رقم (١)

الدولة	عدد السكان	المساحة بالكم ^٢	الكثافة السكانية بالكم ^٢
الجمهورية العربية المتحدة / إقليم مصر	٢١,٩٤١,٠٠٠	١,٠٠٠,٠٠٠	٢١,٤
إقليم سورية	٣,٧٥٥,٠٠٠	١٨٤,٧٤٩	٢٠
لبنان	١,٣٢٠,٠٠٠	١٠,٤٠٠	١٢٧
الجمهورية العراقية	٥,١٠٠,٠٠٠	٤٤٤,٤٤٢	١١,٥
المملكة العربية السعودية	٧,٠٠٠,٠٠٠	١,٦٠٠,٠٠٠	٤,٤
الأردن	١,٣٣٠,٠٠٠	٩٦,٥١٣	١٣,٨
السودان	٨,٧٦٦,٠٠٠	٢,٥٠٥,٧٠٠	٣,٥
اليمن	٤,٥٠٠,٠٠٠	١٩٥,٠٠٠	٢٣
الجزائر	٩,٢٥١,٠٠٠	٢,١٩١,٤٦٤	٤,٢
ليبيا	١,١٥٠,٠٠٠	١,٧٥٩,٥٤٠	أقل من ١
تونس	٣,٦٠٠,٠٠٠	١٥٥,٨٣٠	٢٠,٣
مراكش	٩,٠٠٠,٠٠٠	٣٩٠,٨٠٠	٢٣
مراكش المحتلة من أسبانيا	١,١٦٨,٠٠٠	٤٥,٨٦٩	٢٩
طنجة	١٧٠,٠٠٠	٣٤٩	
عمان	٥٥٠,٠٠٠	٢١٣,٤٠٠	٢,٦
قطر	٢٠,٠٠٩	٢٢,٠١٤	أقل من ١
الكويت	٢٥٠,٠٠٠	٢٠,٧١٩	١٢
فلسطين المحتلة	١٦٧٠,٠٠٠	٢١,٠٠٠	٨٠
الساحل المعاهد	٨٠,٠٠٠	١٥,٠٠٠	٥,٣
قطاع غزة	٢٩١,٠٠٠	٦٠٠	٤٨٥
بحرية عدن	٨٠٠,٠٠٠	٣١٥,٩٦٨	٢,٨
مستعمرة عدن	١٣٠,٠٠٠	٢٠٧	
البحرين	١١٢,٠٠٠	٥٩٨	١٨٧
المجموع	٨٢,١٧١,٠٠٠	١١,١٨٨,٨٩٢	—

ملحوظة : يبلغ عدد اللاجئين الفلسطينيين خارج فلسطين والأردن ٢١٧,٠٠٠ لاجئ .

الدكتور عزة النمس : أحوال السكان في العالم العربي من : ٣٥ .

يتضح لنا من الإحصائية السابقة أن جملة مساحة الدول العربية ١١ مليون كم^٢ تقريباً ، ٢٨٪ تقريباً من هذه المساحة الكبيرة تقع ضمن القارة الآسيوية ٧٢٪ منها تقع في القارة الأفريقية ^(١) كما نلاحظ أن تعداد سكان الوطن العربي الكبير يقرب من ٨٣ مليون نسمة وتكون الجمهورية العربية المتحدة الجزء الأكبر من سكان الوطن العربي ويليهما الجزائر فمراكش فالمملكة العربية السعودية . أما من حيث المساحة فنلاحظ أن أكبرها مساحة هو السودان ويليه في المساحة الجزائر فليبيا فالمملكة العربية السعودية ثم الإقليم المصري .

ونلاحظ أن كثافة السكان في سورية أقل منها بكثير في لبنان وإن كانت تختلف الكثافة السكانية بين جهات إقليم سورية اختلافاً كبيراً على نحو ما سنتبينه في ضوء الجداول الإحصائية اللاحقة .

وتدل الإحصائيات الواردة في تعداد عام ١٩٤٧ على أن نسبة الإناث تزيد على نسبة الرجال في الإقليم المصري ^(٢) إذ أن نسبة الذكور تبلغ ٤٩.٥٪ من جملة السكان وأن نسبة النساء في الإقليم المصري هي ١٠.٢٠ امرأة لكل ١٠٠٠ رجل بينما نجد أن نسبة النساء في الإقليم السوري لكل ١٠٠٠ رجل هي ٩٥.٩ امرأة .

هذا إلى أنه يحذر بنا أن نسجل بصفة مبدئية أن الدولة العربية الموحدة حين تبرز إلى الوجود يمكن أن تصبح الدولة السابعة في العالم من حيث عدد سكانها بعد الصين والهند والاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة الأمريكية والباكستان واليابان .

(١) المرجع السابق صفحة ٢٢

(٢) بالرجوع إلى الإحصاء السنوي للجيب يلاحظ أن توزيع السكان بالإقليم المصري حسب تعداد سنة ١٩٤٧ يوضح أن عدد الذكور ٩٩٨٩٨٩٨ ، بينما أن عدد الإناث ٩٨٤٢٨٤٢

وما يحذر الإشارة إليه أن هناك تفاوتاً في الكثافة السكانية على الأرض العربية وقد يعزى البعض وخاصة علماء الجغرافيا هذا التفاوت إلى عوامل طبيعية ومناخية ، باعتبار أن القسم الأكبر من البلاد العربية في المنطقة الحارة الجافة فوق المدارية حيث تمتد الصحارى والسهوب وتمكث تحتى معالم العمران فيما عدا الأطراف وحيث يتجمع أكثر سكان العالم العربى في المنطقة القريبة من البحر الأبيض المتوسط بين خطى عرض ٣٠ ، ٣٧° شمالاً . تتراوح كثافة السكان في هذه المنطقة بين ٢٠ و ٣٠ نسمة للكيلومتر المربع بينما نجد أنها تتراوح بين ٣ و ٥ نسمة في باقى مناطق العالم العربى .

غير أن هذا التفاوت في الكثافة السكانية على الأرض العربية لا يمكن أن يعزى إلى هذه العوامل الجغرافية وحدها ، بل أن هناك عدة عوامل اجتماعية متشابكة تتخذ مظهر العوامل السياسية أو الاقتصادية أو الاثنولوجية من الناحية التاريخية ، لعبت أدواراً إيجابية في هذه الناحية ، ويكفى أن نشير في هذا المقام إلى الظاهرة الديموجرافية في القطاع العربى في غزة الفلسطينية فلم يكن سكان هذا القطاع يزيدون على ٩٠ ألفاً قبل عام ١٩٤٨ ، وبعد الاعتداء اليهودى على فلسطين الذى أجبر السكان العرب على الجلاء عن ديارهم زاد عدد سكان هذا القطاع إلى مائتى ألف مما جعل كثافة السكان العرب في هذا القطاع تصل إلى ٨٥٠ نسمة في الكيلومتر المربع . وليس تجمع السكان في لبنان ناشئاً عن كثرة أمطاره فحسب ، بل إلى جانب ذلك يرجع إلى التجاء الأقليات الطائفية اليه واعتصامها فيه خلال العهود التاريخية السابقة ، والجبال المنيعه كانت على الدوام - وما تزال - ملجأً أميناً للأقليات الاثنولوجية والمذهبية واللغوية ، كما هو الحال في جبال العلويين والدروز في سوريا وجبال الأطلس في المغرب ، وتوافر الموارد الاقتصادية سبب آخر من أسباب تمكث السكان ، فالجزر الكثيرة المصائد والسهول الخصبة والمدن الصناعية والتجارية

كلها شديدة الازدحام بالسكان ، ولم يكن سكان الكويت يتجاوزن ٧٠ ألفاً قبل اكتشاف البترول واستثماره فتضاعفوا اليوم مرات ثلاث .

ومن الثابت أن كثافة السكان تختلف إختلافاً ملحوظاً في الإقليم الشمالى عنها في الإقليم الجنوبى ، كما أن هذه الكثافة تختلف بين أجزاء كل إقليم من الأقليمين ، وهى بعد ذلك تختلف في المدن عنها في الريف وذلك نتيجة لطبيعة الحياة الحضرية ، فالمدن تجتذب أعداداً كبيرة من المهاجرين ينزحون إليها من الريف ويتحولون من العمل في الزراعة أو ما يتعلق بها إلى المهن الحضرية المختلفة ، الأمر الذى يترتب عليه تكديس أعداد هائلة من السكان في مساحة محدودة من الأرض لا يترك جزء منها للزراعة كما هو الحال في الريف فهم - والحالة هذه - يتخذون من الأرض مسكناً لا مجالاً للعمل .

لذلك كله ينبغي أن نفرق في دراستنا لكثافة السكان بين الإقليم الشمالى والإقليم الجنوبى من ناحية ، وبين كثافة السكان في محافظات الإقليم الجنوبى ومديرياته من ناحية ثانية . ويجب أن نشير هنا إلى أن المحافظة في الإقليم الشمالى تقابل من حيث أنها وحدة إدارية - ما يعرف بأسم المديرية في الإقليم الجنوبى ، أما المحافظة في الإقليم الجنوبى فتعنى مدينة قائمة بذاتها مع بعض ضواحي (القاهرة . الاسكندرية . السويس . القنال) .

ثانياً : نلاحظ بصفة عامة إختلاف الكثافة السكانية بين المتكستلات أو التجمعات الحضرية والوحدات الريفية في جميع قطاعات الجمهورية العربية المتحدة . حقيقة أن معالم التمييز بين الحضر والريف في الجمهورية العربية غير واضحة وغير دقيقة وذلك لأن الزراعة مازالت إلى وقتنا الحاضر الحرفة السائدة لسكانها ، الأمر الذى يجعلنا نلجأ إلى العامل الديمجرافى كأساس للفصل بين المدينة والقرية ، فنحن نأخذ بالرأى السائد أنه إذا زاد عدد السكان على ١٠,٠٠٠ نسمة في الوحدة الاجتماعية

أو الإدارية اعتبرت هذه الوحدة بلدة Town وذلك بالإضافة إلى مراعاة الوظيفة أو المهنة الاجتماعية المتحققة من هذه التجمعات ، فإن المعتاد أن تتراوح نسبة المشتغلين بالزراعة في البلدة أو المركز ما بين ٢٠ ، ٥٠ . فإن زادت هذه النسبة على ٥٠ ٪ اعتبر مركز تجمع السكان قرية أو عزبة أو كفر ، المدينة City فإنه يشترط أن تقل نسبة المشتغلين بالزراعة فيها عن ٢٠ ٪ من عدد المشتغلين من سكانها عن ٢٥ ألف نسمة .

وعلى هذا الأساس يمكن اعتبار كل المحافظات وعواصم المديريات في الإقليم الجنوبي مضافاً إليها المحلة الكبرى وكذلك كل عواصم محافظات الإقليم الشمالى وحدات إجتماعية حضرية بعضها كثيف متجمع المساكن Urban Agglomeration والبعض الآخر مبعثرة في أحياء السكنية Suburban Urban dispersion .^(١)

وفيما يلي جدول رقم (٢) يبين المحافظات في الأقليم السورى وكثافة سكانها ونسبة سكان ومساحة كل محافظة إلى العدد الإجمالى والمساحة الإجمالية للأقليم السورى كله وذلك فى سنة ١٩٥٧ (أى قبل الوحدة بعام واحد) .

(١) راجع

Ferid, I. A. . The Population of Egypt Cairo, 1948 .

محمد صبحي عبد الحكيم : دراسات فى جغرافية مصر .

Fawcett C. P. Population Disiribution and Trends of Movem - ent, Geographie, Vol xxii. 1937 .

جدول رقم (٢)

المحافظة	عدد السكان	نسبتهم ٪	المساحة بالكيلو متر المربع	نسبتها ٪	كثافة السكان في الكيلو متر مربع
دمشق	٨٦٨,٠٠٠	٢٠,٩	٩٩٥٢٢	١٠,٦	٤١
حمص	٤٠٣,٠٠٠	٩,٧	٤٢١٩٠	٢٢,٩	٩,٥
حماه	٣٠٩,٠٠٠	٧,٤	٨٣٢٢	٤,٥	٢٨
اللاذقية	٤٧٦,٠٠٠	١١,٥	٤٥٤٠	٢,٤	١٠٥
حلب	١,٢١٢,٠٠٠	٢٩,٢	٢٢٩١٩	١٢,٤	٥٢,٩
الحسكة	٢٥٩,٠٠٠	٦,٢	٢٢١٧٠	١٢,٠	١١,٧
دير الزور	٣٣٤,٠٠٠	١٠,٣	٥٥٠٦٠	٢٩,٩	٧,٨
السويداء	١٢١,٠٠٠	٢,٩	٥٥٥٠	٣,٠	٢١,٨
درعا	١٦٣,٠٠٠	٣,٩	٤٢٠٠	٢,٣	٢٨,٨
المجموع	٤,٤١٤٥,٠٠٠		١٨٤٤٧٩	١٠٠	٢١,٩

ونلاحظ من هذا الجدول - مثلاً - أن محافظة اللاذقية تضم حوالى أربعة أمثال سكان محافظة السويداء مع أن مساحة الأولى تقل عن مساحة الثانية أكثر من ١٠٠٠ كيلو متر مربع ، كذلك نلاحظ أن سكان محافظة اللاذقية يزيدون عن سكان محافظة حمص مع أن مساحة حمص توازى عشرة أمثال مساحة اللاذقية تقريباً ولذلك نجد أن كثافة السكان فى الأخيرة تصل إلى حوالى ١٠٥ نسمة للكيلومتر المربع بينما هى تبلغ فى حمص ٩,٥ نسمة للكيلومتر .

أما عن الإقليم المصرى فيلاحظ أن كثافة السكان مرتفعة في القاهرة والإسكندرية بينما نجدتها منخفضة - إلى حد يجعلها لا تزيد عنها في بعض المديریات - في محافظتى القنال والسويس . وتقترب كثافة السكان في القاهرة منها في الإسكندرية وأن كانت تزيد قليلا في الثانية عنها في الأولى . والجدول رقم ٣ التالى يوضح الكثافة الحسايه للسكان في كل محافظة - بما فيها دمياط إلى سنة ١٩٤٧ على أساس أنها كانت محافظة إلى ذلك التاريخ - منذ أول تعداد منظم في عام ١٨٩٧ والأرقام المذكورة ما هي في الواقع إلا متوسط للكثافة في كل مدينة ، ومعنى هذا أن الكثافة تزيد كثيراً وتنخفض كثيراً عن هذا المعدل في أقسام كل محافظة وخاصة في القاهرة والإسكندرية .

الجدول رقم ٣

المحافظة	١٨٩٧	١٩٠٧	١٩١٧	١٩٢٧	١٩٣٣	١٩٤٧	١٩٥٧
القاهرة	٣٣٠٠	٣٧٩٨	٤٤٢٨	٥٩٦٠	٧٣٤٥	١١٧٠٤	٢٠٦٠٦١
الإسكندرية	٤٤٣٢	٤٩٦٥	٦٢٣٨	٨٠٤١	٩٦٢٢	١٢٩١٠	١٧٢٠٠
القنال	١٤٤	١٧٦	٢٦٢	٣٧٣	٤٦٣	٧٠٧	١١٨٨
السويس	٥٧	٦٠	١٠١	١٣١	١٦٢	٣٤٩	٥٢٥
دمياط	١٥٦٣٢	١٣٥٨٩	١٤٣٤٤	١٦١٦١	١٨٦٧٢	٢٤٨٢٩	

كثافة السكان في محافظات الإقليم الجنوبي

وبمقتضى إحصاء ١٩٤٧ نلاحظ بالنسبة للقاهرة أن قسم باب الشعريه أكتف أقسام القاهرة سكاناً إذ تصل الكثافة فيه إلى ١١٢١×٢ نسمة في الكيلومتر المربع وكذلك ترتفع الكثافة فتزيد على ٤٠,٠٠٠ نسمة في الكيلومتر المربع في أقسام الموسكى والسيدة زينب والدرب الأحمر

والأزبكيه وروض الفرج على الترتيب ، بينما تنخفض الكثافة في بعض الأقسام الأخرى انخفاضاً ملحوظاً دون المعدل المذكور ويعتبر قسم مصر الجديدة أقل أقسام القاهرة كثافة في السكان إذ تنخفض الكثافة فيه إلى ٢٨١٧ نسمة في الكيلو متر المربع كما أنها تنخفض عن المعدل في أقسام الخليفة ومصر القديمة وشبرا .

هذا عن القاهرة ، أما في الإسكندرية فيعتبر قسم الجمرك أكثر أقسامها إذ تصل إلى ١١٢٣٢٧ نسمة في الكيلو متر المربع ، فهي بذلك تزيد عنها في قسم باب الشعريه (أكتف أقسام القاهرة) كذلك يلاحظ أنها ترتفع بوضوح عن المعدل في أقسام كرموز والمنشية والعطارين وللبان ، وهي الأقسام التي تحتل قلب المدينة ، بينما يلاحظ أن الكثافة تنخفض في أطراف المدينة دون المعدل كما هو الحال في قسم الرمل الذي يمثل الطرف الشرقي للإسكندرية ، وقسم ميناء البصل الذي يمثل الطرف الغربي بها ، كما تنخفض قليلاً عن المعدل في قسم محرم بك^(١) الذي يمثل الطرف الجنوبي الشرقي للمدينة .

والجدول رقم ٤ التالي يشير إلى الكثافة في عواصم مديريات الإقليم الجنوبي سنة ١٩٤٧ للمقارنة بينها وبين المحافظات :

(١) يعتبر قسم محرم بك - الآن - من الأقسام الكثيفة السكان بعد أحياء قسم باب شرق على حساب قسم محرم بك حسب حدوده في سنة ١٩٤٧ وهي سنة التعداد التي أعتمد عليه .
(راجع دراسات في جغرافية مصر ص ٤٥٧ ، ٤٦٠)

(شكل ٤)

البندر	كثافة السكان
دمهور	١٤٢٩٧
طنطا	٦١٩١
شين الكوم	٢٦٨٦
بنها	٤٧٢١
المنصورة	١١٤٥٧
الزقازيق	١٢٠٣١
الجيزة	٤١٣٤٨
بنى سويف	٤١٦٨
الفيوم	٣٦٦٤
المنيا	٤١٦٠
أسيوط	٣٦٤٨
سوهاج	٤٩٠٥
قنا	٢٢٩٦
أسوان	٣٧٦٣

كثافة السكان في بنادر الإقليم الجنوبي حسب تعداد ١٩٤٧

ويوضح الجدول أن بندر الجيزة هو أعلى بنادر المديريات كثافة في السكان ، وذلك لأن الجيزة تعتبر امتداداً عمرانياً لمدينة القاهرة ، ويمكن تعليل إرتفاع الكثافة بالجيزة بسبب الهجرة الناجمة عن وجود جامعة القاهرة بها . وكذلك تزيد الكثافة السكانية في بنادر دمنهور والزقازيق والمنصورة ، بينما تنخفض بشكل ملحوظ في بنادي شين الكوم وقنا (١٦ السكان)

بحيث يمكن اعتبارهما بلدين كبيرين أكثر منهما مدينتين وخاصة لأنه تغلب عليهما المسحة الريفية عن الحياة الحضرية المدنية .

هذا وقد تضخمت المدن العربية في العصر الحديث تضخما كبيرا فالتسعت رقعتها وانتشر عمرانها ، وتضاعف عدد سكانها ، وأصبح أكثرها مزدوجا يتألف من قسم كبير ضيق الطرقات عتيق البناء ، وقسم حديث ذي شوارع متسعة ومبان شاهقة ، ويتجمع السكان في القسم القديم حسب مهتهم في أحياء تجارية يغلب عليها نظام الحرف ، وحسب مذاهبهم في الأحياء السكنية ، فهناك مثلا أسواق خاصة بتجار الحرير أو الصوف أو القطن أو الغلال ، وأخرى خاصة بالتجارة والحدادة والصياغة والصباغة (الموسكى . سوق الحميدية . المنشية) ... الخ وتسمى الأحياء السكنية - في هذا القسم القديم من المدينة العربية - باسم الطوائف الأهل بها كحى النصارى وحى اليهود أو الأقليات العنصرية كحى الأكراد أو حى الأرمن . أما في الأقسام الجديدة من المدن العربية فليس هناك تخصص حرفى . أو تميز طائفى أو عنصرى في الأحياء السكنية .

وهذه بعض الأمثلة التى توضح النمو المطرد فى سكان بعض المدن الكبرى بإقليمى الجمهورية ،

السنة	(١) القاهرة	(٢) الاسكندرية
١٨٤٨	٢٥٤,٠٠٠	١٣٤,٠٠٠
١٨٩٧	٥٧٠,٠٠٠	٣٢٠,٠٠٠
١٩٢٧	١,٠٦٥,٠٠٠	٥٧٣,٠٠٠
١٩٣٧	١,٣١٢,٠٠٠	٦٨٦,٠٠٠
١٩٤٧	١,٠٩١,٠٠٠	٩١٩,٠٠٠
١٩٥٧	٢,٨٩١,٠٠٠	١,٢٩٠,٠٠٠

السنة	(٣) حلب	(٤) دمشق
١٨٤٥	٧٧,٠٠٠	
١٨٨٣	٩٠,٠٠٠	٩٠,٠٠٠
١٩٣١	١٩١,٠٠٠	١٩٦,٤٠٠
١٩٣٨	٢٧٢,٠٠٠	٢٦١,٠٠٠
١٩٤٧	٣٤٣,٠٠٠	٣١٠,٢٠٠

وقد تطورت نسبة سكان المدن العربية إلى مجموع السكان على النحو التالي :

نسبة سكان المدن	الإقليم المصري
١٩ %	١٩٠٧
٢١ %	١٩١٧
٢٣ %	١٩٢٧
٢٥ %	١٩٣٧
٣١ %	١٩٤٧
٣٣ %	١٩٥٤
نسبة سكان المدن	الإقليم السوري
٣١,٢ %	١٩٤٧
٣٧ %	١٩٥٢

وأسباب إزدحام المدن بالسكان يرجع إلى الهجرات الخارجية والداخلية فالأجانب الذين إستوطنوا إقليمى الجمهوريه حل أكثرهم بالمدن كالآرمن فى الإقليم الشمالى واليونانيين والإيطاليين فى الإقليم الجنوبى .

ولكن عدداً كبيراً من سكان الريف أنفسهم يهجرون قراهم ويتخذون المدن مقراً لهم ، لأنهم يجدون فيها عملاً دائماً يدر عليهم مورداً ثابتاً ، وخاصة بعد نمو حركة التصنيع ، وارتفاع أجر العامل في المصانع .

يلاحظ في الأقليم الشمالى بشكل واضح . . التنوعات الطائفية ، واتجاه أصحاب كل طائفة إلى التجمع والتكثف في مكان واحد وذلك للبقاء في جمعهم الخاص . .

توزيع السكان والمذاهب بين مدن الأقليم الشمالى حسب إحصاء عام ١٩٥٦

المدينة	المجموع الكلى للسكان	سنيون	علويون	شيعة	إسماعيليون	دروز	يزيديون
دمشق	٨٣٨,٨٢١	٧٠٥,٣٩٢	٥,٧٨٥	٥٤٤	٧٤	٢٠,٧٧١	٩
حمص	٣٩٢,١٥٦	٢٣٣,٥١١	٥٩,٧٠٨	٤,٠٧٤	٢٢٩	٢٣	١
حماه	٣٠٠,٤١٧	١٦٦,٥٣٩	٦٦,٤١٢	٢١٢	٣٤,٦٢٠	١٠	—
حلب	١,١٨٣,٧١٧	١,٠٠٧,٣٢٤	٣,٨١٧	١٠,٤٦٢	٤٤	٢,١٦٧	١,٣٦٦
الحسكة	٢٥٣,٥١٤	١٨٧,٣٥٩	١٦٥	٣٢٥	١٧	١١	١,٩٤١
دير الزور	٣١٧,٧٥٨	٣١٢,٢٥٥	١٢٩	—	٢١	٣٧	٩
السويداء	١١٥,٦٨٧	٢,١٣٤	٩٩	٥٤	—	١٠٢,٠١٧	—
درعا	١٥٨,٤٤٥	١٤٧,١٧٥	٣٧٨	٤	—	—	—
اللاذقية	٤٦٤,٦٥٠	١٠٤,٧٩٤	٢٩٢,٩٤٨	٢	١٣٧,٥	١٨	—

(تابع ما قبله)

المدينة	أرثوذكس			كاثوليك			لاتين	موارنة	بروسانت	كلدانيون	نسطوريون
	روم	أرمن	سريان	روم	آرمن	نسطوريون					
دمشق	٣١,٥٨٤	١٧,٨٩٦	١,٤٤٠	٨١,٤٥٤	٢,٦٤٢	٤,٠٥٣	٦٤٦	١,٦٧٩	٢,٠٩٣	٢٨٥	٩
حماة	٥٦,٧١٨	١,٧٣٣	١٧,٢٧٧	٣٥,٦٨٧	١,٥٥١	١,٨٦١	٥٦٣	٢,١٢٢	٢,٧١٣	٣٥	—
حلب	٢٧,٥٦١	٩٣٠	٨٥٤	٥٧٥	٤٦	٤٣٠	١٤	١,٣١٨	٨٦٥	٢	١
حلب	١٢,٢٧٩	٧٥,٣٥٧	٦,٨٧٧	٦٥,٣٦١	١١,٧١٥	٧,٤٦٣	٤٨٦٦	٤,٢٧٨	٢٨٤٨	٢٥٧٣	٥
الحسكة	٥٢٠	١٠,٦٥٤	٢٧,٩٢٥	١١١	٣٧١	٤,١٧٠	٤٥	٧٥	٦٦٢	٢,٤٨١	١١٧٣٥
دير الزور	٢٢٨	٢,١٦٣	٨٦٩	٧١	٥٨	٢٩٦	٢٨	٨٨	٣٣	٢٨٦	٣
السويداء	٦,٣٤٥	٤٢٢	—	١٧٧١	٦١	—	—	١٠٨	٤٦٧	—	—
درعا	٣,٨٥٤	٤٢١	٥٩	٦,٧٣٧	٣١١	—	—	٤	٥٠	—	—
اللاذقية	٤٢,٦٦١	٤,٨٤٥	٣٢	٣٠١	٣٥٨	—	٩١٧	٩٦١٩	٣٠٨١	٦١	٧

وهذه الطوائف رغم تعددها وتنوعها متزجة ومتآلفة في الإطار العربي القومى . ونوضح لنا الإحصائية التالية التنوعات الطائفية ، ومنها تبين مركز التجمع لكل طائفة من الطوائف المتعددة في الإقليم الشمالى .

ويتضح لنا من الإحصائية أن طائفة السنيين يتجمعون في حلب إذ يبلغ من يقطن في هذه المنطقة منهم ما يقرب من المليون نسمة . بينما نجد أن مركز تجمع طائفة العلويين منطقة اللاذقية فيبلغ عددهم في هذه المنطقة ٢٩٢,٩٤٨ نسمة . أما طائفة الشيعة فنسبتهم الكبرى توجد في حلب وعددهم في هذه المنطقة ١٠,٤٦٢ نسمة ، أما الإسماعيليون فمركز توطنهم مدينة حماه ، ويتكثرون في منطقة السويداء إذ يبلغ تعدادهم ١٠٢,٠١٧ نسمة . أما الطائفة اليزيدية فتتجمع في حلب والحسكة إذ يبلغ عددهم في حلب ١,٣٦٦ وفى الحسكة ١,٩٤١ .

والأرمن يتكثرون في حلب إذ يبلغ تعدادهم في هذه المنطقة وحدها ٧٥,٣٥٧ نسمة بينما البقية الباقية منهم والذي يبلغ تعدادها حوالى ٣٨ ألف نسمة فموزعة بين بقية مناطق سورية المختلفة .

أما السريان فتعتبر الحسكة مركزاً لتجمعهم وإن كان يكثرون عددهم في حمص ، ويتجمع الروم الكاثوليك في دمشق ، بينما الأرمن الكاثوليك يتجمعون في حلب . . وتعتبر حلب أيضاً مركزاً لتجمع اللاتين فيبلغ عددهم في هذه المنطقة وحدها ٤٨٦٦ نسمة . . ومركزاً لتجمع الموارنة فعددهم فيها ٤٢٧٨ نسمة . . وتعتبر الحسكة مركزاً لتوطن النسطوريين إذ يبلغ عددهم في هذه المنطقة دون غيرها ١١,٧٣٥ نسمة .

المبحث الثاني

التكوين الديموجرافي

أولا — توزيع السكان من حيث النوع

لا شك أن معرفة عدد الذكور والإناث في مجتمع ما يلقي ضوءاً على بعض الجوانب الاجتماعية والاقتصادية في حياة المجتمع، فقلة النساء أو كثرتن لها أساس بمشاكل الزواج والطلاق، كما لها علاقة بتوزيع العمل على المواطنين^(١).

فن الواضح — مثلاً — أنه إذا كان هناك زيادة في عدد الذكور عن عدد الإناث في فئات السن بين ٢٠ و ٣٠ في مجتمع ما فإننا سنجد — بصفة عامة — أن نسبة الرجال المتزوجين في هذا المجتمع أقل منها في مجتمع آخر يتفوق فيه عدد النساء^(٢).

كما أن زيادة نسبة عدد الذكور في المجتمع يعني توافر عدد أكبر من العمال الذين يستطيعون القيام بالأعمال الزراعية والصناعية الثقيلة، ويتحقق ذلك كأحسن ما يكون إذا ما كانت زيادة الذكور هذه منحصرة في فئات السن من ٢٠ إلى ٥٥ سنة.

ومعرفة عدد أفراد الجنس تعتبر عاملاً مهماً في تحديد نسبة الوفيات في أية مجموعة سكانية. ذلك أن معدل وفيات النساء عامة أقل من معدل وفيات الرجال أو الذكور في جميع فئات الأعمار — كما سنعرف تفصيلاً

(١) د. عبد الكريم الباقي علم السكان، دمشق، ١٩٥٩، ص ٩٧.

(٢) د. عزة النسي: أحوال السكان في العالم العربي القاهرة ١٩٥٥، ص ٩٣.

(3) Thompson (S.): Population Problems, N. York, 1953,

بعد قليل — فإذا ما كان عدد الإناث أكثر من نصف العدد الكلي للسكان — وذلك متحقق في أغلب دول العالم — فإنه يترتب على ذلك انخفاض النسبة العامة للوفيات في المجتمع .

كما أن قلة عدد الإناث أو الذكور وخاصة في سن النضج ، يؤدي إلى تقليل نسبة الزيجات وبالتالي إلى خفض معدل المواليد ، وفضلا عن ذلك فإنه ينتج من عدم تقارب نسبي عدد الإناث والذكور في المجتمع بعض مشكلات اجتماعية تتصل بالأوضاع الاقتصادية ، وخروج المرأة إلى العمل خارج المنزل وازدياد البغاء وتغير مركز المرأة الاجتماعي وغير ذلك مما يتصل بصفة مباشرة أو غير مباشرة بتكوين السكان من حيث الجنس .

وفيما يتعلق بالتكوين السكاني للجمهورية العربية المتحدة فإننا نلاحظ بصفة عامة أنه يكاد يتساوى عدد الذكور وعدد الإناث فيها ، مع ملاحظة أن عدد الإناث كان إلى وقت قريب أكثر من عدد الرجال في الأقليم الجنوبي بينما العكس صحيح بالنسبة للأقليم الشمالي ، فاحصاءات الأقليم الشمالي تدل على تكاثر مستمر في عدد الذكور ، ولكنها لا تشف عن كثرة النساء في المدن وقلتهن في الأرياف ، وذلك لسببين : أولهما أنه لم يكن يجري في الأقليم السوري تعداد دوري للسكان يسجل كل السكان المقيمين فيه وثانيهما أن تسجيل النساء يكون عادة أقرب إلى الصحة في المدن عنه في القرى والأرياف .

ويستدل على تكاثر عدد الذكور من الأرقام التالية :

السنة	النسبة	السنة	النسبة
١٩٣٧	٩٩٧	١٩٤٩	٩٦٣
١٩٤٥	٩٧٢	١٩٥٠	٩٦٣
١٩٤٦	٩٧١	١٩٥١	٩٦٣
١٩٤٧	٩٧١	١٩٥٢	٩٥٩
١٩٤٨	٩٦٨	١٩٥٣	٩٥٦

وهذا الانخفاض المضطرد في نسبة الإناث يشاهد في جميع محافظات
الأقليم الشمالى ما عدا الجزيرة ، وذلك أن هذه المحافظة الغنية كانت حتى أمد
قريب محط الهجرات الداخلية والخارجية ، فخفلت بالوافدين من الرجال ،
ولما خفت وطأة الهجرة أخذ التوازن بين عدد النساء الرجال يعود إلى
المعدل الطبيعى .

وقد كانت نسب الإناث إلى الذكور في المحافظات السورية كما يلي في
عامي ١٩٣٧ و ١٩٥٣ :

المحافظة	نسبة الإناث إلى ١٠٠٠ من الذكور	
	١٩٥٣	١٩٣٧
حمص	٨٧٦	٨٧٨
جبل الدروز (السويداء)	٨٩٧	٨٩٩
الجزيرة (الحسكة)	١٠٥	٨٥٧
حوران (درعا)	٩١٧	٩٧٩
حماة	٩٤٧	٩٥٣
دمشق (عدا المدينة)	٩٤٩	٩٦٤
الفرات (دبر الزور)	٩٥٩	١٠٠٧
دمشق المدينة	٩٦٨	٩٨١
حلب	٩٨٦	١٠٣٢
اللاذقية	١٠٠٦	١١٠٧

أما بالنسبة للإقليم الجنوبي فقد دل تعداد عام ١٩٤٧ أن نسبة الإناث في الإقليم الجنوبي هي ١٠٢٠ امرأة لكل ١٠٠٠ رجل ، أي أن الذكور يبلغون ٤٩,٥ ٪ من جملة السكان والإناث ٥٩,٥ ٪. ويلاحظ أن النسبة بين عدد الإناث والذكور كانت متذبذبة في التعدادات السابقة : كما يدل الجدول التالي .

سنة التعداد نسبة الإناث لكل ١٠٠٠ من الذكور

١٨٩٧	٩٦٩
١٩٠٧	٩٩٢
١٩١٧	٩٩٧
١٩٢٧	١٠٠٩
١٩٣٧	٩٩٨
١٩٤٧	١٠٢١

أما بعد ١٩٤٧ فالتقديرات المبينة على الزيادة الطبيعية تدل على تزايد قليل - ولكنه مضطرب - في نسب الذكور إلى أن تسكاد تتساوى النسبتان في عام ١٩٥٧ .

سنة التعداد نسبة الذكور إلى جملة السكان

١٩٤٨	٤٩,٥ ٪
١٩٥٠	٤٩,٥ ٪
١٩٥١	٤٩,٦ ٪
١٩٥٢	٤٩,٧ ٪
١٩٥٣	٤٩,٨ ٪
١٩٥٤	٤٩,٩ ٪
١٩٥٥	٤٩,٩ ٪
١٩٥٦	٥٠,٠ ٪
١٩٥٧	٥٠,٠ ٪

ولم تكن ظاهرة زيادة الإناث على الذكور مقصورة على الإقليم المصرى ولكنها لوحظت في أغلب الدول العربية منذ القدم .

كما أن تحليل الاتجاه نحو التسكافو في نوع السكان فيما يعد سنة ١٩٤٧ هو تماقص الفرق في نسب الوفيات بين النساء والرجال . ومهما يكن من أمر فإن تعداد ١٩٤٧ كان يكشف عن وفرة الرجال في المحافظات والمدن وبعض البنادر وقتهم نسبياً في الأرياف .

ويعلل بعض الكتاب نقص عدد الإناث عن الذكور بشكل واضح في تعداد ١٨٩٧ بأن النسكتم كان شديداً - وقت ذلك التعداد - في ذكر عدد الإناث عند الفقراء وخاصة في الأرياف .

ويرجع بعض الكتاب - في العاده - ظاهرة إزدياد الإناث عن الذكور إلى زيادة عدد الوفيات من الذكور ، أما لأن الإناث أكثر مناعة من الذكور وأما لأن الذكور أكثر تعرضاً للحوادث والأخطار بسبب طبيعة عملهم^(١) . ودليل ذلك في الإقليم المصر أن عدد المواليد الذكور يزيد دائماً على المواليد الإناث ، ولكن هذه الزيادة لا تلبث أن تلاشى في السنوات الأولى من العمر فتزيد نسبة الإناث على الذكور^(٢) . وقد لوحظ - في التعدادات المتعاقبة إلى إحصاءات ١٩٤٧ - أن الإناث يزدن عن الذكور بصفة شبه دائمة بعد سن العشرين ولا شك في أن تضخم الإناث في الفترة الخصبة من العمر يعزز الخصوبة تعزيراً كبيراً في الإقليم الجنوبي ، وهو ما ظهرت نتائجه في السنوات اللاحقة التي اضطرد فيها نسبة تزايد الذكور إلى أن كان تعداد سنة ١٩٥٧ التقريبي ، وفيه تماثل عدد الإناث وعدد الذكور وكانت نسبة كل منهما ٥٠٪ من المجموع الكلي لسكان الإقليم الجنوبي كما يدل الجدول التالي في الصفحة القادمة .

وإذا أضفنا إلى ذلك ما سبق أن قلناه من أن نسبة الذكور في الإقليم الشمالي أعلى من نسبة الإناث يكون الموقف السكاني العام في الجمهورية

(١) د . عباس عمار : سكان الشرق من ٢٣٩ (بالإنجليزية) .

(٢) د . جال الدين سيد : دراسة تحليلية لإحصاءات ونمو السكان في مصر ص ٥٠ .

العربية المتحدة مثالياً من حيث تسكافو نوعى السكان بل أنه لو إستمر الإنجاء حيث هو ، فإن المحتمل إلى حد كبير جداً أن يزداد عدد الذكور عن عدد الأنثى فى الإحصاءات القادمة - مالم تتدخل عوامل غير عادية - ولا شك أن موقفاً مثل هذا يساعد حركة التقدم الإجتماعى والعمرانى الذى تشهده الجمهورية الفتية بقطاعيها الشمال والجنوبى .

توزيع السكان حسب النوع وفئات السن فى الأقليم الجنوبى ^(١)
سنة ١٩٥٧ (الأرقام بالآلاف)

فئة السن	ذكور	أنثى	جملة
أقل من ٦ سنوات	٢٤٦٠	٢٣٠٣	٤٧٦٣
٦ — ١١ سنة	١٩٢٥	١٧٩٤	٣٧١٩
١٢ — ١٥	١٠٩٦	٩٩٥	٢٠٩١
١٦ — ١٩	٧٥٤	٧١٥	١٤٦٩
٢٠ — ٢٩	١٤٠٦	١٧٦٤	٣١٧٠
٣٠ — ٣٩	١٤٥١	١٦٠٣	٣٠٥٤
٤٠ — ٤٩	١١٤٧	١١١٨	٢٢٦٥
٥٠ — ٦٤	١١٢٠	١٠٦٠	٢١٧٢
٦٥ فأكثر	٤٢٢	٤٨٧	٩١٩
غير مبين	٦	٤	١٠
الجملة	١١٧٨٩	١١٨٤٣	٢٣٦٣٢

(١) إحصاء القوة العاملة بالهيئة فى الأقليم المصرى ١٩٥٧ — ١٩٥٨ من ١٦٨ — ١٦٩

— ثانياً —

توزيع السكان على أساس الأعمار

تمهيد :

من أهم ما يجدر أن تعنى به الدراسة الديموجرافية المعاصرة هو الوقوف على توزيع السكان حسب فئات السن ، وذلك بعينة حصر القادرين على العمل والإنتاج والقاصرين عنهما ، والمتهمين لحمل السلاح والذود عن الوطن والعاجزين عن ذلك وقت الحرب ، ولتقدير المكلفين بالإشتراك في الانتخابات ومباشرة حقوقهم السياسية - والمساهمة في الشؤون العامة ومن هم في سن التوظيف ، ومن هم في سن التحصيل والتعليم وعدد الأطفال والشيوخ الذين تلتزم الدولة برعايتهم وفي ضوء هذا ترسم الدولة سياستها في الخدمات التنقيفية والصحية وبقية النشاطات الإجتماعية .

ولبيانات السن أهمية خاصة في دراسة اتجاهات السكان في النمو ، بما في ذلك المواليد والوفيات ومعدلات الزواج .

وللدلالة على مختلف الأعمار في بلد ما تحسب الأعمار على خط رأسي وعدد السكان من كل عمر على خطوط أفقية ، والصورة الناتجة تسمى اصطلاحاً سلم الأعمار أو هرم الأعمار Ages pyramid وعندما يكون هذا الهرم واسع القاعدة ضئيل القمة ، فهو يدل على شعب فتى كثير المواليد وعندما يكون الهرم ضيق القاعدة فهذا معناه أن الشعب هرم كثير الشيوخ قليل الأطفال .

والحروب والمجاعات تنترك في درجات الهرم بفوات واضحة ، كما هو

الحال في هرم الأعمار - الفرنسي مثلاً - منذ بداية القرن العشرين إلى منتصفه والذي يدل على نقص المواليد وكثرة الوفيات أثناء الحربين الأخيرتين . ويصنف السكان حسب أعمارهم تصنيفات كثيرة ، غير أن أهم تصنيف يأخذ به معظم الديموجرافيون هو ذلك التصنيف الذي يقسم السكان إلى ثلاث فئات كبيرة تقع فئات أعمار أفرادهم تباعاً بين ١٩ ، ٢٠ ، ٥٩ ، ٦٠ فما فوق وعندئذ يمكن أن نقابل بين تركيب هذه الفئات في مجتمعين مختلفين ، أو في مجتمع واحد في زمنين مختلفين . هذه المقابلة أو المقارنة تظهر بوضوح مدى تركيب الشعب نفسه في زمنين مختلفين من العناصر المسنة والعناصر الفتية . ولكل فئة من هذه الفئات ثلاث خصائص معينة :

الفئة الأولى (٠ - ١٩) : تشمل الأطفال والأحداث واليا فعين وهم عماد المستقبل . ولكنهم من الوجهة الاجتماعية يعيشون على نفقة الفئة الثانية إذا لا يكاد يبدأ اليا فاع مزاولة عمل ما إلا حول سن الخامسة عشرة في أغلب المجتمعات (باستثناء المجتمعات الزراعية المتخلفة والجماعات الرعوية) . والفئة الثانية (٢٠ - ٥٩) تضم الشباب والكحول أى المنتجين حقاً في ميدان الحياة الاجتماعية . وإذا ابتدأ سن الإنتاج حول الخامسة عشرة فقد يستمر أحياناً إلى ما وراء الستين ولا سيما في مجال الأعمال الزراعية وهذه الفئة المنتجة لثروة هي أيضاً التى تنشئ الأطفال وتربهم ، ثم أنها تتحمل نفقات المسنين .

والفئة الثالثة (٦٠ فما فوق) تحوى الشيوخ والمسنين الذين قد بلغوا سن التقاعد والإحالة على المعاش وانقطعوا في الغالب عن الإنتاج . ولا يخفى أن عدد كل فئة بالنسبة إلى الفئتين الأخرتين أو إلى المجموع يعطى فكرة جلية عن قوى الشعب المنتجة أو عن هرمه (شيخوخته)^(١) .

(1) Alfred Sauvy : la Population ' Paris ' 1944

ويعرف العلامة الفرد سوفى Alfred sauvy قرينة الشيخوخة بأنها نسبة عدد المسنين (٦٠ فما فوق) إلى عدد الأحداث (أقل من سن العشرين) . وقد كانت هذه القرينة بين سنتى ١٩٥٠ و ٩٥٣ : ٥٥ فى بريطانيا و ٥٣ فى فرنسا و ٣٤ فى الولايات المتحدة الأمريكية و ٢٩ فى إيطاليا و ١٥ فى الاتحاد السوفيتى و ١٢ فى تركيا

ويترتب على مشكلة زيادة عدد المسنين فى مجتمع ما توسيع برامج الضمان الإجتماعى Social security Program وخاصة حيث يتولى الشيوخ عبء أعانة عدد ضخم من الأطفال أو صغار السن العاجزين عن الكسب^(١)

فئات السن فى الجمهورية العربية المتحدة :

يتميز شعب الجمهورية العربية المتحدة فى أقليميه عموما بأنه شعب فنى أى تقل فيه قرينة الهرم (الشيخوخة) بالنسبة لفئات السن الأخرى بمعدل أكبر منه فى أكثر بلاد العالم ، والجمهورية العربية المتحدة فى ذلك شأنها شأن بقية الشعب العربى الذى يتميز به الميزه ، ولا بأس من أن تعرض الأمر فى شيء أكثر من التفصيل .

(١) الإقليم السورى :

تدل جميع الإحصاءات المتوفرة^(٢) على فتوة غالبية لدى سكان الشعب العربى فى الإقليم السورى فالأحداث دون العشرين يبلغون ٥١٪ من المجموع على تقدير . ومن هم فوق الخمسين لا يتجاوزون ١٣٪ ونجد بالاستنتاج أن الذين بلغوا الستين أو تعدوها حوالى ٧٪ فقريته الهرم فى شعب الإقليم السورى لا تزيد عن ١٣ ولا تنقص عن ١٠ وهى بذلك تكاد تماثل الحالة

(1) Thompson ' Population Problems PP44 . 96 .

(٢) هزة النس : أحوال سكان العالم العربى ص ١١٣ .

في سكان الإقليم الجنوبي من حيث ندرة الشيوخ وضعف قرينة الهرم -
وقد قدر السير الكسندر جيب . A . gipp . فئات السن في الإقليم

الشمالي عام ١٩٤٤ كما يلي^(١): أقل من ٤ سنوات ١٢,٤ ٪

من ٥ - ١١ ١٨,٦ ٪

من ١٢ - ٢٠ ٢١,٦ ٪

من ٢١ - ٥٠ ٣٤,٦ ٪

من بعد الخمسين ١٢,٨ ٪

وقد وصل الدكتور عزة النص^(٢) إلى نتائج مماثلة لما وصل إليه الكسندر
جيب من سجلات الاحوال المدنية لمناطق مختلفة من سورية عام ١٩٤٥
إلا انه حسب نسب الذكور والإناث إلى مجموع كل جنس . ويعطينا الدكتور
عزة النص الجدول التوضيحي الآتي :

النسبة المئوية إلى مجموع السكان	فئات السن
٢٩,٥ ٪ (١٥,٥ ذكور + ١٤ أناث)	من ٠ إلى ٩
٢١,٥ ٪ (١١ + ١٠,٥ ذكور)	١٠ ، ١٩
٥١ ٪ (٢٦,٥ + ٢٤,٥)	الجملة
١٦ ٪ (٨,٥ + ٧,٥)	من ٢٠ إلى ٢٩
١١,٥ ٪ (٦ + ٥,٥)	٣٠ ، ٣٩
٩ ٪ (٤,٥ + ٤,٥)	٤٠ ، ٤٩
٧,٥ ٪ (٣,٥ + ٤)	٥٠ ، ٥٩
٥ ٪ (٢ + ٣)	٦٠ فما فوق
٤٩ ٪ (٢٤,٥ + ٢٤,٥)	الجملة
١٠٠ ٪ (٥١ + ٤٩ أناث)	المجموع العام

(١) تقرير الكسندر جيب عن تطور سورية الاقتصادية ١٩٤٦ (ترجمة عربية) الجدول ١٠

(٢) عزة النص : المرجع السابق ص ١١٥ .

وبدّل الجدول السابق أنه كان في سورية رجلان وثلاث نساء فوق سن الستين من مجموع كل ١٠٠ مواطن ، بينما نجد في حقبة الحياة قبل العشرين ٥١ ٪ من السكان منهم ٢٦,٥ ٪ ذكور و ٢٤,٥ ٪ أناث ، ويتعادل عدد الرجال والنساء في سن ٤٠ - ٤٩ ثم يرجح عدد النساء .

ويمكن أيضا أن نفيد من الجدول السابق لمعرفة إمكانيات الزواج ، فبفرض صحة الإحصاءات يمكن أن نستنتج أنه يوجد في الإقليم الشمالي ٣٨ رجلا لكل ٢٥ امرأة في سن ٢٠-٤٩ .

(ب) الإقليم الجنوبي :

لا يمكن أن نستنتج من تعدادات الإقليم الجنوبي المتعاقبة تطورا معينا في السن لدى الشعب العربي في إقليم مصر ، فعدد من هم دون العشرين - يتراوح في التعدادات الخمسة الأخيرة بين ٤٧,٧ ٪ و ٤٨,٦ ٪ والذي لا يعزى إلى حيوية السكان وتغيرها بقدر ما يعزى إلى نسبة الخطأ في كل تعداد . ولما كانت الإحصاءات التفعيلية لسنة ١٩٥٧ لم تنشر بعد فسنعتمد على تحليل إحصاءات سنة ١٩٤٧ على وجه الخصوص .

والجدول التالي بين فئات السن منذ سنة ١٩٠٧ إلى سنة ١٩٤٧ .

فئات السن	١٩٠٧	١٩١٧	١٩٢٧	١٩٣٧	١٩٤٧
من ٠ إلى ٩	٣٠,١	٣٨	٢٧,٥	٢٧,٢	٢٦,٤
من ١٠ إلى ١٩	١٨,٥	٢٠,٣	٢٠,٣	٣٠,٥	٢١,٧
من ٢٠ إلى ٢٩	١٨	١٥,٥	١٦,٤	١٥,٢	١٥,١
من ٣٠ إلى ٣٩	١٤,٧	٥,١٣	١٤,١	١٤,٧	١٤
من ٤٠ إلى ٤٩	٩	٩	٩,٢	١٠,١	١٠,٤
٥٠ فما فوق	٩,٧	١٣,٧	١٢,٥	١٣,٣	١٢,٤

ومن هذه الإحصائية يتضح أن ثلثي أفراد سكان الإقليم المصرى لم يكن يزيد عمرهم عن الثلاثين وفقاً لتعداد سنة ١٩٤٧ .

ومن تحليل إحصاء سنة ١٩٤٧ يتضح أن الشبان والكمهول (٣٠ - ٦٠) هم أعلى نسبة في المدن منهم في الأرياف ، وبطل ذلك على الأرجح بالهجرة الداخلية من الريف إلى المدن التي ينجم عنها إرتفاع نسبة الشيوخ في المديريات الريفية ، وبالتالي إرتفاع قرينة الشيخوخة فيها كما تدل الإحصائية التالية :

المناطق	٦٠ سنة فما فوق	٢٠ إلى ٥٩	أقل من ٢٠	أعمار غير مدينة	قرينة الشيخوخة
محافظات المدن	٤,٧	٤٧,٥	٤٧,٤	٠,٤	٩
أقسام الحدود	٥,٩	٤٥,٥	٤٨,١	٠,٥	١٢
مديريات الوجه البحرى	٥,٩	٤٤,٨	٤٩,١	٠,٢	١٢
مديريات الوجه القبلى	٦,٨	٤٦	٤٦,٩	٠,٣	١٤

ويدل تعداد ١٩٤٧ أيضاً على أن النساء يفقن الرجال عدداً في فئة السن ٢٠ - ٢٤، ويلاحظ أن عدد البنات دون سن الخامسة يفوق عدد الذكور في مثل هذه السن مع أن المواليد الذكور أكثر عدداً من المواليد الإناث، ولا يمكن أن يكون هذا صحيحاً إلا إذا كانت نسبة الوفيات بين ذكور الأطفال تفوق كثيراً نسبة الوفيات بين أترابهم البنات الأطفال - وهذا متحقق بالفعل - ويتمشى هذا مع القاعدة العامة لتوزيع الجنسين في معظم جهات العالم، وقد بلغ عدد المعمرين الذين تجاوزوا الثمانين ٥٢١٠٣، يقابلهم ٧٦١٧١ امرأة عجوز في مثل تلك السن.

وفي سنة ١٩٥٧ قدرت نسب فئات السن على النحو الموضح بالجدول التالي المأخوذ من الحصر المبدئي لسنة ١٩٥٧.

النسبة المئوية من مجموع الذكور	النسبة المئوية من مجموع الإناث	النسبة المئوية من مجموع السكان	فئات السن
٥٢,٨	٤٨,٩	٥٠	أقل من ٢٠ سنة
٤٣,٣	٤٢,٢	٤٥,١	٢٠ إلى ٥٩ سنة
٥,٩	١١,٩	٤,٩	من ٦٠ فما فوق

وقرينة سن الشيخوخة حسب تعداد ١٩٥٧ المبدئي هي ١٢,١ أى أن شعب الإقليم الجنوبي ما زال في عداد الشعوب الفتية.

وفيما يلي جدول آخر يبين توزيع السكان حسب فئات السن والجنس في الإقليم الجنوبي حسب الحصر التقديرى في سنة ١٩٥٧ (الأرقام بالآلاف).

فئات السن	ذكور	أناث	جملة
أقل من ٦ سنوات	٢٤٦٠	٢٣٠٣	٤٧٦٣
من ١٦ — ١١ سنة	١٩٢٥	١٧٩٤	٣٧١٩
١٢ — ١٥ سنة	١٠٩٦	٩٩٥	٢٩١
١٦ — ١٩ سنة	٧٥٤	٧١٥	١٤٦٩
٢٠ — ٢٩ سنة	١٤٠٦	١٧٦٤	٣١٧٠
٣٠ — ٣٩ سنة	١٤٥٢	١٦٠٣	٣٠٥٤
٤٠ — ٤٩ سنة	١١٤٧	١١١٨	٢٢٦٥
٥٠ — ٦٤ سنة	١١٣٠	١٠٦٠	٢١٧٢
٦٠ فأكثر غير مبين	٤٢٨	٤٩١	٩٢٩
الجملة	١١٧٩٨	١١٨٤٣	٢٣٦٤٢

من هذا كله يتضح أن شعب الجمهورية العربية المتحدة — في الاقليمين — شعب قتي من حيث فئات السن بين سكانه البالغين ٢٨ مليوناً وبالإضافة إلى ما تقدم فإنه يجدر بنا أن نسجل بعض النتائج التي نوجزها فيما يلي :

١ — ان نسبة الأطفال في سن التعليم الابتدائي التي لا تتجاوز ١٣٪ من جملة السكان في بلد مثل فرنسا . تبلغ ١٨٪ في المتوسط في الجمهورية العربية . ومن ثم كان على الميزانية العامة أن تتحمل أعباء أكثر نسبياً للانفاق على التعليم العام . وقد زادت ميزانية وزارة التربية والتعليم في الاقليم الجنوبي وحده من حوالي ٢٨ مليون جنيه سنة ١٩٥٤ إلى ٣٩ مليون جنيه سنة ١٩٥٨ وفي الاقليم الشمالي زادت هذه الميزانية من حوالي ٣٦ مليون ليرة سورية سنة ١٩٥٢ إلى حوالي ٦٠ مليون ليرة سنة ١٩٥٧ .

٢ — أن عدد السكان العاملين والمضطّلعين بعبء الانتاج ودفع الضرائب محدوداً إلى حد ما بالنسبة لوفرة الأطفال ، ولذلك سمح تشريع العمل العربي بالعمل

من هم في سن الثانية عشرة ، وفي أغلب الأحوال تقل سن العمل الفعلية عن السن القانونية وخاصة في البيئات الريفية ، ولكن مقدرة الاطفال العمل على لا تعدل من حيث الكم والنوع والكفاية مقدرة المراهقين واليا فعين ، وهذا عامل من عوامل إنخفاض متوسط انتاجية العامل العربي نسبيا ، كما أنه أحد عوامل تقليل الميزانية الحكومية والدخل الفردي والقومي .

٣ — إن وفرة الشباب وندرة الشيوخ أمر يفضى إلى غلبة العنصر الفتى في أجهزة الجمهورية العربية ومناصبها الرئيسية وهذا يبشر بزيادة مطردة في القدرة والكفاية الإنتاجية التي تتطلبها الحركة التصنيعية والانتفاضات القومية التي تسود الأمة العربية .

المبحث الثاني

النمو السكاني بالجمهورية العربية المتحدة

أولاً: المواليد :

تعتبر معدلات المواليد من أهم الإحصاءات الحيوية التي ينبغي توافرها في الدول التي تتطلع إلى التقدم وتسعى إليه . فالدولة لا تستطيع أن تتعرف على مركزها الإحصائي من حيث الزيادة الطبيعية لسكانها إلا بعد دراسة معدلات المواليد Birth Rates ومقارنتها بمعدلات الوفيات Death Rates ، كما أن الدولة لا تستطيع أن تبين مدى إمكانياتها الاقتصادية في المستقبل من حيث توافر اليد العاملة ، إلا إذا درست الاتجاه العام لمعدلات المواليد فيها ، وهي بالتالي لن تستطيع أن تضع السياسة السكانية الرشيدة للأجيال القادمة ما لم تتأكد من نسب المواليد في الماضي والحاضر والاتجاهات المرتقبة لهذه النسب في المستقبل^(١) .

وتستخرج معدلات المواليد من خارج قسمة عدد المواليد الأحياء في السنة على تعداد سكان الدولة مضروباً في ١٠٠٠ أو بطريقة أسهل هو نسبة عدد المواليد الأحياء إلى كل ١٠٠٠ من السكان .

ويلاحظ أن نسبة المواليد عالية في الشعوب الفتية ، وهي أشد لدى الريفيين منها لدى سكان المدن ، كما أن هذه النسبة أعلى في الطبقات الدنيا والمتوسطة ، منها في الطبقات العليا ، وهي بصفة عامة في الشعوب المتخلفة

(١) د . صلاح الدين نامق : دراسات في السكان . القاهرة ١٩٥٢ ص ٦٩ .

ويذكر الدكتور عبد الكريم الباقى في كتابه علم السكان أن عدد المواليد يتبع عدد عقود الزواج ، ولكن الزواج لا يعنى دائماً الإنسال ، ولذلك فإن عدد المواليد يتبع في الواقع خصوبة الأسرة ورغبة الزوجين في الإنجاب وعدد النساء المتزوجات اللاتي في سن الخصوبة .

اقتصادياً وثقافياً مرتفعة عن الشعوب المتقدمة في هاتين الناحيتين . كما يلاحظ أن البلاد التي تتلقى مهاجرين من الشباب يزيد معدل الولادة فيها عن البلاد التي تفقد هؤلاء المهاجرين .

وتعتبر الشعوب العربية في طليعة الشعوب ذات الخصوبة العالية أو ذات المعدلات المرتفعة في المواليد وقد قدر فيشر^(١) هذه المعدلات المرتفعة فقال أنها تتراوح بين ٦٢ في الألف (السعودية) و ٣٦ في الألف (الجزائر) .

معدلات المواليد في الجمهورية العربية المتحدة :

يقدر معدل المواليد في الجمهورية العربية بحوالى ٤٥ في الألف في المتوسط وهذا المعدل يجعل الجمهورية المتحدة ضمن شعوب الفئة الأولى ذات معدلات المواليد المرتفعة (أكثر من ٣٠ في الألف) والدارس لهذا الموضوع يواجه صعوبة بالغة خاصة بدقة الاحصاءات وقلتها فيما يتصل بالاقليم الشمالى من الجمهورية العربية المتحدة .

١ — المواليد في الاقليم الشمالى :

قدرت نسبة المواليد في سورية بنحو ٥٣ في الألف وأكدت وزارة الصحة السورية أن هذه للنسبة لا تقل عن ٤٠ في الألف^(٢) . ويرى د. ويلرس^(٣) J. Weulersse ، أن المعدل الحقيقي للمواليد في الريف السورى يتراوح بين ٤٥ و ٥٠ في الألف ، ويذكر اندكتور عزة النص أن تحرياته الخاصة عام ١٩٤٥ دلت على أن معدل المواليد في الأرياف يصل إلى ٤٥ في الألف ولا يهبط في المدن الكبرى عن ٣٠ - ٣٥ في الألف فيكون المعدل العام ٤٠ في الألف ، ولكن المعدل الرسمى (حسب تسجيل المواليد

(١) W.B. Fisher : The Middle East : London, 1950, P. 248

(٢) التقرير الصحى عن سورية ١٩٤٤ - ١٩٤٥ نشر مديرية الصحة العامة دمشق ص ٩٦

(3) J. Weulersse : Paysans de Syrie, P. 247

في دائرة النفوس) يقل عن ذلك بكثير إذ يبلغ حوالى ٢٥ فى الألف فى المتوسط واضطراب معدل المواليد حسب السنوات دليل على نقص التسجيل على نحو ما توضحه الإحصائيات الرسمية .

(ب) المواليد فى الإقليم الجنوبى :

يمتاز الإقليم الجنوبى عن الإقليم الشمالى بوفرة إحصاءاته الحيويه ودقتها . ولا يمكن أن نستنتج من هذه الإحصاءات اتجاهها معيناً لمعدل المواليد ، فهو يبلغ ٤٠ فى الألف فى المتوسط خلال السنوات من ١٩١٧ - ١٩٥١ ولكنه لا يتصاعد أو يهبط بانتظام ، فهو يصل مثلاً إلى ٤٥ فى الألف عام ١٩٣٠ وينخفض إلى ٣٧,٦ فى الألف عام ١٩٤٢ ويزداد إلى ٥٠ فى الألف مرة أخرى عام ١٩٥١ ثم ينخفض إلى ٤٢ فى سنة ١٩٥٣ ثم إلى ٣٩ سنة ١٩٥٤ ، ويبدو أن العوامل الحضارية والثقافية التى تحمل على ضبط النسل الاختيارى لم تظهر فى الإقليم المصرى إلا بعد سنة ١٩٥٣ وحتى هذا العامل لا يمكن التأكد من مدى فاعليته ، إذ قد تكون هناك عوامل أخرى تسببت فى انخفاض معدل المواليد عن ٤٠ فى الألف فى سنتى ١٩٥٣ و١٩٥٤ ومهما يكن من أمر فإن المعدلات الرسمية فى الإقليم الجنوبى تدل على درجة عظيمة من الخصوبة على نحو ما يبدو من معدلات المواليد التى فى الجدول التالى :

نسبة المواليد إلى ١٠٠٠ من السكان	السنة
٤٢,٨	١٩٢٤ — ١٩٢٠
٤٣,٩	١٩٢٩ — ١٩٢٥
٤٣,٧	١٩٣٤ — ١٩٣٠
٤٢,٨	١٩٣٩ — ١٩٣٥
٣٧,٦	١٩٤٢
٤٢,٧	١٩٤٤
٤١,٢	١٩٤٦
٤٢,٧	١٩٤٨
٤٤,٤	١٩٥٠
٤٥	١٩٥٢
٣٩	١٩٥٣

والجدول التالى يبين معدلات المواليد من سنة ١٩٤٩ إلى سنة ١٩٥٤
مفصلا عدد الإناث وعدد الذكور ونسبة كل فئة :

النسبة في الألف من جملة السكان	العدد بالآلاف	النوع	السنوات
٢٢	٤٣٤	ذكور	١٩٤٩
٢٠	٣٩٧	إناث	
٤٢	٨٣١	جملة	
٢٣	٤٧٢	ذكور	١٩٥٠
٢١	٤٣٣	إناث	
٤٤	٩٠٥	جملة	
٢٣	٤٨٧	ذكور	١٩٥١
٢٢	٤٤٧	إناث	
٤٥	٩٣٤	جملة	
٢٤	٥٠٨	ذكور	١٩٥٢
٢١	٤٦١	إناث	
٤٥	٩٦٩	جملة	
٢٢	٤٨٩	ذكور	١٩٥٣
٢٠	٤٤٦	إناث	
٤٢	٩٣٥	جملة	
٢٠	٤٦٣	ذكور	١٩٥٤
١٩	٤٢٠	إناث	
٣٩	٨٨٣	جملة	

ويتضح من هذا الجدول أن الإقليم الجنوبي من أكثر المناطق العالمية توالداً ، فهو يفوق عموماً دول أوروبا بهذا الصدد ، إذ تبلغ نسبة المواليد في يوغوسلافيا التي تعتبر أكثر دول أوروبا توالداً ٢٩,١ في الألف ، وفي إيطاليا ٢١,٢ في الألف - وإن كان هذا المعدل يقل عن معدلات الولادة في بعض دول أمريكا اللاتينية حيث تصل النسبة في جواتيمالا إلى ٥١,٩ في الألف .

الظاهرة الموسمية للمواليد :

يقصد بالظاهرة الموسمية للمواليد ، وجود مراسم معينة أو أشهر محددة يكثُر فيها الإنجاب بصورة نسبية ، وقد حاول بعض العلماء إيجاد علاقة توافق بين المواسم التي يكثُر فيها الزواج والتي يكثُر فيها الإنجاب ، وقد حاول بعض المحللين الإحصاءات الحيوية لسكان الجمهورية العربية ، تتبع الحركة الموسمية للمواليد وربطها بالحركة الموسمية للزواج التي تكثُر عادة في مواسم بيع المحصول الزراعي في القطاع الريفي .

ففي الإقليم الشمالي مثلاً تبدو الحركة الموسمية للمواليد بشكل واضح ، وقد يصل الحد الأعلى الشهري إلى ضعف الحد الأدنى كما تدل الأرقام التالية :

السنة	١٩٥١	١٩٥٢	١٩٥٣
عدد المواليد	ديسمبر : ٨٧٥١	ديسمبر : ١٠٠٣٤	فبراير : ١٨٥٤
" "	يونيه : ٥٧٦٤	يونيه : ٤١٨٩	يونيه : ٥٣٧٤

وتدل إحصاءات السنوات ذاتها أن الحد الأعلى للولادة يقع غالباً في الشتاء وخاصة في ديسمبر . والحد الأدنى يكون في الصيف وخاصة في يونيه :

أشهر الحد الأعلى بالترتيب :

١٩٥٣		١٩٥٢		١٩٥١	
ولادة	زواج	ولادة	زواج	ولادة	زواج
فبراير	ديسمبر	يناير	ديسمبر	ديسمبر	ديسمبر
يناير	فبراير	مارس	مارس	نوفمبر	أكتوبر
مارس	نوفمبر	فبراير	يناير	أغسطس	مايو

أشهر الحد الأدنى بالترتيب :

١٩٥٤		١٩٥٢		١٩٥١	
ولادة	زواج	ولادة	زواج	ولادة	زواج
يونيه	يونيه	يوليه	يونيه	يونيه	يوليه
أغسطس	يوليه	أغسطس	أغسطس	يوليه	أغسطس
يوليه	أغسطس	يوليه	يوليه	إبريل	يونيه

وفي الأقاليم الجنوبية كشفت الإحصاءات الشهرية المواليد في السنوات ١٩٢٥ — ١٩٤٤ أن نسبة المواليد تهبط أيضا في الصيف وترتفع في الشتاء ، وقد حسب الأستاذ السيد عبد الحميد الدالي أن شهرى يناير ومارس كانا بصفة دائمة فوق المتوسط خلال السنوات المذكورة وأن شهر ديسمبر كان فوق المتوسط في ١٦ سنة من السنوات العشرين المدروسة وأن شهرى يونيه وسبتمبر قد كان كل منهما دون المتوسط في ٩٥ من الحالات ، ووجد صلة ملموسة بين الزيجات والمواليد ، وعلل إرتفاع نسبة الزواج في

شهور نوفمبر وديسمبر ويناير من كل سنة بموسم بيع الفلاحين للقطن^(١) .
وقد وصل الدكتور عزة النص إلى النتائج ذاتها من دراسة آخر
الاحصاءات التي تهأت له عن التوزيع الشهري للزيجات والمواليد في الاقليم
المصرى ، وهي تتعلق بالسنتين ١٩٤٨ و ١٩٤٩ ويتضح منها التقارب
الملبوس في مواقيت الزواج والولادة^(٢) :

أشهر الحد الأعلى بالترتيب			
١٩٤٩		١٩٤٨	
ولادة	زواج	ولادة	زواج
ديسمبر	ديسمبر	يناير	ديسمبر
يناير	نوفمبر	ديسمبر	أكتوبر
أغسطس	يناير	مارس	يناير
أشهر الحد الأدنى بالترتيب			
يوليه	يولية	مايو	يوليه
مايو	سبتمبر	سبتمبر	سبتمبر
سبتمبر	مايو	يوليه	أبريل

(١) عبد الحميد الدالى العناصر الحيوية لمشكلة السكان في مصر ص : ٣٠٥ — ٣٠٨

(٢) عزة النص أحوال السكان في العالم العربي ص : ٢٠٦

الخصوبة

لإيجاد معدل الخصوبة ^(١) تتبع الخطوات الآتية :

١ - إيجاد معدل المواليد الأحياء خلال السنة المطلوبة الوقوف على معدل الخصوبة بها .

٢ - عدد النساء اللاتي في سن الحمل (من ١٦ - ٥٠ سنة) سواء متزوجات أو غير متزوجات .

$$٣ - \text{معدل الخصوبة} = \frac{\text{عدد المواليد الأحياء خلال السنة}}{\text{عدد النساء اللاتي في سن الحمل}} \times ١٠٠٠$$

ورقم النقص الملحوظ في حصر الزيجات والأولاد بالنسبة للأقليم الشمالى إلا أن الإحصاءات المنهية عن الجمهورية العربية المتحدة عموماً تمكننا من اتخاذ فكرة قريبة من الواقع عن قوة الأخصاب لديها بالقياس إلى غيرها .

نسبة المواليد إلى الزيجات	عدد عقود الزواج	عدد المواليد الأحياء	
٢,٦	٣١٣,٠٠٠	٨٣٠,٠٠٠	فرنسا (١٩٥٢)
			الولايات المتحدة
٢,٤	١,٥٦٢,٥٧٩	٣,٨٢٤,٠٠٠	(١٩٥٢)
			الإقليم الجنوبي
٣,٧	٢٥٦,٥٢٦	٨٣٤,٠٠٠	(١٩٥١)
٣,٥	٢٥,٤٨٣	٨٩,٠٠٠	الأقليم الشمالى (١٩٥٣)

(١) يختلف معدل التوالد من معدل المواليد عن معدل الخصوبة . ولإيجاد معدل المواليد يقسم عدد المواليد الأحياء خلال سنة على عدد السيدات المتزوجات في سن الحمل مضروباً في ألف .

$$= \frac{\text{عدد المواليد الأحياء خلال السنة}}{\text{عدد السيدات المتزوجات في سن الحمل}} \times ١٠٠٠$$

هذا وقد عني كثير من علماء الديموجرافيا المعاصرين بصفة الخصوبة بالمهنة وقد لوحظ بصفة عامة أن عدد الأولاد قليل نسبياً بين الموظفين ، وكثير بين المزارعين لأن الموظفين يعتبرون الأولاد عبئاً ينوءون بتكاليفهم ، أما الفلاحون فيرون في الذرية بدأ عاملة تساعد في تنمية مواردهم . كما أن المقرر بصفة عامة أيضاً أن الخصوبة . في أغلب الظروف تتناسب تناسباً عكسياً مع الحالة الإقتصادية للأسرة وتؤكد أبحاث كل من طومسون Thompson ، ومارشال Marshal وفوتشتين Notestein أن نسبة المواليد تهبط عادة بين الميسورين من السكان ، بينما تزداد هذه النسبة شيئاً فشيئاً كلما انخفض الدخل الفردي . . .

وغنى عن البيان أن هناك اختلافات في متوسط الدخل الفردي بين الدول المتقدمة والدول المتخلفة ، بناء على الإحصاءات الرسمية لهيئة الأمم المتحدة . فلا بد وأن يكون هناك اختلاف مماثل في معدلات المواليد بين الدول تبعاً لمتوسطات الدخل القومي لكل منها .

والإحصاءات الحالية الخاصة بالجمهورية العربية المتحدة بإقليمها لا تسمح في الغالب بإيجاد نسب دقيقة لمعدلات الخصوبة في كل مهنة من المهن أو في كل طبقة من الطبقات الإقتصادية ، إلا أننا نستطيع أن نقول أنه حينما نكون بصدد دراسة الخصوبة في الريف فسنجد - في الغالب - أنها تفوق الخصوبة في المدن ، وأنه حينما قننا بدراسة

== ومعدل التوالد يعني درجة التناسل عند النساء وهو قريب الشبه من درجة الخصوبة ولهذا يدخل الباحث في اعتباره عدد النساء فقط في حين أن معدل المواليد يعني درجة ظهور أفراد جدد في المجتمع ولهذا لا يمكن الاكتفاء بعدد النساء حسب بل يدخل في الاعتبار العدد الكلي للسكان عند حساب معدل المواليد .

$$\text{معدل المواليد} = \frac{\text{عدد المواليد الأحياء خلال السنة}}{\text{عدد السكان في منتصف السنة}} \times 1000$$

الخصوبة في الطبقات الإقتصادية نجد أن الخصوبة - في الجمهورية العوبية المتحدة - يقل معدها كلما ارتفع الفرد في السلم الإقتصادى ، ويزيد هذا المعدل كلما قل الدخل أو هبط المستوى الفردى في السلم الإقتصادى . وليس العامل الإقتصادى في حد ذاته هو الذى يؤثر في تفاوت معدلات الخصوبة بصفة مباشرة ، كما أنه ليس لهذا العامل أى تأثير على النواحي البيولوجية ، ولكن أثر العامل الإقتصادى يمكن فى الآثار غير المباشرة له من حيث أنه يقترن فى الغالب فى مجتمعتنا الحديث بطراز معين من التربيته والثقافة وأساليب الحياة . بدليل أن هذا العامل الإقتصادى نفسه كان فى بعض عصور التاريخ بالنسبة لأشكال إجتماعيه معينه ، سببا من أسباب ارتفاع معدل الخصوبة بين الطبقات الغنية .

ونستطيع أن نقرر فى ضوء ما تقدم أنه من المتوقع أن يجد الباحث ارتفاعاً عاماً للخصوبة بين سكان الجمهورية العربية المتحدة وذلك لتوافر العاملين اللذين دلت الإبحاث فى البلاد الأوربيه وأمريكا على أنها يسببان ارتفاع معدل الخصوبة . ونقصد بهما سيادة الزراعة ، وانخفاض الدخل الفردى ، فالأغلبية العظمى ، من سكان الجمهورية العربية يسكنون الريف ويشغلون بالزراعة . كما أن عدد الأفراد الذين يكونون الطبقات الدنيا يفوقون بمراحل عدد أولئك الذين يكونون الطبقات الإقتصاديه ذات الدخل المرتفعه .

Warren Thompson * Population Problems P . 166 .

Alfred Marshal . Principles of Economics P . 185 .

ثانياً

المعدل العام للوفيات

يقاس معدل الوفيات Death rate بنسبة المتوفين في السنة إلى كل ألف من السكان . ويمكن حساب المعدل ذاته بالنسبة إلى كل من الذكور والإناث منفصلين .

ويلاحظ أن الوفيات تختلف من فصل لآخر في السنة ، فوفيات الشيوخ تزداد في موسم البرد وموت الأطفال يشتد في فصل الصيف ^(١) .
ويلاحظ أيضاً أن الشعوب الراقية التي أخذت بالأساليب الطبية الحديثة تقل فيها نسبة الوفيات عن الشعوب المتخلفة - وهذه نتيجة منطقية وتختلف النسبة أحياناً من ١ : ٤ ، ففي عام ١٩٥٣ كان معدل الوفيات المسجلة برومانيا ٣٣,٥ في الألف بينما لم يزد هذا المعدل في هولندا ص ٧,٧ في الألف وطبعاً أن الحروب ترفع من معدل الوفيات فالحرب العالمية الأولى قضت على ١٢,٥ مليون من الأوربيين وحدهم وأهلكت الحرب العالمية الثانية من المدنيين والعسكريين في أوروبا وحدها زهاء ٣٥ مليون نسمة منهم ١٧ مليوناً في الإتحاد السوفيتي وحده .

ويذكر العلامة سوفي Saavy أن الوفيات أشد في المدن الصناعية في الدول الغربية ، عنها في أرياف هذه الدول . وأن الوفيات في بعض الحرف أكثر من غيرها (العمال في المناجم مثلاً) . وقد لوحظ أيضاً أن الوفيات بين الرجال أكثر من النساء وبين المتزوجين أكثر منها بين العزاب ، ولأنها بين الفقراء أكثر منها بين الأغنياء .

(١) عزة النص : أحوال السكان في العالم العربي ص ٢٢٢ .

وكذلك فإن بعض الأمراض المستعصية أو الأوبئة الفتاكة يزداد أثرها في الوفيات عن غيرها^(١).

والملاحظ بصفة عامة فيما يتعلق بالأقليم الشمالي، أن إحصائيات الوفيات تنقصها الدقة، إلى الحد الذي جعل بعض علماء الديموجرافيا العرب، يتشككون في مطابقتها للواقع لأن جداول، توزيع الوفيات على المحافظات تشير إلى أن حالات الوفيات تكثر رسمياً حيث يتوافر الأطباء وحيث توجد دوائر صحية للتبليغ عنها وتسجيلها وقد قدر الأستاذ فيشر Fisher معدل الوفيات في الاقليم الشمالي بحوالى ٣٤ فى الألف رغم أن الوفيات المسجلة رسمياً في مكاتب الصحة تقل عن هذا التقدير. كما يقدر العلامة ويلرس Wuelersse معدل الوفيات في الريف السورى بحوالى ٢٧ لكل ألف وهو تقدير يقارب المعدل العام الذى يتضح من إحصاءات وزارة الصحة فى الاقليم الشمالى ونظراً لافتقارنا إلى البيانات التفصيلية الدقيقة فيما يتعلق بهذه الناحية الديموجرافية عن الاقليم السورى، فإننا نكتفى بهذا القدر.

أما فى الاقليم الجنوبى: فالاحصاءات تبدو متوفرة إلى حد كبير وهى تشير إلى علو فى معدل الوفيات بالنسبة لدول العالم الأخرى. ورغم أن أرقام الوفيات منذ سنة ١٩١٧ حتى ١٩٥١ لا تدل على اتجاه ثابت مستمر، فهى تكشف على كل حال أن معدل الوفيات لم ينقص عن ٢٠ فى الألف إلا منذ سنة ١٩٥٠ والجدول التالى يوضح هذه الملاحظة.

(١) A. Sauvy : La Population , P. 72 .

يرجع إلى كتاب الدكتور عزرة النمس أحوال سكان العالم العربى ، لتفنيذ الاحصائيات المتعلقة بالأقليم الشمالى .

Fisher; The Middle East P. 248 .

The Annual Statistics , United Nations 1954 P. 40—43

J Weuleresse : Paysans de Syrie, P. 243

الاقليم الجنوبي : نسبة الوفيات إلى ١٠٠٠ من السكان

السنة	النسبة	السنة	النسبة
١٩١٧	٢٩,٤	١٩٥٠	١٩,١
١٩٢٧	٢٥,٢	١٩٥١	١٩,٣
١٩٣٧	٢٩,١	١٩٥٢	١٨,٠
١٩٤٧	٢١,٥	١٩٥٣	٢٠,٠
١٩٤٨	٢٠,٤	١٩٥٤	١٨,٠
١٩٤٩	٢٠,٦	١٩٥٥	١٨,٠

وليس هناك ما يبرر افتراض وجود دورة للوفيات منتظمة تتكرر كل سنتين أو ثلاثة فالفروق بين الحد الأعلى والحد الأدنى قد تكون ناجمة عن عمليات التسجيل أو عن ظروف إقتصادية طارئة أو بعض الأوبئة ، ومن ثم تزيد أو تنقص نسب الوفاة وفقا لأحد هذه العوامل أو بعضها .

وقد لوحظ في الاحصاءات المتتالية أن المسلمين يموتون بمعدل أكبر منه عند المسيحيين واليهود ، فقد كان هذا المعدل بالنسبة للمسلمين عام ١٩٤٩ ٢١,١ وبالنسبة للمسيحيين ١٥,٢ وبالنسبة ١١ في الألف .

ولا شك أن معدل الوفيات في الريف أعلى منه في المدن وذلك لضعف الرعاية الصحية في الريف ، كما أن الاحصاءات تفيد بأن معدل الوفيات بين الذكور أكثر منها بين الاناث على نحو ما يظهر من البيان الآتي :

معدل الوفيات في الألف من كل نوع :

أناث	ذكور	(١)
٥,٧	٨,٤	الأقليم الشمالى : ١٩٥١
٥,٦	٧,٧	١٩٥٢
٥,٨	٧,٧	١٩٥٣
١٨,٠	٢٠,٠	الأقليم الجنوبى : ١٩٥٠
١٨	٢١	١٩٥١
١٨	١٩	١٩٥٢
١٩	٢٠	١٩٥٣
١٧	١٨	١٩٥٤
١٧	١٨	١٩٥٥

وتبين الإحصائية الآتية أمل الحياة في الأقليم الجنوبى وفقا للتحليل الإحصائى سنة ١٩٤٧

إقليم مصر ١٦٤٧			الفئات
مجموع	أناث	ذكور	
٢١,٥	١٩,٦	٢٣,٥	جميع الأعمار
٢٠٧,٤	١٩٧,٣	٢١٩,٢	قل من سنة
٤٩,٧	٤٧,٢	٥٢,٣	من ١ — ٤
٥,٣	٤,٧	٥,٩	من ٥ — ٩
٤,٣	٣,٥	٥	من ١٠ — ١٤
٤,٣	٣,٥	٢,٥	من ١٥ — ١٩

أن أمل الحياة في مصر للمواليد الذكور هو ٣٥,٦٥ سنة وللأناث ٤١,٤٨ وبما أن الوفيات تكون كثيرة قبل السنة الأولى من العمر فإن الذين

يباغونها أو يجتازونها لهم أمل أكبر في البقاء، ولذلك فإن أمل الحياة لمن هم في السنة الأولى من العمر في مصر هو ٤٢,٠٩ للذكور و ٤٨,٤١ للإناث.

معدل الوفيات وفئات السن :

وتختلف نسبة الوفيات أيضاً باختلاف الأعمار .

وفيما يلي جدول يوضح نسب الوفيات حسب فئات السن في الإقليم

الجنوبي من سنة ١٩٥١ إلى سنة ١٩٥٥ :

النسبة في الآلاف من عدد السكان التقديرى					فئات السن
١٩٥١	١٩٥٢	١٩٥٣	١٩٥٤	١٩٥٥	
١٢٨,٧	١٢٧,١	٤٥,٨	١٣٧,٩	١٣٦	أقل من سنة
٥٢,٤	٤٤,٢	٥٦,١	٤٤,٥	٤٥,١	من ١ إلى أقل من ٥
٢,٦	٣,١	٣,٣	٣	٣	من ٥ إلى أقل من ١٠
٢,٤	٢,١	٢	١,٩	٢	من ١٠ إلى أقل من ١٥
٢,٤	٢,٢	٢,٠	١,٩	١,٩	من ١٥ إلى أقل من ٢٠
٣,٧	٣,٤	٣,١	٢,٩	٢,٩	من ٢٠ إلى أقل من ٣٠
٥,١	٤,٦	٤,٣	٤,٣	٤,٣	من ٣٠ إلى أقل من ٤٠
٦,٧	٦,١	٥,٨	٥,٩	٥,٩	من ٤٠ إلى أقل من ٥٠
١١,٧	١١,٦	١١	١٠,٨	١١	من ٥٠ إلى أقل من ٦٠
٢٣,٥	٢٢,٦	٢٢,٩	٢٣	٢٣,٣	من ٦٠ إلى أقل من ٧٠
٦٣,٧	٦٠,٤	٦١,٣	٦١,٥	٦٢,٤	من ٧٠ إلى أقل من ٨٠
١٧٨,٧	١٦٤	٢٠,٩	٢١٨,٢	٢٢١,٢	من ٨٠ إلى أقل من ٩٠
٢٧١,٩	٢٤٧,٨				٩٠ سنة فأكثر

ومن هذا يتضح أن نسبة الوفيات تكون شديدة عند الأطفال دون السنة وعند الشيوخ الذين تجاوزوا السبعين وتقل الوفيات بعد السنة الأولى حتى تصل إلى حدها الأدنى في سن ١٠ - ١٥ ثم تأخذ في الزايد البطيء حتى الخمسين ثم ترتفع باضطراب حتى نهاية العمر وفي جميع مراحل الحياة تظل وفيات النساء أقل من وفيات الرجال .

أسباب علو نسب الوفيات :

نما تقدم ندرك ما عليه معدل الوفيات في الجمهورية العربية المتحدة بإقليمها من ارتفاع يفوق مثيله في كثير من دول العالم المتقدمه وقد توفر عدد كبير من الباحثين والعلماء العرب على دراسة أسباب ارتفاع هذا المعدل وخلصوا من هذه الدراسات إلى أن العوامل التي تساهم بأكبر قدر في رفع معدل الوفيات تتلخص فيما يلي .

١ - سوء التغذية :

يعانى السوداء الأعظم من سكان الجمهورية المتحدة من سوء وانخفاض مستوى التغذية ، ولقد عرض لهذا الموضوع كثير من الإجماعين والإقتصاديين والمهتمون بشئون التغذية ، ولا داعي للدخول في تفصيل مظاهر سوء التغذية بين أغلبية السكان وخاصة في الريف ولعل أهم أسباب سوء التغذية هو هبوط الدخل الفردى إلى مستوى لا يمكن - في معظم الأحيان - من شراء الضرورى من الطعام الذى يكفل للفرد صحة جيدة وكيافاً سليماً . وكان نتيجة ذلك ظهور أمراض سوء التغذية كالبلاجرا والبربرى وغيرها . والواقع أن هناك علاقة وثيقة بين نقص التغذية وارتفاع معدل الوفيات فنقص التغذية فضلاً عن أثره المباشر

في الكثير من الأمراض إلا أنه يضعف الجسم عامة وبالتالي يزيد من تعرضه لأمراض أخرى فتأكله تؤدي به إلى الموت ، ثم أن ضعف الجسم - الناتج عن سوء التغذية - يضعف إنتاجية الفرد وبالتالي دخله من العمل ، وغنى عن البيان أن الدخل هو الذي يكيف مستوى حياة الأفراد الصحية والثقافية .

٢ - مشكلة الإسكان :

من المظاهر المتأصلة عندنا - وخاصة في الإقليم الجنوبي - مشكلة السكن . فالسكن له تأثير كبير في علو أو انخفاض نسب الوفيات ، فالمسكن الصحي يهبط بمعدل الوفيات بعكس المسكن غير الصحي . وحالة المساكن في الإقليم الجنوبي غير ملائمة في جملتها من الناحية الصحية وخصوصاً المساكن الفردية ومساكن الطبقة العمالية الفقيرة في المدن . ويمكن الجدير بالذكر إلى جانب ذلك هو كثافة السكن أو درجة التزاحم أى متوسط عدد الأفراد الذين يعيشون في السكن الواحد وما يخص كل فرقة من عدد الأفراد فقد أثبت الأستاذ S . Far في منتصف القرن التاسع عشر بمعادلات رياضية العلاقة بين كثافة المسكن ومعدل الوفيات . كما أن الدكتور ماك جونجل في كتابه « الفقر والصحة العامة » سنة ١٩٢٩ . بين هذا موضح عندما ذكر تجربته التي أجراها على ٧١٠ من سكان الأحياء الفقيرة المكتظة بالسكان في لندن . فقد دلت التجربة أن معدل الوفيات بينهم قد هبط بعد أن تم نقل السكان إلى أحياء صحية جديدة بمقدار ٤٦ ٪ عما كان عليه في السنوات القليلة السابقة . (١)

والإحصاءات التي تمت في الإقليم الجنوبي بخصوص كثافة السكن تدل

(١) صلاح الدين نامق : مشكلة السكان في مصر ص ٢٨ ، ٢٩ .

على الكثافة الشديدة في المسكن المصري لدى طبقة الفلاحين في القرى والعمال في المدن وكذلك الطبقة المتوسطة فقد كان يخص كل فرقة من الأشخاص اثنين في قرى مديرية البحيرة مثلاً في (إحصاء سنة ١٩٤٧) وتراوح ما يخص الغرفة في مدن محافظة القنال في نفس الإحصاء بين اثنين وثلاثة أشخاص ، وهذا ولا شك له تأثير كبير في ارتفاع معدل الوفيات بوجه عام .

٣ — انتشار الأمراض المتوطنة :

تقدر الدوائر الصحية في الإقليم الشمالى أن ٣٠٪ من السكان مصابون بالمرض الحبيبي أو التراخوما ، وتصل هذه النسبة إلى ٧٠٪ في بعض المحافظات كالجزيرة والفرات . كما تنتشر الملاريا على نطاق واسع في جميع الأرياف السورية وخاصة الجهات القريبة من أنهار الفرات والخابور والعاص وفي فوطه ردمشق . ومن الأمراض الشائعة في سورية كذلك الدوسنتاريا وتنتشر بين سكان منطقة الفرات مرض آخر هو مرض (البجل) المنتشر أيضاً بين قبائل العراق المجاورة .^(١)

وفي الإقليم الجنوبي نجد أن الأمراض المتوطنة هي البلهارسيا والانكلستوما والرمم بأنواعه . . . وهذه الأمراض - لاريب - سبب هام في ارتفاع معدل الوفيات . وقد استفحل أمر البلهارسيا والانكلستوما في السنوات الأخيرة لا سيما في مصر السفلى . وهذان المرضان لا يبرزان كسبب مباشر من أسباب الوفيات ، ولكنهما مع ذلك عامل خفي في ارتفاع معدل الوفيات لأنهما يضعفان الجسم ويفقدانه المناعة والقدرة فتتركانه فريسة للأمراض الطارئة التي تقضى على المريض .

(١) عزة النمس : أحوال السكان في العالم العربي ص ٢٧١ .

٤ - وفيات الاطفال الرضع :

لا شك أن ارتفاع معدل وفيات الاطفال الرضع في الجمهورية العربية المتحدة - بإقليمها - يساهم بأكبر نصيب في رفع المعدل العام للوفيات (في جميع فئات الأعمار) . فقد عرفنا أن معدل وفيات الاطفال في الجمهورية العربية المتحدة يقدر بحوال ١٤٠ في الألف ، وهذا معدل مرتفع إذا قارناه بمعدل الوفيات في أى فئة أخرى من فئات الأعمار فمعدل الوفيات في فئة العمر من ٥ - ١٠ حوالى ٣ في الألف وفي فئة العمر ١٠ - ١٥ هو ٢ في الألف فقط وفي الفئة من ١٥ إلى ٢٠ حوالى ٢ في الألف وفي الفئة من ٢٠ إلى ٣٠ حوالى ٣ في الألف ويرجع السبب الحقيقي في إنخفاض معدلات الوفيات في دول العالم المتقدمة إلى الإنخفاض الذى إستطاعت أن تحققه هذه الدول في معدلات وفيات الاطفال الرضع ويعزى السبب في ارتفاع معدل وفيات الاطفال في الجمهورية العربية المتحدة إلى أسباب إجتماعية من طبيعة إقتصادية وصحية . وقد يكون السبب هو ما يتعلق بإنخفاض الدخل ومستوى المعيشة وما ينجم عن ذلك من سوء تغذية ، وسوء الجو الصحى ، فضلا عن عدم الأخذ بوسائل الرعاية الصحية في المستويات الأمية والفقيرة .

تلخيص وتذييل

تبين لنا من البيانات والتحليلات السابقة حقائق عديدة عن سكان الجمهورية العربية المتحدة وفي مقدمة هذه الحقائق حقيقتان هما في هذا المجال .

الأولى : إن شعب الجمهورية العربية المتحدة مفرط في خصوبته ومواليده .

الثانية : أن شعب الجمهورية العربية المتحدة مفرط أيضاً في وفياته .

فمعدل المواليد يبلغ حوالى ٤٥ فى الألف، ومعدل الوفيات يبلغ حوالى ٢٠ فى الألف بذلك يكون متوسط الزيادة الطبيعية للسكان حوالى ٢٥ فى الألف ، أى أن سكان الجمهورية العربية يزيدون سنوياً حوالى نصف مليون شخص نتيجة التوالد . وهذا الزايد لاشك سيكون عظيم الأثر فى دعم السكان العربى وتحقيق إنطلاقه وتحرره بشرط أن ترافقه جهود مضاعفة لتنمية الموارد الإقتصادية ورفع مستوى المعيشة وإقامة العدالة الإجتماعية . وهذه الزيادة الطبيعية لسكان الجمهورية العربية يعتبر معدداً من أعلى المعدلات بين سكان دول العالم . ويتضح ذلك جلياً من المقارنة التالية .

الدولة	معدل التكاثر الطبيعى
فنزويلا	٣٦
المكسيك	٢٩
الجمهورية العربية المتحدة	٢٥
اليابان	١٣
أسبانيا	١١
فرنسا	٦
بريطانيا	٥

غير أن هذه الزيادة ليست واحدة فى جميع أجزاء الجمهورية العربية المتحدة فى الإقليم الشمالى مثلاً يلاحظ أن سكان المدن يزيدون بمعدل .. يفوق معدل الزيادة فى الريف السورى ، فمعدل الزيادة فى مدن الإقليم الشمالى وخاصة فى حلب ودمشق يبلغ حوالى ١٨,٧ ٪ وهذا المعدل يبلغ أضعاف معدل الزيادة فى الريف السورى .

هذا وقد تطورت نسبة سكان المدن في الإقليم الشمالى إلى مجموع السكان على النحو التالى :

عام ١٩٤٧ : ٣١.٢٪

عام ١٩٥٢ : ٣٧٪

وهكذا يتضح جليا أن معدل النمو فى المدن أعلى منه فى القرى ، وذلك أن المدن تجتذب باستمرار مهاجرين من الريف فتعمل هذه الهجرة المستمرة على زيادة معدل نمو السكان فى المدن وخفضها فى القرى .

وهذه الحقيقة الديموجرافية تصدق أيضاً على سكان الإقليم الجنوبى .

والجدول التالى يبين إختلاف نمو السكان فى مدن وقرى الإقليم الجنوبى فى الفترة الواقعة بين تعدادى سنة ١٩٣٧ وسنة ١٩٤٧ :

السنة	عدد السكان الفردى بالآلاف	عدد السكان المدن بالآلاف	المجموع بالآلاف
١٩٣٧	١١٢٨٣٠	٣٢٩٧٩	١٥٢٨٠٩
١٩٤٧	١٣٢٠٩٨	٥٢٧١٨	١٨٢٨١٦
النسبة المئوية للزيادة فى عشر سنوات	٧ ١٠.٢٪	٧ ٤٣.٢٪	١٩.١٪

الفصل الثاني عشر

المستوى الاجتماعي لسكان الجمهورية العربية المتحدة

مقدمة تمهيدية :

نقصد بالمستوى الاجتماعي العام في أى مجتمع من المجتمعات متوسط أو محصلة ما يستهلكه ويتمتع به الفرد تحقيقاً لحاجاته المتنوعة من المأكل والملبس وما يسبغ عليه من آيات الصحة والعافية ويقيه الفاقة والمرض وما يغذى عقله وتفكيره وما يمكنه من العمل المنتج وما يتمتع مشاعره وما يجعله قادراً على المشاركة الفعالة في حياة مجتمعه بل وفي حياة الإنسانية كافة . وقد حاول بعض رجال الاقتصاد الوصول إلى معيار رقمي واحد يستدل منه على المستوى الاجتماعي ومستوى المعيشة فاقترح Hauser أن يقدر على أساس .

متوسط عمر الفرد × متوسط استهلاك الفرد في السنة

متوسط عدد أيام العمل

كما حاول غيره أن يجعل الأجور مقياساً لرفاهية المجتمع عن طريق معرفة :
مجموع المدفوع من الأجور في أسبوع أو شهر معين

عدد من يعولون × مقدار التكاليف للفرد في الأسبوع أو الشهر

ولكننا نفضل الوصول في ضوء مختلف الدلالات الاجتماعية إلى مستوى المعيشة في جوانبها المتعددة دون محاولة لقسرها في صورة رقمية واحدة^(١) وذلك تمشياً مع طبيعة دراستنا الديمقراطية الاجتماعية وتميزاً لها عن الدراسة والاقتصادية البحتة .

فعند البحث في المستوى الاجتماعي العام ومقوماته بالنسبة لسكان

(١) حامد عمار : بعض مفاهيم علم الاجتماع ص ٨٩ ، ٩٠ ، ٩١ .

أى مجتمع أن نذكر دائماً أن مطالب الإنسان وحاجاته لا تقتصر على الأمور العادية فحسب من مأكل ومشروب ومسكن ، وإنما لابد أن ندرج في مفهومنا لمستوى المعيشة الحاجات المعنوية والاجتماعية . حقيقة أن توفر الحاجات المادية أمر لابد منه للبقاء على الأقل . ولكن معاني الحياة الإنسانية لا تقف عند هذا الحد بل أنها تشمل قيماً ، لا تقل في أهميتها عن مجرد البقاء كالترحرر من الخوف وإقرار العدالة الاجتماعية والمشاركة في تنظيم نوع الحياة التي يريدها الأفراد . ويجب أن نعرف إلى جانب ذلك أن المعيار الإقتصادي بأكمله ما هو إلا معيار واحد من معايير المستوى الاجتماعي العام فالرفاهية الإقتصادية *Economic Welfare* هي ذلك الجزء من الرفاهية العامة الذي يمكن قياسه كمياً بمقياس النقود . وقد تنحقق الرفاهية الإقتصادية للمجتمع على حساب حريات معينة . يضحى بها الأفراد في سبيل زيادة الإنتاج ورفع مستوى الكفاية الإنتاجية . وقد ينطوى ذلك على زيادة في الرفاهية العامة *Total Welfare* وارتفاع في مستوى المعيشة أو قد ينطوى على مجرد الحرمان من الحرية الشخصية في سبيل الرفاهية الجماعية كما أنه لابد وأن نضع في الاعتبار أثر العوامل الحضارية في تقديرنا للمستويات الاجتماعية في الدراسات الديموجرافية على أن أهم ما ينبغي تقريره بهذا الصدد هو ضرورة إتفاق العلماء على إتخاذ معايير *Norms* أو مقاييس ثابتة *Criteria* يمكن بواسطتها الحكم على المستوى العام لأي شعب من الشعوب .

ويمكن تلخيص أهم المعايير التي تلقى الضوء على المستوى الاجتماعي للسكان ، في الإعتبارات الآتية :

١ - متوسط دخل الفرد .

(١) الدكتور نؤاد شريف : إقتصاديات المنافع العامة . الإسكندرية ١٩٥٦ ص ١٧ .

٢ — علاقة نمو السكان بزيادة مصادر الإنتاج .

٣ — الحالة الصحية .

٤ — الحالة الغذائية .

٥ — الحالة الثقافية .

٦ — نصيب الفرد من الخدمات ووسائل الرفاهية الاجتماعية .

أولاً: متوسط دخل الفرد :

يعتبر تقدير متوسط دخل الفرد معياراً هاماً من معايير المستوى الاجتماعي العام . إذ أن حجم الدخل الفردي يؤثر في قدرة الفرد على الاستهلاك . ويحسب متوسط دخل الفرد عن طريق قسمة الدخل القومي العام على عدد السكان في سنة ما .

وقد وضع المجلس الاقتصادي والاجتماعي للأمم المتحدة تقسيماً للدول على أساس متوسط الدخل الفردي في السنة على النحو التالي :

١ — دول متخلفة إقتصادياً حيث يكون متوسط دخل الفرد في السنة ١٥٠ دولار فأقل أي ما يوازي ٦٠ جنهما مصرياً .

٢ — دول متوسطة إقتصادياً حيث يكون متوسط دخل الفرد في السنة من ١٥٠ إلى ٤٥٠ دولاراً .

٣ — دول متقدمة إقتصادياً حيث يكون متوسط دخل الفرد في السنة من ٤٥٠ دولاراً فما فوق .

في الجمهورية العربية المتحدة :

نجد أنه في الإقليم الشمالي يصل متوسط الدخل الفردي في السنة إلى حوالي ٥٥٠ ليرة سورية أي حوالي ٦٠ جنهما مصرياً وهذا المبلغ يوازي

١٥٠ دولار ومعنى ذلك أن الدخل الفردى فى الإقليم الشمالى ، يقف على الخط الذى يفصل بين فئة الدول المتخلفة والدول المتوسطة اقتصاديا وكان ذلك سنة ١٩٥٧ (عدد السكان حوالى ٤ مليون نسمة) والدخل القومى فى هذه السنة ١٩٥٧ - ٢٢٨٥ مليون ليرة سورية ، ولا توجد إحصاءات دقيقة عن المكان والدخل القومى فيما بعد سنة ١٩٥٧ تمكنا من معرفة الدخل الفردى ، ولكن يحتمل جدا أن يكون الإقليم الشمالى فى خلال هذين السنتين قد تعدى الخط الفاصل بين المستوى المتخلف والمستوى المتوسط اقتصاديا وخاصة بعد الوحدة وما تبعها من مشاريع اقتصادية ضخمة فى مجال الصناعة والتجارة والزراعة ومشروعات الخدمات العامة .

وفى الإقليم الجنوبى نجد أن متوسط الدخل القومى قد بلغ فى سنة ١٩٥٧ حوالى ٩٣١٣٧١ مليون جنيه وكان عدد السكان فى نفس السنة حوالى ٢٣٢٤٥ مليوناً من الأنفس وبذلك يكون متوسط الدخل الفردى فى السنة حوالى ٤٠ جنيها وهذا المبلغ يوازى حوالى ١١٥ دولارا ، فإذا طبقنا المعيار الخاص بمستويات التقدم والتخلف الاقتصادى لوجدنا أن الإقليم الجنوبى مازال فى عداد الدول المتخلفة اقتصاديا رغم الخطوات الجبارة التى تخطوها البلاد فى ميدان التصنيع والإصلاح الزراعى وينتظر أن يزيد الدخل القومى فى إحصاءات سنة ١٩٥٩ حوالى ١٠٠ مليون جنيه نتيجة إتمام أغلب مشروع السنوات الخمس الأول ، والحصول على دخل قناة السويس وزيادة هذا الدخل نتيجة ازدياد حركة المرور عبر القناة .

ويقدر الخبراء الاقتصاديون أن الدخل القومى فى الإقليم الجنوبى سيصل إلى حوالى ٢٠٠٠ مليون دولار بعد عشر سنوات (ينتهى فى خلالها مشروع السنوات الخمس الثانى ، عند ما تم المرحلة الأولى من بناء السد العالى) كما يقدر عدد السكان فى الإقليم الجنوبى بعد عشرات السنوات بحوالى ٣٠ مليون

نسمة، وبذلك ينتظر أن يصل الدخل الفردي في سنة ١٩٧٠ إلى حوالي ٦٦ جنيه أى ما يساوى ١٧٠ دولاراً، وبذلك يدخل الإقليم الجنوبي في عداد الدول المتوسطة اقتصادياً .

وقد قسم مؤتمر السكان العالمى الدول إلى أقسام ثلاثة من ناحية الدخل على أساس مدى اشتغال سكانها بالزراعة وذلك على النحو التالى .

١ — دول متخلفة إقتصادياً وفيها يشتغل ٦٠ ٪ فأكثر من السكان بالزراعة .

٢ — دول شبه متقدمة إقتصادياً وفيها يشتغل السكان ما بين ٣٥ و ٥٩ ٪ من السكان بالزراعة .

٣ — دول متقدمة وفيها يشتغل أقل من ٣٥ ٪ من السكان بالزراعة .

وبالنسبة للجمهورية العربية المتحدة :

نلاحظ أنه لم يعمل فى الأقليم الشمالى حصر للسكان حسب منهم المختلفة اللهم إلا احصاء قديم نسبياً قامت به وزارة الزراعة السورية عام ١٩٤٦ يبين عدد العمال الزراعيين فى سوريا (ذكور و أناث) من سنة ١٩٣٧ إلى سنة ١٩٤٦ على نحو ما هو مبين فى الجدول الآتى :

السنة	عدد العمال الزراعيين في سوريا		
	ذكور	إناث	المجموع
١٩٣٧	٣٠٨,٠٠٠	٤٧٠,٥١٠	٧٧٨,٥١٠
١٩٣٨	٣٠٨,٠٠٠	٤٧٠,٥١٠	٧٧٨,٥١٠
١٩٣٩	٥٠٥,٦٠٠	٢٩٧,١٠٠	٨٠٢,٧٠٠
١٩٤٠	٥٠٣,٦٠٠	٢٩٦,١٠٠	٨٩٩,٧٠٠
١٩٤١	٢٨٢,٤٥٠	٧٦٥,٢٠٠	٦٤٥,٦٥٠
١٩٤٢	٣٨٣,٩٥٠	٢٦٤,٧٠٠	٦٤٨,٦٥٠
١٩٤٣	٣٨٩,٠٠٠	٢٤٨,٥٠٠	٦٣٧,٥٠٠
١٩٤٤	٤٨٤,٢٠٠	٣٥٨,١٠٠	٧٣٢,٣٠٠
١٩٤٥	٤٢٤,٥١٩	٣٧١,٠٥١	٦٩٥,٥٧٠
١٩٤٦	٤٥٢,٢١٦	٣٣٠,٥٥١	٦٨٢,٧٦٧

ويستنتج العلماء بعض العرب من إزدياد الإنتاج الصناعي في الإقليم الشمالي أن سورية أخذت تسير في طريق التصنيع بخطى واسعة ، ولكنها مع ذلك لا تزال في عداد البلاد الزراعية من حيث عدد مواطنيها المشتغلين بالزراعة . وبذكر الدكتور عزة النص تصنيفاً تقريباً للسكان في الإقليم السوري حسب مهنتهم يدل على أن السكان المشتغلين بالزراعة يبلغون حوالي ٦٨ ٪ من مجموع القوة العاملة .

أما في الإقليم الجنوبي فقد أجرى حصر لعدد العاملين فعلاً بالزراعة من الذكور والإناث ونشر التصنيف المبنى الصحيح - لأول مرة - لسكان مصر وفقاً لتعداد ١٩٤٧ في الإحصاء السنوي للجبب المطبوع عام ١٩٥٤ وهو المدرج فيما يلي :

المهنة	العدد بالآلاف		
	ذكور	أناث	إجمالي
الزراعة والصيد والقتل	٢,٦٥٦	٥٨٩	٤,٢٤٥
الصناعة واستثمار المناجم	٦٥٦	٥٧	٧٢٢
البناء والتشييد	١١٢	١	١١٣
النقل والمراسلات	٢٠١	٢	٢٠٣
التجارة	٥٤٥	٧٦	٦٢١
الإدارة العامة والخدمات الإجتماعية	٤٨٩	٢٦	٥١٥
الخدمات الشخصية	٢٦٧	١٢٥	٣٩٢
إجمالي	٥,٩٣٥	٨٧٦	٦,٨١١
صناعات غير منتجة وغير واضحة	١٢٣	٤٤٩	١,٤٧٢

ومن هذا الجدول يتضح أن نسبة المشتغلين بالزراعة يبلغ حوالي ٥٥,٨ ٪ من مجموع السكان العاملين وكانت هذه النسبة في سنة ١٩٤٧ هي ٦٢,٣ ٪ . وهذا يعني أن الإقليم الجنوبي قد خرج من المنطقة التي تضم الدول المتخلفة إقتصاديا حسب تقسيم المؤتمر الدولي للسكان .

وزيادة في توضيح هذا المعيار ، يجدر بنا أن نقارن نسبة الدخل القومي من الزراعة بالنسبة إلى الدخل القومي العام في سنتي ١٩٥٢ و ١٩٥٧ ، وأن نحري نفس المقارنة بالنسبة للصناعة وهذا ما يبينه الجدول التالي :

النسبة	١٩٥٧	النسبة	١٩٥٢	الدخل القومي الخاص
% ١٠٠	٩٣١,٢٧١,٠٠٠	% ١٠٠	٧٤٢,٢٥٩,٠٠٠	الدخل القومي كله
% ٢٢,٦	٢٠٤,٠٠٠,٠٠٠	% ٣٦,٣	٢٦٩,٠٠٠,٠٠٠	الدخل من الزراعة
% ١٣,٦	١٢٥,٦٨٧,٠٠٠	% ١٢,٩	٩٥,٥١٠,٠٠٠	الدخل من الصناعة

فبينما تتناقص نسبة الدخل من قطاع الزراعة ^(١) بالنسبة للدخل القومي القومي العام وأهم هذه القطاعات الصناعة والنقل (وهذا الأخير ينمو نمواً طبيعياً تبعاً لنمو الصناعة والتجارة) والتجارة والخدمات ^(٢) .

هذا ومن الاعتبارات الهامة في تقرير المستوى الاجتماعي العام معرفة نمو السكان والوقوف على علاقته بمصادر الإنتاج وأدواته . أن زيادة عدد السكان قد تؤدي أما إلى زيادة الإنتاج أو نقصه أو المحافظة على مستواه . فإذا كان هناك مجال واسع لاستغلال ثروات طبيعية كانت زيادة اليد العاملة عنصراً هاماً في زيادة الإنتاج وذلك على شرط أن يكون هناك موارد وإمكانات للاستثمار كافية لتمد القوة العاملة بنسبة متزايدة من معدات الإنتاج للفرد العامل وبذلك يرتفع مستوى معيشة الفرد حيث يزداد الطلب على السلع والخدمات وتزداد القدرة على الإدخار والاستثمار وهكذا دواليك .

كتاب الجيب : ١٩٥٩ (أخذت منه الإحصاءات الخاصة بالدخل ص : ٣٢ و ٤٢ .
 (٢) الفقرات السابقة كانت كلها خاصة بتطبيق المعيار الأول من المعايير التي تدل على الرفاهية العامة Total Welfare أو المستوى الاجتماعي العام وهذا المعيار الأول كان متوسط الدخل الفردي ويتبعه التصنيف المبنى للسكان على أساس أن دخل العامل الزراعى - وفق كل الحالات تقريباً في جميع الجهات - يقل عن دخل العامل الصناعى .

أما في الحالات التي تتوفر فيها الاستثمارات الكافية لمصادر الإنتاج ومعداته، تكون الزيادة في السكان عائقاً في رفع مستوى المعيشة، فكل زيادة في الإنتاج تمتص، أما في صيانة أدوات الإنتاج أو في الاستهلاك الفردي أو في الخدمات العامة كالعليم والصحة والمساكن وغيرها من الحاجات اللازمة للمحافظة على المستوى المعيشي القائم، وبهذه الطريقة لا تتوفر مدخرات واستثمارات يمكن بها زيادة مصادر الإنتاج ومعداته .

فلو تصورنا حسب افتراض بعض الاقتصاديين أن النسبة بين قيمة رأس المال وبين الدخل القومي هي نسبة خمسة إلى واحد، فإن زيادة عدد السكان بنسبة ١٪ في السنة تحتاج للمحافظة على المستوى الموجود فعلاً إلى استثمارات جديدة تقدر ما بين ٤٪ و ٥٪ من قيمة الدخل القومي وإذا كانت الزيادة السنوية في السكان ٣٠٪ احتاجت استثمارات جديدة للمحافظة على مستوى المعيشة القائم - تقدر ما بين ١٢٪ و ١٥٪ من الدخل القومي (١) . ونحن نعرف أن السكان في الجمهورية العربية المتحدة يتزايدون بمعدل ٢,٥٪ سنوياً ومعنى ذلك أنه يجب أن يزيد الدخل القومي حوالى ٨٪ سنوياً لقد كان الدخل القومي في الإقليم الشمالى سنة ١٩٥٢ حوالى ١٧٥,٥٠٠,٠٠٠ ليرة سورية وقد بلغ هذا الدخل في سنة ١٩٥٧ ٢٢٨,٥٠٠,٠٠٠ ليرة سورية أى بزيادة قدرها ٣٠٪ في أربع سنوات

والمفروض أن السكان قد زاد عددهم في هذه السنوات الأربع بنسبة ١٠٪ ولذلك كان المفروض أن ينمو الدخل بنسبة ٤٠٪ على الأقل في الأربع سنوات حتى يحافظ السكان على مستواهم الاقتصادي .

وفي الإقليم الجنوبي كان الدخل القومي سنة ١٩٥٢ حوالى ٧٤٢,٥٣٥,٩٠٠ جنيه مصرى وقد بلغ هذا الدخل سنة ١٩٥٧ حوالى ٧٤١,١٣٥,٠٠٠ جنيه مصرى أى بزيادة سنوية قدرها ٥٪ مع أن المفروض أن تكون هذه

(١) حامد عمار : بعض مفاهيم علم الاجتماع ص : ٧٢ .

النسبة - طبقا لما يراه خبراء الاقتصاد - ٨٪ أو ٩٪ على الأقل حتى تساير - الزيادة الانتاجية في عدد السكان .

ولكن المستقبل القريب يدل على أن نسبة الزيادة في الانتاج القومي ستساير نسبة الزيادة في عدد السكان وخاصة بعد انتهاء مشروع السنوات الخمس الأول في سنة ١٩٦١ ومشروع السنوات الخمس الثاني وبعد إتمام مشروع السد العالي سنة ١٩٧٠ . بل أننا نجد أن بعض قطاعات الدخل القومى وعلى الأخص الصناعة تنمو بمعدل يوازى أو يساوى تقريبا المعدل المثالى الذى يفترضه الخبراء ، ففي الأقليم الشمالى كان الدخل القومى الخاص من الصناعة والبناء سنة ١٩٥٣ هو ٢٤٥ مليون ليرة سورية ثم قفز هذا الرقم فى سنة ١٩٥٧ إلى حوالى ٣٣٠ ليرة سورية . أى أن نسبة الزيادة السنوية كانت حوالى ٨,٥ ، وفى الأقليم الجنوبى كان الدخل من الصناعة حوالى ٩٦,٩١٠,٠٠٠ جنيه مصرى فى سنة ١٩٥٢ وقفز هذا الرقم إلى ١٢٥,٦٨٧,٠٠٠ جنيه مصرى سنة ١٩٥٧ أى كانت نسبة الزيادة السنوية فى الدخل القومى من الصناعة حوالى ٤٨,٢ بينما متوسط هذه النسبة من كل القطاعات هو ٥ ٪ فقط . ومن هنا كانت الزيادة فى عدد السكان تحتاج إلى جهود جبارة فى التخطيط للحفاظ على مستوى المعيشة فى المجتمع فضلا عن العمل لرفع هذا المستوى ^(١) .

ثالثا : الحالة الصحية :

ومن أهم الدلالات العامة على مستوى المعيشة من الناحية الصحية معدل وفيات الأطفال الذين هم دون السنة الأولى من العمر .

(1) UN. Measures for Economic Development of Undeveloped Countries P.P 54 & 48

ويبدو أن بعض الدول قد وصلت إلى الذروة في تقدمها في خفض معدل وفيات الأطفال — وربما كان معدل ٢٠٪ (في الألف) هو ما أمكن الوصول إليه في الظروف الحالية للمجتمعات المتقدمة كالسويد مثلاً ولو أنه من الناحية الطبية البحتة يمكن تصور وصولها إلى معدل الصفر (وقد تبيننا من قبل أن هذا المعدل يصل في الجمهورية المتحدة إلى حوالي ١٢٠ في الألف ويسير بسرعة نحو الانخفاض التدريجي).

كذلك من المعايير لقياس المستوى الاجتماعي من الناحية الصحية ما يعرف اختصاراً بمتوسط عمر الفرد وهو متوسط لعدد السنوات التي يتوقع أن يعيشها أفراد الجماعة الذين ولدوا في الوقت نفسه وتعرضوا لأسباب الحياة والموت في سنوات متعاقبة وفي نفس الظروف البيئية القائمة. والجدول التالي يبين عمر الفرد في بعض الدول :

عمر الفرد المتوقع عند الولادة (١٩٥٥ — ٩٥٠)	القطر
حوالي ٤٠	الجمهورية العربية المتحدة
٣٥	الهند
٦٦	اليابان
٦٤	الأرجنتين
٦٨	فرنسا
٧٢	السويد
٧١	إنجلترا
٦٤	الإتحاد السوفيتي
٧١	الولايات المتحدة

وبالرغم من أن متوسط عمر الفرد في الجمهورية العربية المتحدة ليس كبيراً (بالقياس إلى كثير من الدول) إلا أنه أحسن بكثير مما كان عليه في سنة ١٩٣٧ ، ١٩٤٧ حيث كان هذا المتوسط لا يتجاوز الثلاثين سنة . وفي الواقع يتزايد متوسط عمر العربي كلما انخفضت معدلات الوفيات وبخاصة وفيات الأطفال الرضع وقد رأينا في مبحث الوفيات أنها بصفة عامة تسير نحو الإنخفاض التدريجي وبخاصة وفيات الأطفال وذلك نتيجة لتقدم الوسائل الصحية والعلاجية وتحسن المستويات المعيشية الاجتماعية والاقتصادية .

ينبغي هنا أن نشير إلى مدى توفر الأطباء والمستشفيات كعيار هام من معايير المستوى الاجتماعي ، فالخدمات الطبية بمختلف أنواعها في التاحيتين الوقائية والعلاجية من الخدمات الأساسية التي يحتاج إليها الفرد في حياته ، لذلك يتخذ معيار مدى توفر الأطباء وعدد الأسرة في المستشفيات من المعايير الهامة في هذا المجال .

ويعتبر مخططوا الخدمات الطبية أن الحد الأدنى في هذه الخدمات لا ينبغي أن يقل عن طبيب لكل ألف من السكان وعن سرير لكل ثلاثمائة^(١) والجدول التالي يبين نسبة السكان إلى كل طبيب وإلى كل سرير في المستشفيات في بعض الدول .

القطر		ما يخص كل ضبيب سنة		ما يخص كل سرير سنة	
		من السكان الإحصاء		من السكان الإحصاء	
ج.ع.م. الإقليم الجنوبي	٢٤٦٠	١٩٥٧	٥٥٠	١٩٥٧	
ج.ع.م. الإقليم الشمالي	٢٣٣٠	١٩٥٧	٨٢٢	١٩٥٧	
لبنان	١٢٠٠	١٩٥٤	١٥٥	١٩٥٢	
السودان	٨١٠٠٠	١٩٥٥	١١٠٠	١٩٥٢	
الهند	٥٧٠٠	١٩٥٢	٢٠٦٠	١٩٥٠	
السويد	١٣٠٠	١٩٥٤	٧٠	١٩٥٢	
الإتحاد السوفيتي	٦٠٠	١٩٥٥	١٥٥	١٩٥٥	
الولايات المتحدة	٧٦٠	١٩٥٣	١٠١	١٩٥٣	

جدول المستشفيات الحكومية يبين مدى حاجتها إلى صيادلة
(الإحصاء السنوي للجيب لأقليم مصر سنة ١٩٥٧)

عدد العيادات	رصيد	حمايات	البل والدن	الأمراض المتوطنة	الأمراض العقلية
٥٥	١٠٦	—	٣٧	١٢٤	—
٥٦	١٠٨	—	٤٣	١٢٦	—
عدد المستشفيات	٥٥	٦٠	٣٤	٩٨	٢
٥٦	١٠٨	٥١	٣٧	٩٨	٢
عدد الأطباء	٥٥	١٢٦	١٠٤	٩٧	٤٦
٥٦	١٣٠	٩٢	١٣٢	٩٨	٤٦
عدد الصيادلة	٥٥	—	٣	—	٢
٥٧	—	٣	٢	—	٣
عدد الممرضين	٥٥	٢٣٦	٤٣٦	١٢١	٣٨٨
والممرضات	٥٦	٢٥٤	٣٢٩	١١٠	١٧٠
عدد المرضى	٥٥	٢٧٦٠٤٧٤	—	١٠٩٢٩٨٣	—
بالعيادة الخارجية	٥٦	٢٢٧٩٦٤	—	١٠٨٣٤٣٩	—
عدد الأسرة	٥٥	٣٣٨٣	٤٢١٩	١٩٦٩	٣٣٣٤
٥٦	٢٤٢٢	٣٧٤٩	٦٦٠٨	١٩٥٠	٣٣٣٤
عدد مرضى العيادة	٥٥	٤٨٧٣٥	٧٧٧٧٢	١٩٦٢١	١٤٦٣٢
الداخلية	٥٦	٤١٠٠٦	١٤٩٠٧٧٢٣٧٢	١٨٦٦٣	١٠٢٣٢
متوسط أيام	٥٥	١١	١١	٢٤	١٣٣
العلاج	٥٦	١٤	١٣	٢٥	١٢٠

من هذا الجدول نرى إلى أى مدى حاجة المستشفيات العامة المجانية إلى عدد كبير من الصيادلة .

فنجدهم مستشفى هام كمستشفى الرمد مثلاً أن عدد العيادات الخارجية العلاجية بها ١٠٨ وعدد الأطباء ١٣٠ طبيباً وعدد الصيادلة بها صفرأى لا يوجد صيدلى واحد فى هذه المستشفيات الكبيرة الهامة .

ومما يزيد دهشتنا أن عدد المرضى المترددين عليها سنوياً ٢,٢٦٧,٩٦٤ ، وهل هذا العدد الضخم ليس فى حاجة إلى صيدلى يرشد ويفيد ويقدم الخدمات الإنسانية الجليلة ؟؟ .

وبالإضافة إلى ذلك فإنه يوجد بها عدد كبير من المرضى الذين يقيمون بها داخلياً ومتوسط أيام العلاج ١٤ يوماً .

ونجد أيضاً أن مستشفيات الحميات وبلغ عددها ٦٠ مستشفى يوجد بها ١٠٤ طبيباً وأمام هذا العدد الكبير من الأطباء ثلاثة صيادلة فقط .

معنى هذا أنه يوجد عدد كبير من هذه المستشفيات بدون صيدلى . فى حين أنها مستشفيات هامة وخطيرة وتؤدى مهمات صعبة توجب ضرورة وجود صيدلى على الأقل لكل مستشفى .

٢ — قلة عدد الصيدليات :

كنتيجة لقلّة عدد الصيادلة نجد تبعاً لذلك قلة ملحوظة فى عدد الصيدليات وخاصة الصيدليات الأهلية وبالأخص فى قرى وريف الإقليم الجنوبى، فنجد أن حاجة الريف المصرى إلى الصيدلية شديدة جداً . فأهل الريف يتكبدون مصاريف انتقال ضخمة للذهاب إلى البندر أو المركز التابع له القرية لشراء الأدوية فهم علاوة على تكبد المصاريف الإقتالية كذلك الوقت الطويل الذى يقضونه حتى يحصلون على الدواء . وفى بعض الأحيان يكون عامل

الوقت سبباً في ازدياد المرض أو في فوات فرصة العلاج على المريض إذا كانت الحالة خطيرة وتستدعى السرعة في الإنقاذ .

كما أن المتاعب التي تصادف الناس الذين يعيشون في الريف عند رغبتهم في الحصول على الدواء . كثيراً ما يلجأون بسببها إلى الطرق البدائية في شفاء مرضاتهم فهم يؤمنون بالوصفات البلدية والسحر والتعاويذ . ونجد أن الجبل يلعب دوراً كبيراً في حياة أهل الريف .

والجدول الآتي يعطينا صورة عن تركيز الأطباء والصيادلة في المدن وسنأخذ نموذجاً لذلك مراكز مديرية الشرقية في تعداد ١٩٤٧ (١) :

المركز	الطب والجراحة (عيادات خاصة)	الصيادات الخاصة
أبو حماد	٣	٢
الحسينية	—	—
بندر الزقازيق	٧٥	٢٦
مركز "	١٠	٩
بليس	١٤	٨
فاقوس	١٩	٥
كفر صقر	١٤	٦
منيا القمح	١٣	٥
ههيا	٨	١
جمله المديرية	١٦٦	٧١

(١) تعداد سكان إقليم مصر لسنة ١٩٤٧ .

الجزء الأول — السكاسة رقم ١ — مديرية الشرقية (ص : ١٥٨ - ١٥٩)

ولما كان السكن المناسب من أهم الحاجات الأساسية لفرد فإن توافر المسكن المناسب يعتبر من أهم عناصر المستوى الإجتماعى ولذلك ينظر فى تقدير السكن إلى مدى توفر المساكن بالنسبة لعدد السكان فى الغرفة الواحدة على أن يلاحظ بصفة خاصة الأمور والاعتبارات التالية :

- مدى توفر المياه النقية الصالحة للشرب والإستخدام الصحى .
- ومدى توفر المرافق العامة كالمراحيض والخمات والمطبخ والإنارة .
- ومدى توفر الشروط الصحية الأخرى كالهوية والتعرض للشمس .
- والجدول الآتى يبين متوسط عدد السكان فى الغرفة الواحدة فى احدى المديریات وهى البحيرة وفى احدى المحافظات وهى القنال سنة ١٩٤٧ وتعتبر ممثلة للأقليم الجنوبى إلى حد ما .

المصدر : تعداد سكان الأقليم المصرى لسنة ١٩٤٧ .

- الجزء الأول السكراسة رقم ٩ — مديرية البحيرة (ص ٤ — ١٢) .
- والسكراسة رقم ١٢ — محافظات القنال والدويس ودياط (ص ٦٠) .

النواحي	متوسط عدد أفراد العائلة	ما يخص كل غرفة من الأشخاص
قرى مركز أبو المطامير	٥	٢
» » أبو جمص	٦	٢
» » أيتاي البارود	٥	٢
» » الدلتنجات	٥	٢
» » المحمودية	٦	٢
بندر دمنهور	٥	٢
قرى مركز دمنهور	٦	٢
» » رشيد	٦	٣
» » شبراخيت	٥	٢
» » كفر الدوار	٦	٢
» » كوم حمادة	٥	٢
جملة مديرية البحيرة	٥	٢
الإسماعيلية	٤	٣
قسم أول بور سعيد	٥	١
» ثاني	٥	٢
» ثالث	٥	٢
الميناء	٧	٢
جملة محافظة القنال	٥	٢

رابعاً : الحالة الغذائية :

لاشك أن قياس مدى توفر المواد الغذائية والوقوف على ما يستهلكه الفرد من أنواع الغذاء المختلفة يعتبر عنصراً هاماً من عناصر قياس المستوى الإجتماعى العام أو المستوى المعيشى . ويتوقف الغذاء على إنتاج الحبوب والفاكهة والخضروات كما يتوقف أيضاً على إنتاج الثروة الحيوانية والثروة السمكية ومدى استغلالها .

ويُقاس مستوى التغذية فى مجتمع ما بالعلاقة بين ما ينبغي أن يستهلكه الفرد فى ضوء حساب الحاجات الجسمية اللازمة لتجديد الطاقة الحرارية المستهلكة والضرورية لضمان النمو الجسمانى والوقاية من الأمراض وبين ما يستهلكه الفرد فعلاً من هذه الإحتياجات الغذائية . وغنى عن البيان أن الإحتياجات الغذائية الضرورية تختلف باختلاف نوع العمل الذى يقوم به الفرد كما تختلف أهميتها باختلاف مراحل نموه الجسمانى وعمره الزمنى والبيئة الطبيعية التى يعيش فيها .

ويقدر علماء التغذية أن ما يلزم جسم الإنسان من السعرات الحرارية إنما يتوقف على سنه وعلى طبيعة عمله والجو الذى يعيش فيه .

والطريقة التى تتبع فى تحديد كفاية التغذية فى أى دولة هى أن يحسب مقدار ما ينتجه البلد من المواد الغذائية (كالحبوب والبقول والسكر) ويضاف إلى ذلك ما يستورده منها ، ويحذف ما يصدره إلى الخارج أو يعيد تصديره ، ويقسم الناتج على عدد السكان ، وبذلك يمكن تحديد النصيب الغذائى السنوى ثم اليومى لكل فرد ويمكن فى ضوء ذلك تقدير ما يعطيه هذا النصيب من وحدات حراريه أو سعرات ضرورية لتعويض الجسم عن المجهود المبذول فى الإنتاج وفى النشاط العام .

والملاحظ عادة أنه كلما زادت دخول الأفراد فإن زيادة دخولهم

تؤدى إلى التحسن الواضح فى استهلاك المواد الأغلى فى ثمنها كاللحوم .
ولما كانت اللحوم غالية فى إنتاجها وفى نفس الوقت تحتوى كثيراً من المواد
الغذائية يمكن اعتبارها من أهم الدلالات على كىفية الغذاء وهو المشكلة
الكبرى فى التغذية .

والجدول التالى يوضح مقارنة فى بعض الدول بين السكوريات التى
تتوفر للفرد الواحد من غذائه اليومى وبين الكلوريات المطلوبة وكمية الزيادة
والنقص فى سنة ١٩٥٤ / ٥٣ ^(١) .

القطر	الكلوريات المتوفرة	الكلوريات المطلوبة	الزيادة أو النقص
ج.ع.م. (مصر)	٢٨٥٠ (١٩٥٧)	٢٣٩٠	+ ١١,٨
الهند	١٨٥٠	٢٢٥٠	- ١٧,٨
اليابان	٢١٦٠	١٣٣٠	- ٧,٣
الأرجنتين	٢٨٤٠	٣٦٠٠	+ ٩,٢
البرازيل	٢٣٦٠	٢٤٥٠	- ٣,٧
فرنسا	٢٧٩٥	٢٥٥٠	+ ١١,٠
إنجلترا	٣١٤٠	٢٦٥٠	+ ١١,٨
الإتحاد السوفيتى	٣٠٧٠	٢٦٣٠	+ ١١,٦
الولايات المتحدة	٣٠٧٠	٢٦٤٠	+ ١١,٦

ويتضح من هذا الجدول أن الجمهورية العربية المتحدة من أعلى دول
العالم فى استهلاك المواد الكاربوهيدراتية أو الكلوريات .

(1) U. N. The world situation P. P. 61 - 62 .

نلاحظ من الجدول السابق أن متوسط استهلاك الفرد للخبز في الأردن أكبر منه بالإقليم الجنوبي أكبر منه بالإقليم الشمالي بينما نجد الفرق واضحاً بين متوسط ما يستهلكه الفرد في إقليم مصر إذ يبلغ متوسط ما يستهلكه الفرد من القمح بالإقليم السوري ١٥٠ كيلو جرام بينما هو بالإقليم المصري ٣٦ كيلو جرام فقط وهذا يدل على مدى صلاحية الأراضي الزراعية في سوريا لإنتاج أنواع القمح المختلفة وبشهر الإقليم السوري زراعة القمح والسمش والقمح. ويتم سوريا بمصاعة تجفيف القمح وعمل المربوبات... ولا شك أن أساس الاقتصاد السوري هو الزراعة. وتبين من الإحصائية التالية أن أكثر من ثلثي السكان يشتغلون بالزراعة

خامسا : الحالة العلمية والثقافية :

(١) التعليم :

تطوّر التعليم في كل من إقليمى الجمهورية على أسس واضحة ، كانت ثمرة الدراسة والتخطيط البعيد المدى ، إذ نظرت الدولة إلى المرحلة الابتدائية باعتبار أنها هي المرحلة الأولى التى يجب أن توجه إليها أكثر الجهد وهى القاعدة والاساس لكل تعليم فجعلت هذه المرحلة ٦ سنوات دراسة كاملة ، هذا إلى العمل بأسرع ما يمكن على تعميم التعليم الابتدائى حتى يشمل جميع من هم فى سن التعليم . أما المرحلة الثانية فهى مرحلة مستحدثة أسترزما تصحيح السلم التعليمى الذى كانت تسير عليه البلاد فهى مرحلة الأعداد وتنمية الميول والكشف عن استعدادات ، وهى كذلك مرحلة تقابل سنا معينة من عمر التلميذ ، تتحدد فيها اتجاهاته وميوله وقدراته . ومن أجل ذلك أنشئت المرحلة الإعدادية ومدتها ٣ سنوات وهى عامة وفنية ، والفنية صناعية وزراعية وتجارية ، ثم تتلو ذلك المرحلة الثانوية ومدتها ٣ سنوات كذلك . كما أنها عامة وفنية ، والفنية صناعية وزراعية وتجارية ونسوية . أما ما يتلو ذلك فهو مرحلة التعليم العالى والجامعى . وبذلك أمكن القضاء على تداخل المراحل التعليمية وازدواجها وبناء النهضة التعليمية على أسس قوية .

وقد قطع إقليما الجمهورية خطوات واسعة لتحقيق نهضة مشتركة للتربية والتعليم فوضع تخطيط لزيادة عدد المدارس ، وللتنسيق بين أنواع التعليم ومراحل زيادة العناية بالتعليم الفنى والمهن وتنويعه وتكميل مراحله وزيادة معاهد تخريج المعلمين والعناية بالتعليم الجامعى . كل ذلك وفقا للخطة المقررة للسياسة التعليمية .

ومن أجل ذلك فقد تحقق تطور كبير خلال الثمانى السنوات الماضية

بالنسبة للأقليم الجنوبي ، وخلال السنتين الماضيتين بالنسبة للأقليم الشمالى .
فقد كان عدد التلاميذ فى المدارس الابتدائية بالأقليم الجنوبى لا يتجاوز
١,٤٩١,٤٥٧ تلميذا وتلميذة عام ١٩٥٢ فبلغ هذا العام ٢,٤٥١,٨١٦ تلميذا
وتلميذة . وزاد عدد هؤلاء التلاميذ فى الأقليم الشمالى من ٣٨٩,٧٥٠ تلميذا
وتلميذة فى التعليم الابتدائى والريفى عام ١٩٥٨/٥٧ إلى ٤٢٤,٨٦٩ تلميذا
وتلميذة فى العام الماضى ، وبلغ عدد تلاميذ المدارس الإعدادية العامة
وهى مرحلة جديدة بالأقليم الجنوبى ٢٤٨,٩٢٣ تلميذا وتلميذة هذا العام .
أما فى التعليم الفنى فقد زاد عدد تلاميذ المدارس الإعدادية والثانوية
الفنية بالأقليم الجنوبى من ٢٢,٠٨٩ تلميذا وتلميذة عام ١٩٥٣ إلى ٩٤٠,٤٤٥
تلميذا وتلميذة هذا العام . وكان عدد هؤلاء التلاميذ بالأقليم الشمالى ٢٦٩٣
تلميذا وتلميذة عام ١٩٥٨/٥٧ ، فبلغ عددهم هذا العام ٥٦١٥ تلميذاً وتلميذة .
والإحصاءات الآتية تعطينا فكرة تفصيلية عن الحالة التعليمية
بإقليمى الجمهورية .

جدول رقم (١)

إحصائية عن حالة التعليم بالإقليم الشمال عام ٥٧ / ١٩٥٨

عدد التلاميذ		عدد الشعب			عدد المدارس			فرع التعليم
الجموع	بنات	بنون	مختلطة	بنات	بنون	مختلطة	بنات	
٣٩٥٢٦١	٧٨٩٥٣	٣١٦٤٠٨	٤٤٣٦	٣٠٣	٦١٧٨	٢٦١٤	٩٨٦	ابتداء حكومي
٧٥٧٢٨	٣٩٧٢٢	٤٦٠٠٦	١٦٨٩	١٣٨	٦٢٦	٣٨٨	٢٦٣	ابتداء أهلي
٨٣٧٢	٤٤٧٩	٣٧٩٣	٩٧	٧٤	٦٧	١٩	٨	ابتداء أجنبي
٢٧٩٥٤	٧٠٠٦	٢٠٩٤٨	١١	٣١٤	٥٥٤	٩٤	٢	ثانوي حكومي
٢٢٩١٠	٣٩٥٨	١٨٩٥٢	١٨٠	١٥٦	٤٣٦	١٦٦	٤١	ثانوي أهلي
٢٣٦٩	١٢٣١	١١٣٨	٣٤	٥٧	٢٣	١٦	٢	ثانوي أجنبي
٢٤٠٦	٥٩٩	١٨٠٧	—	٢٠	٥٤	١٢	٣	تعليم مهني حكومي
٢٨٧	١٠٩	١٧٨	—	٢	٦	٢	١	تعليم مهني أهلي
١٢٣١	٤٤١	٧٩٠	—	١٧	٢٨	٨	٤	معلمين معلمات
٤٣٦٥١٩	١٢٦٤٩٨	٣١٠٠٢٠	٦٤٣٧	٢٧٨٠	٧٩٧٢	٣٣١٩	١٣٠٢	الجموع
							٤٢٧	
							١٥٩٠	

جدول رقم (٢) إحصائية تفصيلية عن حالة التعليم بالاقليم الجنوبي ١٩٥٩/١٩٥٨
(١ - التعليم العام)

المجموع	عدد التلاميذ والطلاب		فصول	ملحقة أقسام	مدارس	فرع التعليم
	بنات	بنون				
٧,٣٣٢	٢٧٧٦	٤٥٥٦	١٠٠	—	١٠٥	حضانة
٢,٢٨٤,٩٩١	٨٦٠,٣٥٤	١,٤٢٤,٦٣٧	٥٥,٥٧٥	٧٧	٨٣٠٨	إبتدائي
٦,١٩٨	٣٩١٨	٢٢٨٠	٣١٥	٩	٥٢	معاهد شواذ ومؤسسات
٢٤٧,٣٩٤	٦٥,٢٨٧	١٨٢,١٠٧	٨,٥٤٨	١٠٨	٧٧٣	إعدادي عام
١,٢٥٠	٢٧١	٩٧٩	٤٧	١	٦	إعدادي عملي
١١٥,٦٠٨	٢٠,٧٠٦	٩٤,٩٠٢	٣,٦٣٩	٨٢	٢٠٠	ثانوي عام
١٥,٩٨٨	—	١٥,٩٨٨	٥٤٦	٩	٦٢	إعدادي صناعي
٥,٢٠٨	٥,٠٠٦	٢٠٢	١٩٢	٢	١٤	إعدادي تجاري
٦,٦٨٧	—	٦,٦٨٧	٢٤٤	٢	٢٦	إعدادي زراعي
١,٣٤٠	١٣٤٠	—	٤٥	—	٩	إعدادي فني بذات
٠,٦٣٣	٨٢	٥٤١	١٩	—	٢	إعدادي فني مشترك
١٣,٧٣٥	—	١٣,٧٣٥	٤٣٣	٣	٢٥	ثانوي صناعي
٢٢,٤٩٧	٣٧٤٤	١٨,٧٥٣	٧٦١	٤٥	٣٤	ثانوي تجاري
٧,٤٤٣	—	٧٤٤٣	٢٤٧	٣	١٥	ثانوي زراعي
٦,٢٣٧	٦٢٣٧	—	٢٣٠	١٣	١٧	ثانوي نسوي
١٠٠	—	١٠٠	٣	١	—	ثانوي فني مشترك
٣,٦٢٢	١٢٢٧	٢٣٩٥	١٤٤	—	١٣	معلمين ومعلمات ريفية
١١,٥٠٥	٦٢٠٣	٥٣٠٢	٣٩٧	٢	٤٤	معلمين ومعلمات عامة
٥١٩	٣٨٥	١٣٤	٣٨	٢١	—	أقسام إضافية
١٥٨	١٤	١٤٤	٤	—	١	معلمين خاصة
١,٥٧٤	٥٦٩	١٠٠٥	٦٦	١١	٣	معلمين خاصة وفرسية
٩٦٥	٤٦٠	٥٠٥	٣٢	—	٣	معاهد تربية رياضية متوسطة
١,٣٤٢	٧٨٦	٥٥٦	٥٣	—	٩	معاهد خاصة
١١,٠٦٦	٣,٠٩٧	٧,٩٦٨	٤٢٦	—	٣٧	معاهد عليا
٩٤,٨٦١	٥٤,٩٧٦	٣٩,٨٧٥	٣,٢٩٨	٤٧١	٢٥٤	التعليم الأجنبي
٢,٨٦٨,٢٤٣	١,٠٣٧,٤٥٨	١,٨٣٠,٧٨٥	٧٥,٣٨٤	٨٥٩	٩٠١٢	الجملة

(ب) التعليم الجامعى

بيان إحصائى إجمالى عن عدد الطلبة والطالبات النظاميين والمنسبيين بالجامعات
الأربع بالإقليم الجنوبى فى العام الدراسى ٥٨ - ١٩٥٩

جامعة عين شمس			جامعة القاهرة			اسم الكلية
جملة	طالبات	طلبة	جملة	طالبات	طلبة	
٢١٦١	٦٧٧	١٨٨٤	٥٠٥٤	١٤٣٩	٣٦١٥	نظاميون
١٤١٥	٢٣٢	١١٨٣	٢٨٧٧	٥٦٧	٢٣١٠	منتسبون
٣٤٢٠	٤٢١	٢٩٩٩	٥١٦٠	٤٢٧	٤٧٣٣	نظاميون
٢٢٥٠	١٦٠	٢٠٩٠	١٢٥٦	١٠٧	١١٤٩	منتسبون
٣٠٠٠	٤٣٠	٢٥٧٤	٣٩٠٧	٥٢٠	٣٣٨٧	نظاميون
٢٧٦٤	٣٠٥	٢٤٥٩	٣٢٩٦	٢٥٦	٢٠٤٠	منتسبون
١٠٢٤	١٣٩	٨٨٥	١١٤٨	١٦٩	٩٧٧	كلية الآداب
٢٣٨٩	٣٧١	٢٠١٨	٣١٣٩	٤١٣	٢٧٢٦	١ - كلية الآداب
—	—	—	٦١٤	٩٨	٥١٦	٢ - كلية الحقوق
—	—	—	٤٤٤	٨٥	٣٥٩	٣ - كلية التجارة
٢٣١٣	٥٧	٢٢٥٦	٢٦٩٣	٤٤	٢٦٤٩	٤ - كلية العلوم
١٢٨٤	١٣٦	١١٤٨	٢٣٢٤	٢٦٤	٢٠١٠	٥ - كلية الطب
—	—	—	٩٢٢	٥٧	٨٦٥	٦ - كلية الصيدلة
—	—	—	١٦٠٧	٣٠٣	١٣٠٤	٧ - كلية طب الأسنان
٢٤٤	٧٢	١٧٢	—	—	—	٨ - كلية الهندسة
٢٨٨	٧٣	٢١٥	—	—	—	٩ - كلية الزراعة
٩٨١	٩٨١	—	—	—	—	١٠ - كلية الطب البيطرى
—	—	—	—	—	—	١١ - كلية دار العلوم
٢٤٤	٧٢	١٧٢	—	—	—	١٢ - كلية التربية
٢٨٨	٧٣	٢١٥	—	—	—	دبلوم عامة
٩٨١	٩٨١	—	—	—	—	دبلوم خاصة
—	—	—	—	—	—	١٣ - كلية البنات
—	—	—	—	—	—	١٤ - معهد التمريض العالى
١٧٥٠٨	٣٣٥٧	١٤١٥١	٢٧٠١٠	٣٨١٩	٢٣١٩١	نظاميون
٦٤٢٩	١٩٧	٥٧٣٣	٧٤٢٩	٩٣٠	٦٤٩٩	منتسبون
						الجملة

جامعة الاسكندرية			جامعة أسسوط			المجموع		
طلبة	٢٠٠٠	جسلة	طلبة	٢٠٠٠	جسلة	طلبة	٢٠٠٠	جسلة
١٦٩٢	٥٩١	٢٢٨٢	—	—	—	٧١٩١	٢٧٠٧	٩٨٩٨
١١٥٧	٢٠٢	١٢٦٠	—	—	—	٤٦٥٠	١٠٠٢	٥٦٥٢
١٢٨١	١٥٠	١٥٣١	—	—	—	٩١١٣	٩٩٨	١٠١١١
٩٨٢	٢٧	١٠١٠	—	—	—	٤٢٢٢	٢٩٤	٤٥١٦
١٨٩٢	٢٤٤	٢١٣٦	—	—	—	٧٨٥٣	١١٩٤	٩٠٤٧
٢٥٦٠	٢٢٩	٢٧٨٩	—	—	—	٨٥٠٩	٧٩٠	٨٨٤٩
٨١٣	٧٤	٨٧٧	٤٠٢	٢٩	٤٣١	٣٠٧٧	٤١١	٢٤٨٨
١٣٨٧	١٦٩	١٥٥٦	—	—	—	٦١٣١	٩٥٣	٧٠٨٤
٤٢٤	٧٥	٤٩٩	—	—	—	٩٤٠	١٧٣	١١١٣
١٩٢	٢٦	٢١٨	—	—	—	٥٥١	١١١	٦٦٢
٢١٧٨	٢٨	٢٢١٦	٦٤٤	٢٤	٦٨٨	٧٧٥٧	١٦٣	٧٩١٠
١١٩٣	٩٨	١٢١٩	—	—	—	٤٤٠١	٤٩٨	٤٨٩٩
—	—	—	—	—	—	٨٦٥	٥٧	٩٢٢
—	—	—	—	—	—	١٣٠٤	٣٠٣	١٧٠٦
—	—	—	—	—	—	١٧٢	٧٢	٢٤٤
—	—	—	—	—	—	٢١٥	٧٣	٢٨٨
—	—	—	—	—	—	—	٩٨١	٩٨١
—	٧٦	٧٦	—	—	—	—	٧٦	٧٦
١١١٥٣	١٥٤١	١٢٦٩٣	—	—	—	٤٩٥٦٠	٨٧٧٠	٥٨٣٣٠
٤٧٠٠	٤٥٩	٥١٥٩	١٠٦٦	١١١٩٥٣	١٦٩٣١	٢٠٨٦	١٩٠١٧	١٩٠١٧

الكتاب السنوى عام ١٩٥٩ ص ٨٦١

جامعة دمشق
طبقاً للعام الدراسي ١٩٥٧/١٩٥٨

عدد الطلاب			إسم الكلية
المجموع	أنثى	ذكور	
٧٢٥	٢١٠	٥١٥	كلية الطب
٣٠٩٧	٢٤٠	٢٨٥٧	الحقوق
١٧٥	٧	١٦٨	العلوم التجارية
١٣٦	٧	١٢٩	الهندسة
٢٥٢٨	٧٢٤	١٨٠٤	الآداب
٦٩٧	١٠٩	٥٨٨	العلوم
٢١٨	٦٥	١٥٣	التربية
٣١٦	١٥	٣٠١	الشريعة
٧٨٩٢	١٣٧٧	٦٥١٥	المجموع العام

تستمر كلية الهندسة التابعة لجامعة حلب ملحقاً بجامعة دمشق في الوقت الحالي إلى يتم تنظيم جامعة حلب .

طلبة المعاهد الدينية التابعة للجامعة الأزهرية طبقاً للعام الدراسي ٥٨ - ١٩٥٩

رقم	اسم المعهد	عدد طلبة القسم الابتدائي	عدد طلبة القسم الثانوي
١	معهد القاهرة	١٧٠٥	٧٣٩
٢	معهد الإسكندرية	٥٤٨	٥٥٠
٣	معهد طنطا	٢٢١٧	١٧٨٠
٤	معهد أسيوط	٦٣٩	٥٥٤
٥	معهد الزقازيق	١١٤٠	١١٤٤
٦	معهد شبين الكوم	٥٢١	٤٠٥
٧	معهد فنا	٣٠٤	٥٠٠
٨	معهد سوهاج	٥٢٩	٧٢٩
٩	معهد دسوق	٧٢٣	٥٤٠
١٠	معهد دمياط	٣٦٦	٣٣٧
١١	معهد المنيا	٢٢٩	٤٢١
١٢	معهد المنصورة	١٢٧٩	١٢١٣
١٣	معهد سمند	٩٤٩	٥١٨
١٤	معهد كفر الشيخ	٤٩٨	—
١٥	معهد جرجا	٣٤٩	٣٣٦
١٦	معهد منوف	٧٦٨	٥٥٨
١٧	معهد الفيوم	٤٣٠	٢٣٩
١٨	معهد بنها	٥١٣	١٨٧
١٩	معهد بني سويف	٥١١	١٤٩
٢٠	معهد دمنهور	٨٤٠	٢٨٢
المجموع		١٥٠٥٨	١٢١٨١

هذا الإحصاء لا يدخل فيه طلبة الجامعة الأزهرية الذين يبلغ عددهم ٤٨٧٣ بالقسم العالي و ١٤٣٨ بقسم إجازة التدرس و ٢٤٧ بالدراسات العليا وبخلاف طلبة المعاهد الدينية الحرة التابعة للجامعة الأزهرية والبالغ عددهم ٤٥١٦ . فيشكل المجموع الكلي ٢٣٢٥٥ طالباً بالجامعة الأزهرية والمعاهد التابعة لها . الكتاب السقوي صفحات ٨٦٤ ، ٨٦٥ ، ٨٦٦ .

(ب) : الحالة الثقافية :

وغنى عن البيان أن نسبة الأميين من الأفراد الذين تزيد سهرم على ١٥ سنة من المعايير التى يقاس بها مستوى ثقافة الشعوب والجدول الآتى يبين حالة السكان التعليمية فى السنوات ١٩٣٧ ، ١٩٤٧ ، ١٩٥٧ فى الإقليم الجنوبى من الجمهورية العربية المتحدة^(١) (الأرقام بالآلاف) .

ومنه يتضح نسبة الأميين إلى المتعلمين .

سنة التعداد	أميون	متعلمون	حالات غير مبينة	الجملة (١)
١٩٣٧	٥٠٥٨	١٨٨٦	١	٦٩٤٥
	٦١٨٤	٦٨٤	—	٦٨٦٨
	٢١٢٤٤	٢٥٧٠	١	١٢٨١٣
١٩٤٧	٥٢٤٩	٢٥٦١	٣٠٢	٨١١٢
	٦٨٢٦	٩٩٨	٤٤٦	٨٢٧٠
	١٢٠٧٥	٣٥٥٩	٧٤٨	١٦٣٨٢
١٩٥٧	٥٤٦٨	٣٨٠٦	٥٠	٩٣٢٤
	٧٨٤٠	١٥١٩	١٠٨	٩٤٦٧
	١٣٣٠٨	٥٣٢٥	١٥٨	١٨٧٩١

وفى ضوء هذا الجدول نجد أن نسبة الأمية كانت فى سنة ١٩٣٧ حوالى ٧٨٪ انخفضت فى سنة ١٩٤٧ إلى ٧٠٪ ثم إلى ٦٢ سنة ١٩٥٧ .
وفىما يلى جدول آخر يوضح عدد الأميين وعدد المتعلمين مشتملا على تفصيل لدرجة التعليم فى سنة ١٩٥٧ فى الإقليم الجنوبى^(٢) .

(١) الجملة لا تشمل عدد الأطفال .

(٧) إحصاء القوة العاملة بالعينة فى إقليم مصر ص ٩٧٢ ، ١٧٣ .

إحصاء الجيب الإقليم مصر لسنة ١٩٥٨ ص ١٣ .

الجنس	أمى	يقرأ فقط	يقرأ ويكتب	شهادة أقل من المتوسط	شهادة متوسطة	شهادة جامعية	درجة جامعية عليا	طفل	غير مبين	جملة عدد السكان
ذكور	٥٤٦٨	١٣٤	٢٩٠٦	٤٠٥	٢٥١	١٠٤	٦	٢٤٦٥	٥٠	١١٧٨٩
أناث	٧٨٤٠	٧٠	١٢٧٩	١٦٣	٧٢	١٥	—	٢٣١٦	١٠٨	١١٨٤٣
الجملة	١٨٣٠٨	٢٠٤	٤١٦٥	٥٦٨	٣٢٣	١١٩	٦	٤٧٨١	١٥٨	٢٣٦٣٢

هذا ولا توجد إحصاءات تفصيلية عن الأقليم السوري تمكننا من المقارنة وفقاً لهذا المعيار من معايير المستوى الاجتماعى العام، وعلى كل فإن نسبة الأمية فى الأقليم الجنوبى والأقليم الشمالى تعتبر إلى حد ما متقاربة لثشابه كثير من الظروف الاجتماعية المحيطة بالأقليمين .

وكذلك من المقرر أن سن قانون للتعليم الإلجبارى له أيضاً دلالاته فى تقدير المستوى الثقافى وخاصة إذا تبينا مدى تطبيقه من الناحية الفعلية ومدى توفر المدارس لاستيعاب التلاميذ فى سن الإلزام ولذلك كانت نسبة التلاميذ فى مدارس المرحلة الأولى إلى الذين فى سن الإلزام من أهم الدلالات فى هذا المجال فإذا بلغت نسبة الإستهباب ٦٠٪ كانت الدولة قد شقت طريقها إلى تعميم التعليم الإلزامى .

وفى الأقليم الشمالى يبلغ عدد التلاميذ فى المدارس الابتدائية فى سنة ١٩٥٧/١٩٥٨ حوالى ٣٩٠,٠٠٠ تلميذ بينما بلغ عدد الذين هم فى سن الإلزام (وهم الأفراد المحصورين فى فئة السن من ٦ إلى أقل من ١٢) حوالى ٦٢٠ ألف طفل، فتكون نسبة التلاميذ فى المدارس الابتدائية حوالى ٦٢٪ من المجموع الكلى إلى من هم فى سن الإلزام، وبذلك يكون الأقليم الشمالى قد تخطى — طبقاً لهذا المعيار — مرحلة الدول المتخلفة (التى تقل فيها هذه النسبة عن ٦٠٪) وكل الدلائل تشير على أن نسبة التلاميذ فى المدارس

الإبتدائية تزداد عاما بعد الآخر نتيجة التوسع في إنشاء المدارس الإبتدائية وخاصة بعد الوحدة ، وهناك برنامج تخطيطي يتم تنفيذه في سنة ١٩٧٠ وبمقتضاه سيتاح لكل طفل من أطفال الجمهورية العربية المتحدة في سن الإلزام فرصة التعليم بالمجان .

أما في الأقليم الجنوبي فقد بلغ عدد الأطفال في سن ٦ - أقل من ١٢ في سنة ١٩٥٧ حوالي ٣,٦٠٠,٠٠٠ وهذه هي سن الإلزام بينما كان عدد تلاميذ المدارس الإبتدائية في العام الدراسي ١٩٥٦/٥٥ حوالي ١,٩٠٠,٠٠٠ طفل أى بنسبة ٥٣٪ ممن هم في سن الإلزام . ومعنى هذا أن الإقليم الجنوبي لم يتخط بعد الحد الفاصل بين الدولة المتخلفة ثقافيا والدول المتوسطة وأن كانت كل الدلائل تشير على أن وصول الإقليم الجنوبي إلى هذا الحد وتجاوزه قد أصبح وشيك الوقوع أن لم يكن قد تم بالفعل في غضون الفترة التالية لتاريخ الإحصاء .

وكذلك من الدلالات التي لها قيمتها في تقدير المستوى الثقافي للسكان طول مدة التعليم الإجبارى إذ قد تتراوح مدة التعليم الإجبارى بين الدول من ٥ سنوات إلى ١٢ سنة . فهذه المدة تعتبر قرينة على مدى حرص الدولة على إعداد أبنائها ليسكونوا مواطنين صالحين في مدة تطول أو تقصر حسب إمكانياتها المادية وحسب ما تريد أن تزودهم به من ضروريات الحياة .

هذا بالإضافة إلى بعض معايير يمكن الاستعانة بها لمعرفة المستوى الثقافي مثل نسبة التلاميذ الذين ينتقلون من مرحلة إلى جملة التلاميذ في المرحلة السابقة كنسبة التلاميذ الذين يلتحقون بالمدارس الثانوية بأنواعها المتعددة (العامة النظرية والمهنية والفنية) إلى جملة التلاميذ في المرحلة الإبتدائية ، كما أنه يمكن اتخاذ نسبة الطلاب في التعليم الجامعى والعالى بمختلف أنواعه إلى كل ١٠٠,٠٠٠ من السكان نسبة لها دلالتها في المستوى الثقافي^(١).

(1) U. N. - The World Social Situation , P. P. 79 & 85 .

لدكتور حامد عمار بعض مقاعم علم الاجتماع .

ومن المعايير الهامة أيضا في تقدير المستوى الثقافي في أى مجتمع من المجتمعات معرفة مدى توافر أجهزة الثقافة العامة التى تقوم بوظائف ترشيدية وتوجيهية خارج نطاق النظام التعليمى فى المدارس والمعاهد والجامعات ولا شك أن الكتاب والمكتبة والصحيفة والمجلة والراديو والتلفزيون والمسرح والسينما من الأدوات الهامة فى مجال الثقافة العامة ولمقدار ما يخطئ به الفرد من فرص الاستفادة بهذه الأجهزة الثقافية دلالة فى قياس المستوى الثقافى للمجتمع الإنسانى .

فثلا عدد الكتب التى تصدر كل عام ، وعدد النسخ التى تطبع من كل كتاب له دلالة فى تقدير المستوى الثقافى فنجد مثلا أنه فى عام ١٩٥٤ كانت نسبة الكتب الجديدة (وليس عدد النسخ) إلى عدد السكان فى أوروبا بمعدل كتاب جديد لكل ٣٠٠٠ شخص وفى آسيا كتاب لكل ٢٤,٠٠٠ شخص وفى إفريقيا كتاب لكل ١٠٧,٠٠٠ شخص .

ويمكن أن نعتبر توزيع الكتب عن طريق المكتبات سواء بالاستعارة الخارجية أو الداخلية من معايير المستوى الثقافى لأن هذا دليل على استعمال الكتاب كدأة ثقافية .

ولا توجد لدينا للأسف إحصاءات دقيقة عن هذا الموضوع بالنسبة للجمهورية العربية المتحدة ومن المعايير العامة لقياس المستوى الثقافى الوقوف على معدل استخدام أجهزة الراديو ومعدل توزيع الصحف اليومية لكل ألف من السكان . وتقدير معدل ما يخصص كل فرد من السكان من ورق الطباعة والكتابة فى السنة .

والجدول التالى يلقى بعض الضوء على هذه المعايير الثقافية^(١) بالنسبة لبعض الدول وفى مقدمتها أفليمى الجمهورية العربية المتحدة .

(1) U. N. The World Social Situation , PP. 80 - 82.

الدكتور حامد عمار : بعض مفاهيم علم الاجتماع ص ٨٧ .

القطر	ما يخص كل ١٠٠٠ من السكان من الصحف اليومية	ما يخص كل ١٠٠٠ من السكان من أجهزة الراديو عام ١٩٥٤	متوسط ما يخص الفرد من ورق الطباعة والكتابة بالكيلوجرامات
الجمهورية العربية المتحدة	٢٥ (١٩٥٢)	٢٩	٠,٩ (٥٥)
تونس	٣٣ (٩٥٤)	٢٦	٠,٣ (٥٥)
العراق	٢١ (٥٢)	١٣	٠,٢ (٥٥)
انجلترا	٥٧٠ (٥٥)	٣٧٣	١٧,٤ (٥٥)
يوغسلافيا	٤٦ (٥٥)	٢٩	١,٢ (٥٥)
الولايات المتحدة	٣٣٧ (٥٥)	٧٦٩	٣٥,٢ (٥٥)

سادساً :

أما فيما يتعلق بنصيب الفرد من الخدمات الاجتماعية ، فإن الإحصائيات التي لدينا لا تسمح لنا بإعطاء صورة يقينية تسمح لنا بتسجيلها في هذا المقام ولذلك فإننا نكتفي بأن نشير إلى إمكان الأخذ بمقياس العلامة بنيت Bennett ^(١) الذي وضعه لقياس مستوى المعيشة وتقدير نصيب الفرد من الخدمات ، وسنقتصر على أهم المقاييس التي ذكرها . بنيت ، التي نلخصها فيما يلي :

١ — مجموع السعرات الحرارية التي تستهلكها الوحدة الإنسانية

« ١٠٠ رطل » .

٢ — معدل وفيات الأطفال الرضع .

٣ — عدد الأطباء بالنسبة لكل ألف من السكان .

٤ — متوسط استهلاك أو استخدام الأثاث .

٥ -- متوسط استهلاك الفرد من الأسمنت .

(١) لجنة الأبحاث الإحصائية ، من تقارير المجلس الدائم للخدمات العامة .

- ٦ — المتوسط المباح للفرد من ألياف المنسوجات .
 - ٧ — النسبة المئوية للذين يتعلمون فعلا في المدارس الذين في سن التعليم .
 - ٨ — متوسط عدد المراسلات الموزعة بالنسبة للفرد .
 - ٩ — عدد دور السينما والمسارح بالنسبة لكل مليون من السكان .
 - ١٠ — مجموع أجور نقل البضائع بالسكك الحديدية بالنسبة لكل ألف من السكان .
 - ١١ — عدد السيارات لكل ألف من السكان .
 - ١٢ — عدد التليفونات لكل ألف من السكان .
 - ١٣ — عدد الوحدات الحيوانية لكل ألف من السكان .
- والأمل معقود في أن يتاح لنا القيام بدراسة تطبيقية لهذه المقاييس على سكان الجمهورية العربية المتحدة والإستعانة بما تقدمه اللجنة المركزية للإحصاء التابعة لرئاسة الجمهورية من مساعدة فنية .

بيانات إحصائية عن قطاعات الأمة العربية

١ - الأردن :

توزيع السكان

إحصائية السكان حسب الأولوية والأفضية لعام ١٩٥٤ .

الضفة	اللوام	القضاء	عدد السكان
الشريفية	محافظة العاصمة	عمان	٣٠٣١٣
	البلقاء	السلط	٦٨٢٧٨
		مادبا	٢٩٢٥٥
	عجلون	إربد	١٤٩٠٢٣
		عجلون	٢٨٥١٩
		جرش	٢٨٤٢٤
		السكورة	٢١٦٤١
	الكرك	الكرك	٤٣١٥٨
		الطفيلة	١٩٩٣٠
	معان	معان	٢٤٨٢٩
		العقبة	٤٩٧٢
الشمالية	القدس	القدس	٨٩٨٣٣
		رام الله	١١٥٥٤٨
		بيت لحم	٥٩٠٦٥
		أريحا	٥٢٤٧٨
	نابلس	نابلس	١٦١٨٠٧
		حنين	٨٤٩٥٥
		طرا-كرم	٨٦٣٣٤
	الخليل	الخليل	١٣٢٦٦١
المجموع			١٤٠٣٦٢٣

تقرير عن مشروعات النهوض بالمجتمعات المحلية في المملكة الأردنية الهاشمية (الجامعة العربية)
(٢١ السكان)

ويتضح من هذا الجدول أن الضفة الغربية هي أكثر الجهات من حيث عدد السكان ومن حيث الكثافة السكانية . فهي تشتمل على أكثر من نصف عدد السكان ، بينما لا تشغل إلا ١٤ المساحة الكلية وتصل كثافتها إلى ٦٨ في الكم وتزيد هذه النسبة إلى ١٢٥ إذا أدخلنا في تقديرنا اللاجئين الزاحفين من فلسطين المحتلة . أما الضفة الشرقية فهي أقل نسبياً في عدد سكانها بالنسبة إلى مساحتها ولا تزيد كثافتها عن ٣٠ في الكم .

٢ - المملكة العربية السعودية :

لم تكن المملكة العربية السعودية بإجراء إحصائيات دقيقة عن عدد السكان وذلك راجع أن الإحصاء نفسه محتاج إلى وعى إحصائي وهذه النقطة من أهم الجوانب التي تلعب دوراً خطيراً في مدى صحة أو بطلان البيانات الإحصائية التي يتم جمعها .

كذلك هناك العامل الجغرافي في هذه البلاد فإذا علمنا أن مساحة المملكة العربية السعودية تفوق جميع مساحة دول غرب أوروبا مجتمعة أدركنا تمام مدى الصعوبة التي تقف في وجه المستويين . . . إذا أضفنا إلى ذلك عامل التضاريس والحواجر الجبلية الممتدة من الشمال إلى الجنوب كذلك الحواجز الصحراوية الشاسعة وشدة الحرارة وامتناع الماء في معظم المساحات الصحراوية وسوء المواصلات البرية في داخل البلاد وإن كانت الطائرات أصبحت تستخدم كوسيلة للنقل الداخلي إلا أننا ليعت على طول الخط من العوامل المؤكدة في إمكان جمع الأرقام بسهولة ويسر فهي لا يمكن أن تقوم مقام المواصلات البرية ، فضلاً عن هذا وذاك فهناك عامل التخلخل السكاني في أجزاء كثيرة ومتناثرة من شبه الجزيرة العربية وجميع التكهّنات والتقديرات تشير إلى أن عدد السكان في المملكة العربية السعودية يتراوح بين ٩ ملايين ، ١٢ مليون نسمة .

٣ — المملكة النينية المتوكلية :

تعتبر بلاد النين أشد بلاد شبه الجزيرة العربية ازدحاماً بالسكان . إذ يزدحم السكان على جبالها العالية حيث يتلطف المناخ وتترفر مياه الأمطار نسبياً ، وتشتد الكثافة خاصة على النجود والمنحدرات الغربية الوسطى وذلك لتوفر ينابيع الماء^(١) . وتبلغ كثافة السكان في المتوسط في المملكة المتوكلية النينية ٢٣ نسمة بالكم^٢ ولا تزيد كثافة السكان بلواء صعدة على حدود العسير في الشمال عن ١٢ نسمة في الكم^٢ بينما تصل الكثافة السكانية إلى ٤٦ نسمة في الكم^٢ بلواء الحديدة في الوسط الغربي ، أما لواء صنعاء فنجد أن الكثافة السكانية به لا تزيد عن ١٣ نسمة في الكم^٢ وبعتبر لواء الحجة من اللوائات المزدحمة بالسكان فيه ٤٠ نسمة بالكم^٢ .

تبلغ مساحة النين ١٩٥,٠٠٠ كم^٢ ويبلغ عدد سكانها ٤,٥٠٠,٠٠٠ نسمة . والمسلمون هناك يدينون بمذاهبين هما الشيعة الزيدية نسبة إلى زيد من سلالة علي زين العابدين والشافعية نسبة للإمام الشافعي وكان بالنين ما يقرب من ٥٠,٠٠٠ يهودى بدأت هجرتهم منها عندما بدأت الدعاية لانشاء وطن قومي واغتصاب فلسطين العربية وهاجر معظمهم ولم يبق منهم إلا بضعة مئات .

وتبلغ الكثافة السكانية أقصاها في النجود والمنحدرات الوسطى حيث تتوفر الينابيع ويزيد منسوب المطر . وتقل الكثافة كلما اتجهنا شرقاً وجنوباً . وذلك حيث الفيافي المقفرة (بلاد الجوف والحداء والنهم وسنحان وأرحب) وبالرغم من أن النين تصلح للسكنى المستقرة وفيها كثير من الاراضى التى يمكن استصلاحها واستغلالها ؛ غير أنها لا تزال تعاني فقراً سكانياً ملحوظاً .

(١) الدكتور عزيز النص : أحوال السكان في العالم العربي : ١٩٥٥ ص : ٦٢ .

والجدول الآتي يوضح درجات الكثافة السكانية في أهم الألوية .

اللواء	الكثافة	اللواء	الكثافة	اللواء	الكثافة
الحديدة	٤٦	تعز	٣٦	صنعاء	١٣
الحجة	٤٠	إب	٣٥	صعدة	١٢

٤ — الجمهورية السودانية :

توزيع السكان

تقدير عدد السكان بالمديريات المختلفة وعواصمها في عام ١٩٥٤

المديريات	المساحة بالجبل المربع	عدد السكان بالآلاف	الكثافة السكانية المربع	العاصمة	عدد سكانها بالآلاف
بحر الغزال	٨٢٥٣٠	٧٧١	٩,٣	واد	٩,٠
النيل الأزرق	٥٤٨٨٠	١٨٤٠,٦	٣٣,٥	وادموني	٥٧,٣
دارفور	١٩١٦٥٠	١٠٠٥,٦	٥,٢	القاشر	٢٣,٦
الاستوائية	٧٦٤٩٥	٦٣٢,٩	٨,٣	جوبا	١٨,٥
كسلا	١٣١٥٢٨	٧٨٨,٢	٦,٠	كسلا	٣٦,٠
الخرطوم	٨٠٩٧	٤٨٦,٤	٦٠,١	الخرطوم	٨٢,٧
كردفان	١٤٦٩٣٠	١٦٧١,٦	١١,٤	الأبيض	٧٠,١
الشمالية	١٨٤٢٠٠	٧١٥,٥	٣,٩	الدار	٨,٠
أعلى النيل	٩١١٩٠	٨٥٢,٢	٩,٣	ملاكال	١٣,٠
الجملة	٩٦٧٥٠٠	٨٧٦٤,٠	٩,١	الجملة	٣١٨,٢

٥ - الجمهورية العراقية :

توزيع السكان

توزيع السكان على الألوية المختلفة حسب بيانات تعداد عام ١٩٤٧

الألوية	عدد السكان	المساحة الكلية بالكيلومتر المربع	المساحة المزروعة والقابلة للزراعة بالكيلومتر المربع
الموصل	٦٠١,٥٨٩	٤٥,٨٠٠	١٥,٠٤٠
أربيل	٢٤٠,٢٧٣	١٦,٦٠٠	٧,١٦٠
السليمانية	٢٢٢,٧٣٢	٩,٥٠٠	٢,٥٥٠
كركوك	٢٨٥,٨٧٨	٢٠,٨٠٠	١٥,٢٦٠
ديالى	٢٧٣,٣٣٦	١٦,٨٠٠	٣,٨٢٠
بغداد	٨٠٥,٢٩٣	٢٢,١٠٠	٤,٨٧٠
الدايم	١٩٣,٢٩٤	١٢٤,٥٠٠	١,٥٧٠
كربلاء	٢٧٦,٦٧٠	٢١,٢٠٠	٦٨٠
الحلة	٣٦١,٩٠٣	٨,١٠٠	٦,٥٣٠
الكويت	٢٢٤,٧٩٢	١٦,٤٠٠	١٠,٧١٠
الديوانية	٣٨٣,٧٨٧	٨٣,٠٠٠	١١,٤٧٠
المنتفك	٣٦٩,٨٠٦	٣٨,٧٠٠	٥,٠٨٠
العمارة	٣٠٨,١٠٨	١٩,٧٠٠	٦,٦٨٠
البصرة	٣٥٢,٠٣٩	١٠,٩٠٠	٧٨٠
المجموع	٤,٧٩٩,٥٠٠	٤٥٣,٥٠٠	٩٢,٢٠٠

(1) The Middle East, 1955 .

(2) Alfred Bonn , The Economic Development. in the Middle East

يلاحظ بصفة عامة أن المنطقة الزراعية التي تمتد من بغداد إلى البصرة تشتمل على أكثر من نصف مجموع للسكان (٥١,٥) ومتوسط الكثافة فيها ٣٧ بالـكم^٢، وتليها في الكثافة السكانية المنطقة الشمالية المتاخمة لإيران وتركيا، ومتوسط كثافتها ١٧,٥ أما منطقة البوادي فلا تزيد كثافة سكانها على ٢ في الـكم^٢.

٦ — الجمهورية اللبنانية :

المحافظة	نسبة ماحتها	كثافتها في الـكم ^٢	النسبة إلى مجموع السكان
بيروت	٢,	١١١٧٦	١٦,٢
جبل لبنان (بعبدا)	١٨,٧	١٩٥	٢٩
لبنان الشمالي (طرابلس)	١٨,٨	١٤٤	٢١,٧
لبنان الجنوبي (صيدا)	١٨,٧	١٨٧	١٨,٥
البقاع (زحلة)	٤٢,٦	٤٣	١٤,٥

ويلاحظ بصفة عامة أن جبال لبنان هي أكثر جهاتها كثافة في السكان ويمكن تفسير ذلك بالعوامل التاريخية والطائفية التي حملت الدروز والموارنة على الاعتصام بالمرتفعات فراراً من الاضطهاد وتأميناً لسلامتهم وصوناً لحياتهم . . . هذا بالإضافة إلى العوامل الجغرافية المناخية حيث تكون الوديان والأمطار تكثّر كثافة السكان .

٧ - المملكة الليبية المتحدة :

تقسم المملكة الليبية إلى ثلاث ولايات : برقة في الشرق ، وتشغل نصف المساحة العامة تقريبا ، ولكنها لا تضم إلا ٣٠٪ من السكان ، وطرابلس في الشمال الغربي وتضم حوالي ٦٥٪ من السكان ، وفزان في الجنوب الغربي وتضم ٥٪ من مجموع السكان برغم كبر مساحتها ، ويتبين ذلك من :

النتيجة الأولية لتعداد سكان المملكة الليبية المتحدة لعام ١٩٥٤ الموضحة فيما بعد

الجملة	المجموع				غائبون مؤقتا		موجودون فعلا		عدد الأشخاص القاطنين سواء كانوا موجودين أو غائبين مؤقتا	عدد العائلات	عدد الأماكن	اسم الأوية
	إناث	ذكور	إناث	ذكور	إناث	ذكور						
٢٩١٢٢٨	١٣٨٦٢٥	١٥٢٧٠٣	١٤٩٢	٤٣١٥	١٣٧١٣٣	١٤٨٣٨٨	٦٢٠٥٨	٥٩٥٠٦	برقة			
٧٣٦٠٦٤	٣٥٩٢١٨	٣٨٦٨٤٦	٨٣٦٠	٢٠٠٢٩	٣٥٠٨٥٨	٣٦٦٨١٧	١٦٧٣٣٢	١٣٩١٠٣	طرابلس			
٥٤٠٣٨	٢٧٣٧٠	٢٧٠٦٨	١٩٠	٣٠٥٣	٢٧١٨٠	٢٤٠١٥	١٢٣٨٨	١٥٠٨١	فزان			
١٠٩١٨٣٠	٥٢٥٢١٣	٥٦٦٦١٧	١٠٠٤٢	٢٧٣٩٧	٥١٥١٧١	٥٣٩٣٢٠	٢٤١٦٦٩	٢١٣٦٩٠	المجموع			

٨ - الجمهورية التونسية :

توزيع السكان

توزيع السكان على المناطق المختلفة في تونس حسب تعداد ١٩٤٦ .

المنطقة	عدد السكان
باجه	١٠١,٩٠٩
بنزيرت	٢٣٨,٢٨٤
بحاية	٥٩,٣٣١
قابس	٩٢,٢٦١
جفصة	١٥٠,٢١١
قرومالية	٢١١,٤٣٤
القيروان	١٨١,١٢٧
القصرين	١٢٣,٠٣٥
الكاف	١٦٣,٦١٧
المهدية	٧٧,٧٠٩
مكتر	٧٧,٢٠٢
مجاز الباب	٦٣,٧٤٠
صفاقص	٢٨٥,٥٥٩
سوق الاربعاء	١١٤,١٠٤
سوسة	٢٦٤,١٥٧
طبلية	٤٧,٩٢٠
طبرسق	٥٩,١٥٧
الحدود الجنوبية	١٢٠,٦٩٥
توزر	٤٤,٩٧٠
تونس	٦٠٣,٧٦٦
زعفران	٦٠,٧٦٤
المجموع	٣,٢٣٠,٩٥٢

يلاحظ أن الكثافة السكانية تختلف باختلاف إظهار العمران ومستلزماته ، وتبلغ هذه الكثافة أقصاها في تونس إذ تصل إلى ٢٥٠ وتأخذ في الهبوط التدريجي فتبلغ حوالي ٨٠ في بنزيرت وباجه، وتهبط في الجنوب فلا تكاد تصل إلى ٢٠ في قابس أما في المناطق الصحراوية فهي لا تزيد على ٤ في ألكم^٢.

٩ — الجمهورية الجزائرية :

توزيع السكان

توزيع السكان على المناطق المختلفة في سنتي ١٩٤٨ و ١٩٥٤ .

عدد السكان		المناطق
١٩٥٤	١٩٤٨	
٣,٠٥٤,٢٣٢	٢,٧٦٥,٨٩٨	مدينة الجزائر
٣,٣٣٨,٩١٠	٣,١٠٨,١٦٥	قسنطينة
٢,١٥٨,٥١٣	١,٩٩٠,٧٢٩	وهران
—	—	الحدود الجنوبية
٢٦٣,٦٦٦	٣٥٠,٨٩٥	عين صبرة
٢١٣,٨١٤	٢١٩,٤٨٣	عوادية
٥٩,٥٤١	٦١,٦٨٦	الواحة
٢٧٩,٩٧٩	٢٨٤,٩٤٠	طوجرتة
٩,٣٦٨,٦٦٥	٨,٦٨١,٧٨٥	المجموع

١٠ - المملكة المغربية :

توزيع السكان

توزيع السكان على المناطق المختلفة حسب تعداد عام ١٩٥٢ .

، إحصائية رقم ٣٩ .

عدد السكان	المنطقة
٦٨٢,٤٥٠	أغادير ^(١)
١,٩٦٤,٧٦٠	الدار البيضاء
٩٤٨,٩٥٠	فاس
١,٩٢٠,٩٣٠	مراكش
٦٧٢,٨٩٠	مكناس
٢٩٢,٣٦٠	وجدة
٩٣٩,٧٧٠	الرباط
٧,٤٤٢,١١٠	المجموع

Demographic yearbook, 1955. P. 162.

(١) هذا الإحصاء مأخوذ قبل وقوع الزلازل .

١١ - إمارة الكويت :

توزيع السكان

عدد السكان الوطنيين والأجانب المقيمين بالكويت حسب مواضعهم

عام ١٩٥٣

، إحصائية رقم ٤٢ ،

الجنسية	عدد السكان بالآلاف
وطنيون	١٥٠,٠
العراق	١٥٠,٠
لبنان	١,٠
الأردن وفلسطين	٣,٠
إيران	٢٨,٥
سوريا	٣,٩
إمارات الخليج العربي	٧,٨
الهند	٦,٠
باكستان	٤,٤
اليمن وعدن	١,٠
أوروبيون وأفريقيون وجنسيات أخرى	٢٨,٥
جمله عدد السكان	٢٥٠,٠

المصدر : حلقة الدراسات الاجتماعية للدول العربية ، كتاب الدورة

الرابعة ، مارس ١٩٥٦

١٢ - بحمية عدن :

توزيع السكان
تعداد السكان حسب إحصاء نهاية عام ١٩٥٢ .

الأجزاء	السكان
عدن	١٣٠,٠٠٠
البحمية	٦٥٠,٠٠٠
الجملة	٧٨٠,٠٠٠

المصدر : The Middle East 1955, Europa Publications;
الخدمات التعليمية بحمية عدن :

عدد المدارس والمدرسين والتلاميذ من الجنسين في المراحل المختلفة
في عام ١٩٥٠ .

المرحلة	عدد المدرسين	عدد المدرسين	الجملة	عدد التلاميذ	عدد التلميذات	الجملة
الإبتدائي	٦١	١١٤	٤٠	١٥٤	٤٤٥٥	١٣٢٧
الثانوي	٩	٤٩	١٠	٥٩	١٠٩٦	١٢٢١
معاهد المعلمين	١	—	—	—	١٣	١١
المجموع	٧١	١٦٣	٥٠	٢١٣	٥٥٦٤	١٤٦٣
						٧٢٠٧

ملحوظة : عدد المدرسين والمدرسات أدمج في المدارس الثانوية .

World Survey of Education .

١٣ - إمارات الخليج العربي :

البحرين - قطر - عمان

توزيع السكان

المساحة بالميل المربع ، عدد السكان والكثافة سنة ١٩٥٣ .

الإمارات	المسافة	عدد السكان	كثافة السكان في الميل المربع
البحرين	٢١٣	١٢٠.٠٠٠	٥٦٣,٤
عمان	٦.٠٠٠	٨٠.٠٠٠	١٣,٣
قطر	٨.٠٠٠	٢٥.٠٠٠	٣,١
المجموع	١٤.٢١٣	٢٢٥.٠٠٠	١٥,٨

أما عن المحميات فليس لدينا أحصاءات أو معلومات صحيحة عن توزيع سكانها ولكن المعروف بصفة عامة أن السكان يتزايدون في المناطق المرتفعة المطيرة ويقبلون في المناطق المجربة وهم يعيشون عيشة بدوية متنقلة وإن كانوا يستقرون في بعض الواحات المنتثرة غير أن إكتشاف البترول في معظم أجزاء المنطقة سيكفل تزايد عداد سكانها ويدعم إستقرارهم .

خاتمة

لا شك أننا — في ضوء البيانات الاحصائية السكانية لقطاعات الأمة العربية — نستطيع أن نخلص إلى تلك الحقيقة الديموجرافية، ألا وهي أن الهيكل السكاني العام للمجتمع العربي الكبير الذي يعبر عنه مصطلح *The Massing of Arab Population*، يعاني ما يمكن أن يسمى بالتفاوت في الضغوط والكثافات السكانية، فهناك مناطق تعاني نقصا كبيرا في كثافة سكانها بالنسبة لإمكانات واحتمالات عمراتها. كالمملكة الليبية المتحدة والجمهورية السودانية والقطاع الشمالي من الجمهورية العربية، في الوقت الذي تعاني فيه بعض قطاعات الأمة العربية وفرة في الكثافة السكانية.

ومن الواضح الجلي أننا إذا نظرنا إلى هذه الوضعية الديموجرافية نظرة تكاملية، باعتبار أن هناك وحدة وظيفية متكاملة الفاعلية، متجانسة الثقافة الروحية والمادية، تجمع شعب الأمة العربية، فإننا لا بد أن نخلص إلى أننا لو جردنا الحدود السياسية المصطنعة من آثارها التجزئية والانعزالية، لنكاملت نسب التفاوت في الكثافة السكانية بين قطاعات الأمة العربية، ولنيسر توطين المواطنين العرب وفق ما تقتضيه معادلات الضغوط الديموجرافية المتفاوتة، وبما يزيد في إيماننا بإمكان حل المشكلة السكانية بهذه الوسيلة التنظيمية التوزيعية، أن الوحدة الديموجرافية للأمة العربية، تستند إلى دعائم وأصول حضارية مرغلة في أصالتها، متمثلة في الوحدة اللغوية، والتجانس في النماذج الروحية والعقيدة والأنظمة الثقافية والمشاركة في التجارب والانتفاضات القومية.

وفضلا عن هذا وذاك فإنه يبدو لنا أن المضمون العملي للوحدة الديموجرافية للأمة العربية يعتبر ضرورة اجتماعية منبثقة من تحليل خريطة التوزيع السكاني ، إذا نحن وضعنا في الاعتبار الامتداد المتصل للقطاع الأقليمي الطبيعي ، وقدرنا الظروف المعيشية والمستويات الاقتصادية والثقافية التي تنطوي عليها البيئة الاقليمية ، وما يستلزمه مناخها العمراني من تكامل سكاني يكفل تحقق التكافل السياسي والاقتصادي والثقافي .

والله ولي التوفيق .

أحمد الخشاب

المصادر العربية

- أحمد سويلم العمرى : الشرق الأوسط ومشكلة فلسطين القاهرة ١٩٥٤
 أحمد نغرى : اليمن ، ماضيها وحاضرها القاهرة ١٩٥٧
 المقرئى : البيان والتبين عما نزل بأرض مصر من الأعراب ١٩١٦
 جمال الدين سعيد : دراسة تحليلية لإحصاءات ونمو السكان فى مصر
 حامد عمار : بعض مفاهيم علم الاجتماع ١٩٥٩
 صلاح الدين الشريف : الاتجاهات العامة فى سياستى الانعاش والتخطيط (مترجم)
 صلاح الدين نامق : مشكلة السكان فى مصر ١٩٥٥
 دراسات فى السكان ١٩٥٧
 عبد الحليم النجار : العربية دراسات فى اللغة واللهجات والأساليب مترجم ١٩٥١
 عبد العزيز عزت : فى الإحصاء ١٩٥٦
 عبد الكريم الياقنى : فى علم السكان دمشق ١٩٥٩
 عبد الوهاب عزام : مهد العرب
 عزة النصر : أحوال السكان فى العالم العربى ١٩٥٥
 فؤاد الشريف : اقتصاديات المنافع العامة
 محمد صبحى وآخرون : دراسات فى جغرافية مصر
 محمد عوض محمد : السودان الشمالى : سكانه وقبائله ١٩٥١
 مقالات وتقارير وإحصائيات
 تقرير المؤتمر العالمى للسكان - أغسطس ١٩٥٤
 التقرير الصحى عن سورية ١٩٤٤ ، ١٩٤٥
 التقرير السنوى للمجلس الدائم لتقييم الإنتاج القومى فى مصر ١٩٥٥
 الإحصاء السنوى للجيب ١٩٥٨
 كتاب الجيب ١٩٥٩
 الكتاب السنوى الذى تصدره مصلحة الاستعلامات ١٩٥٨ ، ١٩٥٩
 المجموعات الإحصائية السنوية السورية لسنوات ١٩٥٤ ، ١٩٥٥ ، ١٩٥٦
 أطلس الخدمات : المجلس الدائم للخدمات عام ١٩٥٥
 الفكر الاقتصادى العربى فى القرن الخامس عشر : مقال للدكتور محمد صالح
 مجلة القانون والاقتصاد ١٩٣٣

مراجع أجنبية

- Ammar. (A.M.) The People of Sharquiya
Carr.-Sauders Population, 1925
Cleland, W. The Population Problem in Egypt 1936
Charles ; Egypt at Mid.-Century, London 1954
Duncan : Race and Population Problems.
Farid (I. A.) The Population of Egypt . Cairo 1948
Fawcett, (C. B.) Population, London 1937
Fisher (B.) The Middle East, London 1950
Gini (Corrado) Demographie et Sociologie
Mabel. A. Elliot, Social Disorganization
Malthus : An Essay on the principle of Population or a view
of its past and present effects on Human Happiness
1803
Mumford : (L.) The Culture of Cities N. Y. 1938
Notestein (Frank), The Future Population of Europe
Soviet union, Geneva, 1944
Class, Status and Power 1945
Quinn, The Development of Human Ecology in Contemporary
Social Theory Barrnes and Becker N. Y. 1940
Raymond Pearl : Differential Fertility* The quarterly Review
of Biology March 1927
Russel, (I) World Population and World Food Supplies 1952
Sauvy (Alfred) : Theories Generales de la Population Paris
1952 Richesse et Population 1950
Sorokin, Contemporary Sociological Theories N. Y. 1948
Thompson (Warman), Population Problems 1954.
Danger Spots in World Population 1952
Thoumin (I. R.) Geographie Humaine de la Syrie Centrale,
Weulersse (I.) Paysans de Syrie. Proche-Orient,
W. S. & E. S. Woytinsky, World Population and Production
Trends and Outlook N. Y. 1953

محتويات الكتاب

من — إلى

كلمة افتتاحية ٣ — ٦

الكتاب الأول

الأسس النظرية للدراسات الديموجرافية

الفصل الأول : علم السكان وأهميته الاجتماعية

المبحث الأول : موضوع العلم ونطاقه

مقدمة تمهيدية ٩ — ١١

المطلب الثاني : موضوع علم السكان ١٢ — ١٩

الفصل الثاني : نشأة الدراسات الديموجرافية وتعريفاتها

المبحث الأول : لمحة تاريخية ٢٠ — ٢٨

المبحث الثاني : الاتجاه العلى فى الدراسة السكانية ٢٩ — ٣٢

صلة الدراسات السكانية بالدراسات الإنسانية ٣٣ — ٤٢

الفصل الثالث : أهداف الدراسات السكانية ٤٣ — ٥٢

الفصل الرابع : المصادر الإحصائية للسكان ٥٣ — ٥٩

تنسيق الإحصاءات السكانية فى الجمهورية العربية المتحدة ٦٠ — ٦٢

الفصل الخامس : النظريات السكانية

تمهيد عام ٦٣ — ٦٤

المبحث الأول : النظريات الكيفية النوعية

المطلب الأول : اتجاهات تحسين النسل ٦٥ — ٨١

علم تحسين السلالة ٦٧ — ٨١

المطلب الثاني : الخصوبة المتباينة فى الطبقات الاجتماعية ٨٢ — ٩٠